في منعرج التاريخ

obeikan.com

«الخاقانية الخزرية - بل الأصح المستعمرة الراهدونية تمتعت بثروات هائلة حصلت عليها من التجارة بالحرير الصيني وفراء ما وراء الكامسك والعبيد السلاف، ودعم التجار كل الأنظمة الاستبدادية: أباطرة سلالة تان. والكارولنجيين. والعباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة، وحَمَلَ رئيس جماعات تجار إيتيل اللقب التيوركي بك وحكم البلاد حكماً استبدادياً جاعلاً من خان سلالة آشين الملكية التيوركية دمية واستندت سلطة الـ بِكْ على القوات المرتزقة من الجرجان الذين كونهم مسلمون سمحوا باستخدامهم فقط ضد أصحاب الثقافات الأخرى ولكنهم رفضوا القيام ضد من هم من دينهم نفسه».

قصة عن الأتاوة الخزرية

(خبرة التفسير النقدي للمحتوى التأريخي)

إن المصادر القصصية بما فيها المدونات (الأخبار) التاريخية لكل الشعوب تنتمي بدرجات مختلفة إلى علم الأدب والتاريخ وبالنسبة لـ «قصة السنين الغابرة» التي برهن د. س ليخاتشيف باستفاضة على أن جملة قصص المدونات التاريخية برمتها لا تعكس الحقائق بل تعتبر اقتباسات من مدونات أخرى أو خيالات مدوني التاريخ وهذه الملاحظة لا تقلل من القيمة الفنية للمدونات كأثر أدبي ولكنها تحمل على التعامل بانتباه مع محاولات الفهم الحرفي لبعض المقتطفات والنبذ التي تؤدي لا إلى تشويه الحقيقة التاريخية أو تحريفها فحسب وإنما إلى الفهم غير الملائم للعمل الأدبي.

وهذا السؤال المطروح ليس جديداً فكثير من القصص بدءاً من أسطورة دعوة الفارياغ قد تعرضت للنقد التفصيلي الذي مكن من تحديد إمّا الحقيقة أو التخلي عن التلفيقات المقصودة باعتبارها بديلاً للقصص التركيبية ولكن المسألة الخزرية لا تزال تنتظر المعلق - المعقب لأن الأبحاث التاريخية والأثرية الجديدة غيرت لدرجة كبيرة الفكرة التي كانت شائعة عن خازاريا منذ ثلاثين سنة خلت بحيث ظهرت إمكانية تدقيق العمل الراهن المكرس لها.

ومختصر القصة التي تهمنا هو أنه بعد موت كي وشيك وخوريف قبيل عام ٨٥٢م (ترتيب زمني بتقريب زائد - المؤلف) طلب الخزر الإتاوة من البوليان الذين أدوها سيوفاً ذات حدين، ثم يأتي فيما بعد القسم التعليمي الوعظي. ورأى شيوخ الخزر بذلك نذير شؤم لأن سيوفهم الضالعة لها حد واحد أما السيوف المغاول فلها حدان ولذلك قرروا أن البوليان سيأخذون منهم الإتاوة ومن شعوب أخرى وهو ما قد حصل فعلاً.

وإن مهمتنا هي أن نستوضح فيما هل كان ذلك فإن كان نعم - فمتى وكيف كان كما قيل. وإن كان لا فلماذا إذن كتب هكذا وهذا يعني لأجل من أو لماذا أدخل التحريف إلى الماضي.

رداً على هذه الأسئلة يمكننا أن نحدد أي جزء من الخبر يقدم المعلومات للتأريخ وأيها الذي يعتبر تعليماً وهذا يعني أدبياً.

إن إتاوة السيوف المغاول كان لها فقط معنى واحد هو أنها كانت عند البوليان سلاحاً مصادراً وبالنسبة لمالكي الضوالع كانت المغاول خردة لأن الضالع خفيف ولا يتعب اليد ويقطع الزرد (الدرع) غير أن الضالع يتطلب تدريباً خاصاً للمقاتل أكثر بما لا يقاس مع المغول والضوالع كانت في الواقع عند الخزريين في القرن التاسع ومؤلف هذه السطور انتشل (استخرج) واحداً منها من قبر في دلتا الفولغا وبالتالي لم يكن الإثراء على حساب البوليان هو هدف الخزر وإنما هو حرمانهم من تلك الإمكانية القتالية. غير أن هذا التصرف كان ممكناً فقط نتيجة لحرب ظافرة لم ينبس مسجل الحوادث التاريخية بكلمة عنها. ولكن متى كانت هذه الحرب أو بالضبط متى كان من الممكن أن تكون. وهكذا سننتقل إلى الكرونولوجيا (الترتيب الزمني) Chronology.

لنبدأ من العكس: متى كان لا يمكن أن تكون هذه الحرب بدءاً من القرن السابع لما نشأت خازاريا دولة مستقلة.

والرأي القائل بأن الخزر كانوا غرباء من الرحل الآسيويين قد ظهر خاطئاً فالأعمال الثرية لبعثة جامعة لينينغراد في عامي ١٩٦٢ و ١٩٦٣م اكتشفت قبور وآثار السكان الخزر وكلها كانت واقعة في وديان الأنهار التي كان لها في القرون ٧-٩م دلتات (مفردها دلتا) هائلة وذلك لأن مستوى قزوين توقف عند مستوى أدنى بـ ٦-٨م من المستوى الحالي وعندها كانت مساحات هائلة من الأراضي المخصبة حرة من المياه - «هولندا القزوين» كثيرة الأسماك والكروم والمروج التي تغمرها مياه الفيضان والغابات التي سكن فيها بالذات الخزر القدامى السكان الأصليون لهذه المنطقة الرائعة، ويقارن مسجّل الحوادث التاريخية بصورة صحيحة الخزر بالسكيث الذين طابقهم المصدر الذي اعتمده غيورغي أمارتول مع ما قبل السرماثيين سكان القسم الجنوبي من أوروبا الشرقية في ذلك الوقت الذي استولى فيه على السهوب التي تتوزع المياه، على التوالي: السرماثيون من القرن الثالث قبل الميلاد، والهون في الرابع الميلادي، والبلغار في القرن الخامس الميلادي، والآفار في السادس والمجر في السنوات ٨٢٢-٨٣٦ والبتشينيغ في ٨٨٩-٨٩٥م. عاش الخزر بهدوء في أدغالهم الشاطئية الصعبة المنال على الرحل الذين تطاحنوا معهم دائماً وشذ عن هذه القاعدة فقط أتراك الخاقانية الغربية (٦٠٤-٦٦٠م) لأنهم لم يرتحلوا من سيميريتش (الأنهار السبعة) إلى منطقة القزوين وإنما فقط ضموها إلى دولتهم.

وشارك الخزر في الحروب الداخلية التي مزقت الخاقانية الغربية ودمرتها دعماً لأحد الفرقاء الذي لما أنتصر استقبلوا ولي العهد الهارب ونصبوه خاقاناً وشكلوا في عام ٦٥٠م دولة خاصة مستقلة. والخان وحاشيته ترحلوا حسب العادة صيفاً وبالتالي تكون نتيجة لذلك رأي خاطئ كما لو أن الخزر كلهم رحل.

والزيغان الآخر - هو الرأي بأن الخزر دخلوا في الديانة اليهودية. ففي القرون الوسطى كان هذا مستحيلاً لأن اليهودية هي ديانة وراثية الأصل وليست هدائية. والداخلون حديثاً النادرون يعتبرون «منبوذي إسرائيل - برص إسرائيل» وفي الواقع إليكم ما كان: - في بداية القرن السادس بعد أن ألقى الوجيه مزدك القبض على الشاه قباذ حاول إقامة المساواة في الممتلكات بما فيها النساء، وهذه الثورة من فوق أثارت مقاومة عنيفة وهيجت كل مجموعات السكان بمن فيهم اليهود الذين كانوا في إيران أكثر من أي مكان آخر وانقسمت المجموعة البابلية إلى معادين ومناصرين للمزدكيين والأوائل أجبروا على الهرب إلى بيزنطة والآخرون صاروا في عداد المضطهدين بعد عام ٥٣٠م عندما أعدم مزدك شنقاً، والمزدكيون الناجون هربوا إلى القفقاس عندئذٍ ظهر في السهل الواسع بين نهري السولاق والتيريك مجموعة اليهود المحافظين على السبت والختان والناسين لكل الوصايا الأخرى، وتجاوروا في وفاق مع الخزر وخرجوا معهاً بالحملات وفي القرن الثامن استحق بولان أحد صناديد اليهود لقيامه بمآثر منصب قائد عسكري واستعاد الطقوس اليهودية وفي ترجمة مؤلفات يهودا بارزيل المؤلف اليهودي من القرن الحادي عشر، ترجم هذا الخبر هكذا «صار الخزر مهتدين حديثاً ولهم ملوك مهتدون «لليهودية» إلا أن شيشمان يشير إلى أن كلمة «غير» تعني في التوراة الغريب الذي انضم إلى شعب آخر ونال حقوق القبيلة التي آوته ومعنى «مهتد حديثاً» كلمة أدخلت متأخراً ومن الحكم بحسب المجرى العام للأحداث يكون المعنى القديم في الحالة الراهنة هو المفضل لأن بولان اتبع القرائية وليس التلمودية.

وخلق تعايش اليهود مع الخزر ظروفاً سانحة لهجرة اليهود - التلموديين البيزنطيين إلى خازاريا في زمن الاضطهاد الذي وقع عليهم أثناء حكم الإمبراطور هرقل في السنوات ٦٢٨-٦٢٩م وذلك لأنهم نكلوا باليونانيين في زمن الاحتلال الفارسي لسوريا ومصر وفي زمن الإمبراطور ليون الايصافري ٧٢٣م

لتعاونهم مع العرب لأنهم اعتدوا على آسيا الصغرى. ووجد اليهود في خازاريا المأوى واغتنوا لمشاركتهم في تجارة الترانزيت (العبور) لأن إيتيل وقعت على الطريق من الصين إلى بروفانسيا وكثيراً ما تزاوجت كلتا الطائفتين اليهوديتين بالخزر.

ولكن هنا يكمن الباعث الأبعد فالخزر كقبيلة أورآسيوية يعتبرون النسب للأب واليهود - للأم. ولذلك فابن الخزري واليهودية يحتفظ بجميع حقوق القبيلة الخزرية ويمكن قبوله في الجماعة، أما ابن اليهودي والخزرية فكان غريباً بالنسبة لهؤلاء وأولئك... وشكل الأخيرون جماعة صغيرة من كارايميي القرم تجمع ملامحهم الانثروبيولوجية (السلالية) بين الشخصية التركية والشرق أدنوية أما الأولون فشكلوا جماعة خزرية يهودية من ضمنها السلالة الملكية التركية التي استولت على السلطة في عشرينيات القرن التاسع في خازاريا. وفي ذلك الوقت تبدلت سياسة خازاريا بصورة حادة فبدلاً من الحروب التقليدية مع العرب الذين يحكمون دربنت (دربند - باب الأبواب - المترجم) بدأ الهجوم على الغرب وهذا يعني على بيزنطة ولكن ليس بعد على الروس.

وبين كييف وأسافل الفولغا ترحل المجر في القرن التاسع ولكن في عام ٨٣٤م بنيت ساركيل من قبل الخزر كقلعة استناد ضد «الأعداء الغربيين» ولكن روسيا كانت في ذلك الوقت خاقانية قوية وهذا يعني دولة ذات سيادة وهكذا وصفها السفراء «الخاقانية الروسية» المعروفة في بلاط الملك لودفيغ التقي في عام ٨٣٩م. وكتب كذلك ابن رسته القرديزي (كاتب عربي يتحدث عن السلاف ويسمي كييف كوياب - المترجم) ومؤلف كتاب حدود العالم المجهول وبطريرك القسطنطينية فوتيوس وفي كتاب فاسيلي المقدوني إلى لودفيغ الألماني في عام ٨٧١م يسمي «الخاقانات» الأربعة: الآفاري (يعني الهنغاري) والنورماني (يعني الروسي) والخزري والبلغاري ولا يمكن التحدث عن أي تبعية لكييف إلى خازاريا، ففي عام ٨٦٠م قام الروس بحملة مظفرة على القسطنطينية وعقدوا صلحاً مشرفاً مع بيزنطة واعتنقوا الأرثوذكسية جزئياً. وهذه الحملة مدونة تفصيلياً في المدونات التاريخية البيزنطية[1] أما في الحوليات فهي مدونة خطأً في عام ٨٦٦م. وترتكب «قصة السنين الغابرة» عند وصف أحداث القرنين التاسع والعاشر أخطاء تقويمية أشار إليها د. س ليخاتشيف، إلا أنه لا يرتاب لا باستيلاء أوليغ على كييف في عام ٨٢٢م ولا بإخضاعه بالتالي للدريفلانيين في عام ٨٣٣م والسيفيريان في عام ٨٨٤م والراديميتشيين في عام ٨٨٥م زد على ذلك أن الأخيرين بحسب الحوليات أدوا الإتاوة سابقاً للخزريين، ولو سلمنا بهذا أما كان ذلك يمكن أن يسبب الحرب مع

١- يجدر بهذه المناسبة أن نشير إلى أن المؤلفين البيزنطيين لا يذكرون حملة أوليغ في عام ٩٠٧م ويعتبر أ. أ شاخماتوف إن معاهدة عام ٩٠٧م لم توجد. ومرة أخرى نجد ترتيباً زمنياً خيالياً! تحليل البراهين «مع» و «ضد» قام به د. س ليخاتشيف.

خازاريا. وفي غضون ذلك تصمت الحوليات عن الخزريين حتى عام ٩٦٥م[1] لمدة ثمانين حولاً كاملة. وهذا بذاته يؤدي إلى التفكير بأنه هنا إما حدث إغفال مقصود وإما تواريخ الأحداث غُيِّر ترتيبها ليس من قبيل المصادفة لذلك نصرف النظر عن «قصة السنين الغابرة».

ونحاول استعادة سير الأحداث بحسب الأخبار الإسلامية ولأجل ذلك يجب الأخذ بالحسبان الأحداث في شمالي إيران التي قد يبدو غريباً أن يكون لها علاقة بموضوعنا.

في عام ٩٠٠ سحق إسماعيل الساماني دولة الشيعة في جنوبي قزوين ولكن السكان المحليين الجيليان والديالمة والمازندران لم يخضعوا أبداً للغرباء سواء كانوا فرساً أو مقدونيين أو عرباً لائذين بالحصون الجبلية، وكانت سلطة السامانيين وهمية وما دام الديالمة محميين من الجنوب بجبال البورصة ومن الشمال ببحر قزوين فإنهم استطاعوا أن يصمدوا ولكن في عام ٩٠٩م ظهرت في البحر القوارب الروسية التي اجتاحت جزيرة أباسكون، وفي السنة التالية هجم الروس على مازندران ولكنهم تكبدوا الهزيمة ورحلوا وفي عام ٩١٣م وبإذن من بنيامين الملك الخزري خاض أسطول روسي هائل ٥٠٠ سفينة في بحر قزوين وتعرضت سواحل جيليان وطبرستان وشيروان للنهب وبعد حصولهم على الغنائم الكثيرة عاد الروس إلى إيتيل وأرسلوا إلى الملك الخزري الحصة المتفق عليها (المشروطة) وتوقفوا للراحة وعندئذٍ طلب المسلمون في الحرس الملكي الخزري السماح لهم بالأخذ بالثأر لدماء المسلمين وأسر النساء والأطفال من الروس وسمح لهم الملك، وخلال معركة استمرت ثلاثة أيام تكبد الروس المرهقون من الحملة الهزيمة وهربت بقاياهم في الفولغا إلى الشمال ولكنهم أبيدوا من قبل البورتاسيين والبلغاريين (انظر شهادة المسعودي ج٢٦، ص ١٩٨-٢٠١). وهذه الأحداث لم تجد لها أصداء في «قصة السنين الغابرة» حيث وصفت بدلاً من ذلك بالتفصيل كيف نهشت الأفعى الأمير أوليغ، وعلى ما يبدو حدث هنا «سكوت مجازي» مقبول في المؤلفات الأدبية المعتادة ولكن لا يسمح به في المؤلفات التاريخية لأن هذه الحقيقة لها صلة مباشرة بموضوعنا ويجب إعارة الانتباه إليها.

ويفترض م. إ. ارتامونوف أن هذه الحملة نظمت «على حساب المغامرة بفصائل الفارياغ - الروس المتطوعة للحرب مع بيزنطة ومن ثم يطلق الأمير الكييفي سراحهم بعد انقضاء الحاجة إليهم» وروايته لم توضح لماذا سمح الخزر لقطاع الطرق بالمرور إلى البلدان التي يتاجرون معها وهو بنفسه يدحضها قليلاً فيما بعد في المناقشة مع ن. بابولوف معتبراً أن المصالح الخزرية والإسلامية متضاربة، ويشير م. إ. ارتامونوف بحق إلى أن «تجارة الترانزيت مع بلدان القزوين تعتبر أساسية لرخاء الحكومة الخزرية في القرنين ٩-١٠م ولم يكن من

٢- هذا التاريخ تؤكده شهادات المؤلفين المسلمين.

مصلحتها على الإطلاق الإخلال بها حتى ولو لوقت قصير» ولذلك هو يفترض أن الخزر سمحوا للروس بالمرور في قزوين فقط لأنهم لم يستطيعوا اعتراضهم، ولكن على ما يبدو من الاشتباك عند إيتيل أن الخزر امتلكوا تلك القوة (على إيقافهم) وبالتالي فإن الأمر هو شيء آخر.

نتذكر أن المناطق عند القزوين استولى عليها إسماعيل الساماني حليف خازاريا ولكن سلطته على ما يبدو كانت غير حازمة وقبع الديالمة في البورصة كما لو أنهم في قلعة محاصرة وللقضاء على مقاومتهم كان من الضروري محاصرة الشاطئ ولكن لا السمانيون ولا الخزريون امتلكوا أسطولاً، وفي ذلك الوقت بالضبط ظهرت السفن الروسية ومن البديهي الظن أن الملك بنيامين دعاهم ببساطة للتنكيل بقطاع الطرق الجبليين وتقاتل الروس مع الجيليانيين والديالمة من دون نجاحات كبيرة على ما يبدو ثم أغاروا على شيروان وباكو حيث جلس الحكام الساجيد المعينون من قبل الخليفة السني وبالتالي أصدقاء الخزر. وهذه المبادرة غير اللائقة هي التي سببت التنكيل من جانب المسلمين الخزريين وبخاصة أن سحق الأعداء الديالمة سهل لدرجة وضع الشيعة بحيث إنهم في عام ٩١٣م تحرروا من سلطة السامانيين وطردوا هؤلاء الأخيرين من جيليانا وطبرستان.

إن أخبار المسعودي التي كتبها في عام ٩٤٣م تعوض إلى حد ما النقص عند نسطر وتوضح سبب صمته. وبعد انتصارات أوليغ الأولى في سنوات النجاح ٨٨٣-٨٨٥م تنازل المغتصب الفارياغي (النورماني) عن السلطة. وفي حملة القوات الفارياغية - الروسية على القزوين ظهرت خازاريا حليفاً غير متساوي الحقوق والخيانة التي ارتكبها الملك بنيامين بقيت دون عقاب وتلاشت الدوافع لتمجيد أوليغ النبوي وهذا ما انتبه إليه س. م. سولوفيف أيضاً مع أنه لم يكن في حوزته المعلومات والبيانات التي دخلت في هذه الأيام في ترسانة العلوم، وتطلع إلى أوليغ ليس كقائد شجاع وإنما كسياسي داهية وجامع إتاوات (مَكّاس) من القبائل السلافية غير المحمية وهكذا هو كان هو وأورَثَ إيغور (خليفته - المترجم) إذا كانت الحوليات صحيحة دولة ليست قوية وإنما منطقة نفوذ للخاقانية الخزرية.

إن إخفاق الحملة القزوينية أنزل بالروس صدمة شديدة وقامت في عام ٩١٣م ثورة الدريفلانيين التي قمعت في عام ٩١٤م وفي عام ٩١٥م قام البتشينيغ بالإغارة على روسيا وكل هذا يدل على أن الحكومة الفارياغية ليس فقط لم توصل الخاقانية الكييفية إلى المجد وإنما أضاعت الكثير من أراضي نفوذ كييف بالرغم من أن مسجل الحوادث التاريخية يسعى لخلق انطباع معاكس لذلك. ولكن علينا أن لا نستعجل بالنتائج ولننظر إلى الأمام.

أما ماذا عن حرب خازاريا مع روسيا التي حدثت في الخمسينيات من القرن العاشر فيخبر بذلك رسالة الملك يوسف إلى حسداي ابن شفروتو (الحاخام

الكبير في قرطبة - الأندلس؛ المترجم) المكتوبة منذ ٩٠٠ سنة على وجه التحديد «أنا (نفسي) أعيش عند مدخل النهر ولا أسمح بمرور الروس القادمين بالسفن والتسلل إليهم (المسلمين - ل. غ) وهكذا بالضبط لا اسمح بمرور أعدائهم القادمين بالطريق البري والانتشار في بلادهم. إني أخوض معهم حرباً عنيفة ولو أني تركتهم (بسلام) لكانوا دمروا بلاد الإسماعيليين إلى بغداد».

هذا النص يصف العهد عندما استطاعت حكومة أوليغ وسغياتوسلاف الكييفية أن تعقد حلفاً مع الأتراك والبتشينيغ لحرب مشتركة مع خازاريا وهذه الحقائق التي تمت إلى موضوعنا بصورة غير مباشرة تظهر مدى نقصان معلومات مسجل الحوادث التاريخية وفي الوقت نفسه أيضاً ليست هكذا سهوا ببساطة بل على العكس إن المعلومات التي أغفلت لو كانت موجودة فهي مهمة للغاية لفهم العهد. لماذا؟.

إن الملك يوسف يصف العهد بصورة غير مجملة، فما دامت روسيا تخوض الحرب مع بيزنطة في السنوات ٩٤١-٩٤٣م سمح للسفن الروسية بالمرور لنهب أذربيجان التي استولى عليها في عام ٩٠٤م قائد الديالمة المرزبان ب. محمد الشيعي وعدو شيروان المتحالفة مع خازاريا وعلى ما يبدو أن القوات الروسية استخدمها يوسف لا ضد بيزنطة فقط بل ضد أولئك الرعاع سلالة قطاع الطرق الذين أعاقوا التجارة اليهودية العربية وتحالف الخاقانان مع الخليفة.

ولكن يبقى من غير المفهوم متى وفي أيّ ظروف استطاع أن يضع تحت تصرفه الأمراء الروس إلى تلك الدرجة التي تحولوا فيها إلى أتباع مساعدين وخدم جادوا بأرواحهم في سبيل مصالحه الغريبة، لأن مثل هذا الخضوع بالذات يمكن أن يتفق مع الموقف الموصوف في «قصة السنين الغابرة» وعلى ما يبدو حدث ذلك قبل عام ٩٤١ وهنا يندفع لمساعدتنا «كتاب المؤلف المجهول من مكتبة كامبريدج «نبذة من رسالة خزري يهودي مجهول من القرن العاشر»[١].

لنقدم للاستشهاد من الوثيقة العبرية باستشهاد لجغرافي ذلك الزمان العربي. يكتب المسعودي عن خازاريا «اعتنق الملك اليهودية في زمن تولي هارون الرشيد وانضم إليه جملة اليهود من البلدان الإسلامية المختلفة ومن الإمبراطورية البيزنطية. والسبب في ذلك هو أن الإمبراطور الذي يحكم الآن... (في سنة ٩٤٣م ل. غ) ويحمل اسم أرمانوس (رومان) أدخل يهود بلاده في المسيحية بالقوة ولم يحبهم... وهرب العدد الأكبر من اليهود من روما - (يقصد المسعودي القسطنطينية بالطبع - المترجم)- إلى بلاد الخزر».

لنِعَلّمْ على هذا وننتقل إلى الرواية العبرية.

١- يعتبر ب. ك كوكوفتسوف أن هذا النص هو من تأليف «يهودي بيزنطي من القرن الحادي عشر أو الثالث عشر» ويرفض مصداقيته ويتمسك بمثل هذا الرأي أيضاً كل من غريغوار و س. ب. شيشمان وكذلك مينورسكي إلا أنه إذا كان هناك إجماع على أن مؤلف الوثيقة لم يكن معاصراً للملك يوسف لكن يجب الاعتراف بأن كثيراً من تفاصيل رسالته قد تأكدت.

يسمي مؤلف الرسالة نفسه مقرَّب الملك يوسف وهو يصف الحروب التي خاضها الملك بنيامين في القرن التاسع ضد الآسي (الاوسيتيين) و المجر التيورك والباينيليون (البتشينيغ) والمقدونيين (البيزنطيين) وانتصر بنيامين على تحالف الأعداء بمساعدة الآلان ثم انتصر الملك آهرون على الآلان بمساعدة الغُزّ في بداية القرن العاشر، ويؤرخ م. إ. ارتامونوف هذه الحرب بعام ٩٣٢م ويربط بها لاضطهاد المسيحية الذي أجبر به آهرون الآلان المغلوبين على التخلي عنها ثم يأتي وصف الحرب التي انتصر فيها الملك يوسف وهي تلك الحرب نفسها التي نبحث عنها ولها تاريخ جيد..{... عندما كان الاضطهاد (لليهود) في أيام رومانوس الشرير (رومانوس ليكابين ٩١٩-٩٤٢. ل. غ) [ولما صار هذا الأمر] معروفاً [عند] سيدي جَنْدل (يعني قتل ل. غ) مقدار عظيم من الغلف (غير المختونين - المترجم) أما رومان [الشرير فقد أرسل] هدايا كثيرة لـ خ - ل - غو. (أوليغ - المترجم) ملك روسيا وحرضه ليلقى سوء مصيره. وجاء ليلاً إلى مدينة س - م - ك - راي (تموتاراكان. ل. غ) واستولى عليها بطريقة لصوصية لأنه لم يكن هناك الرئيس، رابي حشمون وصار هذا معروفاً لـ بول - ش - تسي وهذا يعني بيساخ المحترم ومضى غاضباً إلى مدينة رومانوس وقتل الرجال والنساء واستولى على ثلاث مدن عدا الكثير جداً من الضواحي ومن هناك سار إلى (مدينة) شورشون (خيرسونس - ل. غ) وحارب ضدها... وتركوا البلاد مثل الدود... ومات منهم ٩٠ رجلاً... ولكنه أجبرهم على دفع الإتاوة ونجا... من أيدي الروس و [هزم] جميع الذين ظهر منهم (هناك) و [قتلهم بالسيف] ومن هناك مضى محارباً إلى خ - ل - غو وحارب... شهور وأخضعه الله إلى بيساخ ووجد هو... الغنائم التي استولى عليها ذلك من س - م - ك - راي وقال هو (خ - ل - غو؛ ل. غ) «رومان حرضني على هذا» فقال له بيساخ «إن كان كذلك فامض إلى رومان وتحارب معه كما تحاربت معي وأنا أتراجع عنك وإلا أموت هنا أو سأعيش إلى أن آخذ بثأري منك» ومضى إلى هناك ضد إرادته وحارب ضد القسطنطينية في البحر أربعة أشهر وسقط هناك أبطاله، لأن المقدونيين تغلبوا (عليه) بالنار وهرب هو وخجل أن يعود إلى بلاده ومضى بحراً إلى فارس وقتل هو وكل معسكره، عندئذٍ أصبح الروس خاضعين لسلطة الخزر}.

ها هي الحرب المجهولة مؤرخة في السنوات ٩٣٩-٩٤١[1]. التي كان بعدها حملتان فاشلتان لإيغور على بيزنطة في السنوات ٩٤١م و ٩٤٣م وسماح الخزر للروس بالإغارة على بيردا (آران) في السنوات ٩٤٣ و ٩٤٤م والإغارة الأخيرة تمت على ما يبدو في ذلك الوقت الذي صار فيه البوليان دافعي ضرائب للخزر وهو ما تأكد لأن إيغور كان مجبراً في سنة ٩٤٥م على أن يجمع من الدريفلانيين إتاوة مضاعفة من دون مساهمة الأغلبية من فصائل متطوعيه ودفع

١- توصل إلى أقرب النتائج ن. ي. ببولوفوي في مقالة «للسؤال عن حملة أيغور الأولى على بيزنطة».

حياته لقاء ذلك ولكن لا يجوز اعتبار تصرفه طائشاً: كان عليه أن يدفع لفصائل متطوعيه وفي مثل تلك الظروف كان من غير الممكن جمع الإتاوة للخزر المنتصرين مما شهد باستئناف الحرب حينما أصبح البوليان عزّ̈لاً ومن دون سيوف في ذلك الوقت فخاطر إيغور ولقي مصرعه[٢].

والآن يبدأ تاريخ العلاقات الروسية - الخزرية المتبادلة بالوضوح قبل خروج الخزر إلى حد الدون وبناء ساركيل في عام ٨٣٤م لم يكن صدام بين الروس والخزر خلافاً لرؤية مسجل الحوادث التاريخية، وفي كييف القرن التاسع ازدهرت الخاقانية الروسية التي تحدرت تقاليدها على ما يبدو من قبائل الروسومون من القرن الرابع وكانت هذه قبيلة اسكندنافية هاجرت سوية مع الغوث في أواسط القرن الثاني. وهذا الحكم هو بحسب المرأة الروسية الأولى المشهورة الناجية سونيلدا التي أمر الملك الغوثي هيرمانريخ بربطها إلى ذيل حصان وحشي «بري» لخيانتها الزوجية، وامتزجت هذه القبيلة فيما بعد مع السلاف وصار أحفاد أولئك وهؤلاء يسمون البوليان «البوليان المدعوون الآن روساً»[٢].

وعاشت الخاقانية الكييفية التي شكلها البوليان في عام ٨٦٠م في وفاق مع الخزريين ويتبين هذا من إرسالية (بعثة) القديس كيريل إلى الخزر التي جاءت في الظروف السلمية. وهذا لا يتحدث عن الحكومة الخزرية المحبة للسلم بل على الأصح عن عزّ كييف التي يبشر العدوان عليها بأي خير. ونوه المسعودي بمملكة «فالينان» (فولينيان) القوية حيث يحكم «ديرْ» السلف على ما يبدو وليس نائب الحاكم أسكولد[٣].

ولكن تغير كل شي بشكل جذري بظهور الفارياغ الذين أشعلوا نيران الحرب مع خازاريا كما تروي «قصة السنين الغابرة». ثم تتبعت (يقول المؤلف

٢- إن عدم أصالة (موثوقية) المصدر لا تشهد على بطلان محتوياته. بل بالعكس أغلب التلفيقات واضحة: وهناك الكثير من البواعث عليها راجع كتابي (أي المؤلف) «التنقيبات عن المملكة الخيالية».

١- جرت محاولات متكررة لمقارنة الروسومون بالشواهد التاريخية مع الروكسلان. وتعتبر إ. تشي. سُكرجينسكايا أن ذلك لا أساس له وتأييداً لرأيها أريد الإشارة إلى:

أ) أن الترجمة اللاتينية لـ (Rox) تتطابق مع (Raws - راوش) الإيرانية وتعني بهاء وليس Ross (زوجة الاسكندر المقدوني روكسانا التي تسمى عندها في باكتيريا - راوشاناك).

ب) بعد «الخاقانات الروس» كان الانجلجيم يعرفون كسويديين مما يشير إلى قرابتهم الإثنية مع الإسكندنافيين وليس مع الفارسيين وفرضية أن خاقان الروس استخدم الفايكنج المتجولين كدبلوماسيين لا أساس لها - باطلة ويجب التفكير أن عناصر التشابه للإسكندنافيين وروس منطقة نيبر في القرن التاسع لم تندثر بعد وهذا أعطى السبب للبارونات الفرنجة لإنساب الروس إلى الإسكندنافيين المعروفين لهم.

٢- مُشار في الحوليات النيفونوفية النيقونية إلى الاصطدامات: مع البلغار في عام ٨٦٤م ومع البولوشان في عام ٨٦٥م ومع البتشينيغ في عام ٨٦٧م وعند تاتيشيف مُشار إلى حملة على الكريفيتشيين في عام ٨٦٩م ولا يوجد اصطدام مع الخزر أثناء السياسة الخارجية النشيطة.

عن نفسه) إعادة بناء الأحداث المعروضة في «تاريخ الاتحاد السوفييتي» لِـ ب. أ. ريباكوف التي تعتبر استنتاجاً عاماً لأحدث منجزات العلم. وكما هو معروف تعرضت أراضي السلاف إلى جانب البلدان الأوروبية الأخرى في القرن التاسع الميلادي لهجمات الفايكنج وفي عام ٨٦٢ أو ٨٧٤م استقر الملك روريك في مدينة نوفغورد وفي عام ٨٨٢م الملك أوليغ في كييف. ويعتبر ب. أ. ريباكوف أن أسكولد «هو الخَيِّر من سلالة كي الملكية» وفي عام ٩١١م أوليغ «الذي ينسب إليه بصورة مطلقة تماماً تأسيس الدولة الروسية اختفى بلا أثر». وعلاقات القرابة بين روريك وإيغور «اختلقت فيما بعد عندما حاول مسجل الحوادث التاريخية أن يوحد نسختي الروايتين الكييفية والنوفغوردية حول نشأة روسيا».

روسيا الكييفية في القرون ١٠- ١٢م

وهكذا في بداية القرن العاشر وقع انقلاب في روسيا ضد النورمانية وتبدلت السلالة الملكية الفارياغية بالسلافية ولم تنشأ أيّ معارضة لهذا المفهوم ولكن ظهرت فيما بعد بعض التعقيدات المرتبطة بموضوعنا.

إن الاسم انغير - هو اسم اسكندنافي وبالطبع يمكن أن يحمله السلافي الذي تصادق والده مع النورمانيين إلا أننا نتذكر أنه في ثلاثينيات القرن العاشر سمي أمير روسيا خ - ل - غو وهذا يعني أوليغ وليس إيغور وهذا الأوليغ لا يمكن أن يكون المدون تاريخياً أوليغ «النبوي» لأن ذاك مات في عام ٩١٢م فهو يمكن أن يكون سميه ولكن ليس أمير روسيا وإما أن يكون هذا المدعو خِلغي هو إنغر - إيغور الأصغر وإما ببساطة لقب - المقدس (خلغي - بالسويدية) ولكن السؤال يعتمد على شيء آخر وهو هل كان هذا الأيغور ابناً لروريك ونصيراً لأوليغ عند الاستيلاء على كييف في عام ٨٨٢م؟

ويشير د. س. ليخاتشيف إلى عبارة غريبة: أوليغ... «قدما إلى جبال كييف» فهي تتضمن صيغة المثنى وليس المفرد أو الجمع ويقدم د. س. ليخاتشيف توضيحاً «إن واضع «قصة السنين الغابرة» أدخل تعديلاً على قصص الأولين: أوليغ ومعه الأمير وليس قائد الجيش.... متأثراً بالنص القديم حيث الحملة قادها اثنان - إيغور وأوليغ مبقياً في الاستعمال هنا على صيغة المثنى».

ولهذا السبب مشار في «كتاب المؤلف المجهول في مكتبة كامبريدج» الذي استشهدنا به سابقاً إلى أعداء الخزر. «الاسبيين (آسي - اوستيين ل. غ) وباب الأبواب «دربنت ل. غ) وزيبوس (زيبوغ - زيخي - الشركس العائشين على سواحل البحر الأسود ل. غ) وأتراك (هنا الهنغار ل. غ) ولوز - نيا» وهذا يعني أعداء متطوعي خلغو وأيغور.

وبما أن زمن الأحداث الموصوفة في الرسالة يؤرخ بدقة في نهاية ثلاثينيات القرن العاشر إذن كما يبدو علينا أن ننسب إيغور المؤرّخ حولياً إلى ملوك الفاريغ لا إلى الأمراء السلاف وأرجاء تاريخ «الانقلاب السلافي» قليلاً[1]. ولكن تتابع الأحداث هو على هذا الشكل بالذات حيث سيبدو واضحاً لو

١- هذا التفسير يرد على الناقدة المتطرفة ب. ك. كوكوفتسوف: لماذا لم ينوه الملك يوسف بانتصاره على أوليغ وإنما اكتفى بالتعليق على أنه يخوض حرباً مع الروس؟ وحوالي عام ٩٦٠م كان في

أننا شرحنا النص لانتقلنا إلى بانوراما (صورة شاملة) للأحداث وهذا التقرب يغطي التصحيحات المطلوبة.

وبما أننا تحققنا من أن مسجل الحوادث التاريخية قد صوَّر تاريخ روسيا القديم على نحو غير كافٍ بالمطلوب وأخذ الحقائق بالحسبان اختيارياً ولكنه قدم تصوراً عرضة للنقد. ففي عام ٨٧٩ جلس إيغور «الجزيل الوقار» على عرش روسيا ولنفرض أنه كان له من العمر سنتان يعني أن سنة ولادته ٨٧٧ أو يمكن أن تكون قبل ذلك ولكن ليس أكثر تأخراً (من بعد) وتزوج في عام ٩٠٣ بـ أولغا وتلك كان عمرهما بحسب الحوليات ١٠ سنوات وفي عام ٩٤٢ رزق إيغور وأولغا بولدهما سفياتوسلاف وكان الحد الأدنى لعمر إيغور ٦٥ سنة وأولغا - ٥٠ سنة ألا يبدو هذا غريباً؟

ومن الواضح أن الأخذ (قبول) بمعلومات وأخبار الحوليات يجب أن لا يكون حرفياً ومن الممكن اعتبار أن الـ ٦٥ عاماً هي «عهد الملك إيغور روريكوفيتش الكبير» وهي المرحلة المعروفة لسيادة ملوك السلالة النورمانية التي تكبدت الهزيمة التامة في الحروب مع خازاريا اليهودية ومع بيزنطة المسيحية ومع دولة المزربان ابن - محمد (المصفري) الإسلامية في أذربيجان وجميع هذه الإخفاقات لم تستطع أن تخيب آمال السلاف في قدرات جيرانهم الغربيين ولذلك بعد عام ٩٤٥م نجد على المائدة الذهبية الأمير الكييفي باسم سلافي - سفياتوسلاف لأن أولغا البسكوفية كانت أمه الحقيقية من دون شك ولكن هل كان هو حقاً «ايغوروفيتش» (إن اللاحقة فيتش تعني ابن باللغة السلافية فيصير السؤال هل كان هو حقاً ابن إيغور - المترجم)- من المشكوك بذلك جداً وفي حال كون كنية والده صحيحة فايغور هذا كان سميّ إيغور روريكوفيتش زميل (أخ) أوليغ أن وجد هذا فعلاً.

ومع تغير السلالة تغيرت أيضاً سياسة كييف الروسية الخارجية فحكومة أوليغ وسفياتوسلاف عقدت أحلافاً حربية مع بيزنطة والبتشينيغ والأتراك[1] وقضت على مقاومة الفياتشيين وفي عام ٩٦٥م أنهت حرباً تحريرية بسحق إيتيل والاستيلاء على سيمندير وأعادت بناء ساركيل الخزرية في فيجا البيضاء الروسية.

روسيا أنظمة مختلفة وقادة مختلفون ونتائج انتصار بيساغ - مضت في سالف النسيان وظهر أنها سريعة الزوال.

١- في ذلك الوقت ظهرت السيوف الضالعة المقتبسة من الحلفاء السهبيين عند الروس.

والآن لنعد إلى النص الحولي عن الإتاوة الخزرية ونرى ما هو صحيح فيه وما هو محرف لأن البوليان بموت كي «كان هناك ضيم على الدريفليان وآخرون ماتوا» هذا اختلاق موجه لكي تنسب عظمة كييف إلى ملوك أعداء.

إن حقيقة تسليم السيوف نفسها إلى الخزريين المنتصرين مشابهة للصدق بغض النظر عن خطأ التاريخ ويمكن أن يظهر الشك نتيجة لطلب بيساخ أن يذهب البوليان أو الروس للحرب ضد اليونانيين من دون سيوف فهذا لا معنى له /غباء/ ولكن بيساخ كان أيضاً غير مهتم بنجاح الحملة لأن الروس ردوا الرماح (المقصود تراجعوا - المترجم) بسبب النار اليونانية التي أعدوها لهم إلا أن الحكمة الختامية «Cu Umytb Umatuganb HaHacb». هي ديماغوجية بحتة (دهماوية بحتة). وفي بداية القرن ١٢م لما ألَّفَ سلفستر رئيس دير فيدوبيتسكي «قصة السنين الغابرة» لم تتجاور الأرض الروسية مع خازاريا بالرغم من أن حرب فلاديمير مونوماخ الناجحة مع البولوفيين أزاحت الحدود الروسية إلى الدون ولكن وراء الدون عاش البولوفيون «المتوحشون» فاصلين الروس عن الخزر وقبيل القرن ١٢م تحولت خازاريا التي حرمت من الجماعة اليهودية إلى إمارة إسلامية صغيرة عاصمتها ساكسين في دلتا الفولغا.

وبقي موضع ساكسين لزمن طويل غير محدد[١] ولكن هذا صار الآن ممكناً بواسطة مقارنة معلومات المصادر حديثاً والأبحاث الأثرية في دلتا الفولغا وفي عام ١١٣٢م زار ساكسين الرحالة العربي أبو حامد الغرناطي وترك عنها وصفاً: تقع ساكسين على نهر عظيم «أكبر من الدجلة» وتعيش فيها «أربعون قبيلة من الغُزّ» (أربعون عدد نسبي - اصطلاحي) عندهم بيوت وخيام كبيرة وفيها مسجدان والبيوت الشتوية مبنية من جذوع الصنوبر تحت سقوف من الألواح، وعند المدينة نهر كبير وعلى مقربة منه «ألف نهر» هذه دلتا الفولغا وفيها فقط مكان واحد يتوافق مع وصف الغرناطي وهو - قرية التلال السبعة عند مجرى نهر التابولا. ومن البديهي أن المساكن الخشبية واللبادية لا تبقى ولكن طابع ووفرة الفخار وكذلك وصف تكوين الأرض يتطابق مع أخبار الجغرافي العربي.

واستولى المغول على ساكسين في عام ١٢٢٩م وهرب بقية سكانها إلى الشمال. ومن ارتفاع مستوى قزوين (بحر قزوين) في القرن ١٣م إلى حين توقف

١- افترض م. إ. ارتامونوف خطأً إن إيتيل التي أعيد بناؤها بعد عام ٩٦٥م صارت تسمى هكذا.

الحياة في دلتا الفولغا حيث تحولت تلال بائيرو إلى أرخبيل وصارت غير مأهولة في القرنين ١٢ و ١٣م لم يصطدم الروس ولو مرة واحدة مع الخزر وبالتالي فإن الحقيقة العامة عند مسجل الحوادث التاريخية لا يمكن القبول بها لا حرفياً ولا مجازياً ولكن لماذا زجت في النص - هذا هو لغز آخر أيضاً!

ولكن يمكن أن تكون هذه أفكار تعود إلى الخزر المسيحيين الذين عَمَّدَهم القديس كيريل في عام ٨٦٠م والمذكورين في «قصة السنين الغابرة» والذين يعيش أحفادهم حتى الآن بالقرب من خرائب سيمندير القديمة ويسمون «قوزاق الأعراف» وانتشر قسم منهم إلى أسافل الدون في القرن ٩م ناقلين إلى هناك زراعة الكروم القفقاسية وفي القرنين الثاني والثالث عشر صاروا يعرفون باسم «البرودنيكيين» فهل دفع أحفاد هؤلاء الخزر في الأعوام ١١١٣-١١١٨م الإتاوة إلى كييف؟ لا، لم يدفعوا لأنه في عام ١١١٧م. «ضُمَّت فيجا البيضاء إلى روسيا وهذا يعني أن الروس طهروا الضفة اليسرى لنهر الدون بما فيه حوضه محتفظين بسيادتهم على السهوب بين الدون والكاربات، وعلاوة على ذلك كانت الوحدة الثقافية الفيجية البيضاء مرتبطة مع تشيرنوغوف الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر وليس مع كييف كما قدَّر م. إ. ارتامونوف أثناء التنقيبات عن ساركيل وهكذا صار كذب مسجل الحوادث التاريخية واضحاً لأي شيء ولماذا؟

لتنتقل من القرن العاشر إلى الثاني عشر - العهد الذي كان قد وُضِعَ فيه النصان اللذان وصلا إلينا ولحسن الحظ يحتوي كتاب د. س. ليخاتشيف «الدراسات التاريخية - الأدبية» جميع المعطيات الضرورية والكافية لتحليلنا، ولأن الحجة للمناقشة في مقالات د. س. ليخاتشيف غير موجودة إذن سنعتمد استنتاجاته ونسجل التي هي مهمة لموضوعاتنا.

إن نصوص الحوليات المطبوعة - هذه الطبعة الثالثة المنقحة لمجموعة الحوليات التي تتضمن «أجزاء من أزمان مختلفة» انعكس فيها الصراع السياسي والإيديولوجي الذي مزق كييف الروسية في القرن الحادي عشر وظهر تعميمه هكذا - بطبيعة الحال - كان في البياني وقت ذاك ثلاثة اتجاهات سياسية واثنان كنسيّان على خلفية اتحادين إقليميين (قبليين) سلافيين واثنان رحليان.

ومع الاتجاه «الغربي» ربط الأمراء الكبار إيزياسلاف ياروسلافيتش وسفياتو بولك الثاني إيزياسلافيتش مصيرهم ومع الاتجاه «البيزنطي» فسيفولود ياروسلافيتش وفلاديمير مونوماخ وابنه مستسلاف الكبير ومع الاتجاه «القومي» سفياتوسلاف ياروسلافيتش وأوليغ سفياتوسلافيتش وأولاده.

وفي السياسة الكنسية: واجه متروبوليت كييف - يوناني رئيس دير بتشيري السابق الذي يراه د. س. ليخاتشيف المتروبوليت المدعو إيلاريون الذي أعلن أن «الروس هم شعب جديد مقبل على تغيير القديم (بما فيه اليونان) ورفض بطريرك القسطنطينية بحسم الموافقة على تعيين إيلاريون مطرانا، وفي صوفيا استقر

المطران اليوناني أما دير كييفوبتشيرسكي - مركز تأليف الحوليات الروسي فشغل موقعاً مستقلاً.

إن العداوة القديمة بين البوليان والسيفيريان أعيد تشكيلها في منافسة كييف وبيريا سلافل وتشيرنوغوف يعني الأرض السيفيرية وأجبرت الحرب القبلية بين البولوفيين (الكومان) والأتراك (الُغُزّ) أولئك وهؤلاء إلى البحث عن الحلفاء فتصادق البولوفيون مع تشيرنوغوف والأتراك مع كييف وبالتالي تشنِّعُ الحوليات الكييفية باستمرار بالبولوفيين وتصمت عن الأتراك.

واتخذ دَير كييفوبتشيرسكي الصفة القانونية في السنوات ١٠٦٠-١٠٦١م ولكن بعد النزاع مع إيزياسلاف هرب نيكون أول مسجل حوادث تاريخية معروف إلى تموتاركان وفي عام ١٠٦٨م دعم رهبان دَيراللافرا (الغار - المترجم) انتفاضة ضد إيزياسلاف وبعد قمعها هرب أنطوني إلى تشيرنوغوف وفي عام ١٠٧٣م انتفضت الأديرة ضد سفياتوسلاف وفسيفولود وهذا يعني لصالح (لجهة) إيزياسلاف المنفي وعلى ما يبدو تبدل ميل الأديرة السياسي ومنذ ذلك الوقت شغلت الأديرة موقعاً مستقلاً: وشكل نيكون «مجموعة مضادة للأمراء» حيث يتهم الأمراء «بالجشع» وقلة الاكتراث بالمتطوعين القدماء مثل يان فيشاتيتش على سبيل المثال إلا أن سفياتوبولك الثاني دعم في عام ١٠٩٨م الأديرة المعارضة لليونان وتصالح معها وفي السنوات العشر التالية كان نسطر قد أبدع «قصة السنين الغابرة» التي انتهت في العام ١١١٣م.

ومن السهل التخمين أن تحالف الأديرة مع الأمراء كان لصالح كليهما (لصالحهما المشترك) وليس من قبيل المصادفة إن كان تحرير نسطر لـ «قصة السنين الغابرة» موجهاً ليس فقط ضد اليونان ومؤيدي اليونان وإنما ضد أوليغ التشيرنوغوفي صديق خانات البولوفيين أيضاً وبالتالي كان على التوجه الإيديولوجي أن يمضي إلى الغرب إلا أن الصراع قام هناك بين البابا غريغوريوس السابع والإمبراطور هنري الرابع المتصادق مع ألكسي كومنين المتزوج بـ أوبراكسيا فسيفولودفنا أخت فلاديمير مونوماخ ولذلك نقل مسجل الحوادث التاريخية المناهض لليونانية تعاطفه في الماضي إلى الشمال حيث كان أصدقاء سفياتوبولك إيزياسلافيتش وقبيل اعتلاء الملك الدانماركي إيريك الثالث السعيد العرش زار سفياتوبولك في كييف. ألم يكن ذلك هو الدافع لخلق «النظرية النورمانية» - الأسطورة التي «تكونت تدريجياً وبصورة مصطنعة» ليس بتلك الدرجة من الوعي العلمي بل بدرجة الاحتقار لليونانيين والكراهية للبولوفيين حلفاء أوليغ التشيرنوغوفي الذي لم يرد نسطر أن ينوه بعدله.

وساعدت الظروف على تطور ونمو الغربيين وهذا يعني الميول الموالية للألمان في كييف. وفي عام ١٠٩٣م هربت أوبراكسيا فيسفولودوفنا أو الإمبراطورة أديلغييدا من زوجها إلى عند الكونتيسة ماتيلدا في كانوس وهنا فضحت زوجها بالحديث عن أنه أجبرها على المشاركة في الحفلات التهتكية

للنيقولاويين عَبَدَة الشيطان، وقدَّم البابا أوربان الحماية للإمبراطورة الهاربة وساعدها على التسلل إلى روسيا حيث ترهبنت وماتت في الدير في ١١٠٩م وأدى التعريض بالإمبراطور إلى الفضيحة إلى حد أن هنريخ حاول التقرب من كييف وأدانت الكنيسة اليونانية المبدئية جداً في مسائل القانون الزواج بالكاثوليك حتى أن المتروبوليت يوحنا هدّدَ حتى فسيفولود الأول بالحرمْ. ولكن مثل هذا العدو السياسي الحازم كان تحت رعايته وسمح بالتسلح ضد النزعة اليونانية وبالتالي الموالاة للرواية الفارياغية من تاريخ روسيا القديم.

وهكذا ظهرت التحالفات الروسية - الهنغارية والروسية - البتشينغية والروسية - التيوركية غامضة أو لُزِمَ الصمت لحولها، بالرغم من أنه بفضلها خرج الروس منتصرين من حرب شديدة مع خازاريا. وتدل إعادة إنشائنا للتاريخ على أن الأمراء الفارياغ بالذات تكبدوا الهزيمة من الخاقانية الخزرية التي كادت أن تودي بروسيا إلى الفناء وسَكَت مسجل الحوادث التاريخية نسطر عن هذه الصفحات من تاريخ روسيا. وعلى ما يبدو أن استحسان التحالفات مع الرحليين في تلك السنوات لما تكبد سفياتوسلاف هزيمة قاسية مع البولوفيين لم يخيل لمؤلف الحوليات أنه غير مطابق للواقع وغير بنَّاء (عملي) في حين أن المسعودي الجغرافي العربي النزيه وغير المعني بالأمر يخبر أن «الروس والسلاف يشكلون قوات الملك الخزري وخدمه» ولكنَّ عزوَ النصر في الحرب التحريرية عام ٩٦٥م إلى تحالف السلاف مع البتشينيغ يرد الاعتبار لدرجة عظيمة لصديق الرُحل أوليغ سفياتوسلاف والتنويه بمساعدة بيزنطة - التي سهلت فوز فلاديمير فسيفولود مونوماخ، وهذه وتلك بالنسبة لسفياتوبولك إيزياسلافيتش كانتا من غير المرغوب فيهما.

إن الدفاع عن ثلاثة أجيال من الفايكنج (غزاة الشمال - المترجم) ومحاولة نسبة النصر الذي تم إحرازه على اليونان إليهم قبل «دعوة» روريك في عام ٨٦٠م كانت السياسة البعيدة المدى التي استطاعت إتيان ثمارها فقط لما الحوليات كانت بالطبع قد أعيدت كتابتها وقرئت واستوعبت. وكانت سفياتوبولك تعوزه الأموال كأي حاكم غير شعبي واتبع للحصول عليها طريقة مقتبسة من ملوك أوروبا الإقطاعيين - فقد سمح للجماعات اليهودية بالإقامة في كييف وبالطبع لقاء أجر كبير. ورأى نسطر هذا واعتبره لصالح القضية الخزرية ولم يشدد عليها في الحوليات.

وبموت سفياتوبولك نهب الكييفيون بيوت المقربين من الأمير المتوفى والمرابين - اليهود واستعدوا للهجوم على البوبار والأديرة ولكن وصول فلاديمير مونوماخ الأمير الشعبي للغاية هَدَّأ الجموع ولكن الفيتشة الذين انتخبوا فلاديمير أميراً أكبر تجمعوا لا في الساحة بل في كنيسة الحكمة - حصن الأرثوذكسية اليونانية، وظهر هذا على الفور في الحوليات ودخل فلاديمير مونوماخ في صراع مع دير كييفوبيتشيرسكي وسحب منه الحوليات التي أودعها في دير فيدوبيتسكي

وعدّل سلفستر رئيس الرهبان نص «قصة السنين الغابرة» ولكن تصحيحه تناول بشكل أساسي الأجزاء الأخيرة وهذا يعني في زمن إمارة سفياتوبلك وبهذا الشكل بقيت الأقاصيص المتحيزة وسلاسل الأنساب المصطنعة التي تعود إلى القرون ٩ و ١٠م التي سيتبناها مؤرخو القرنين ١٨ و ١٩م فيما بعد من دون أدنى نقد وولدوا فكرة متعصبة عن روسيا القديمة زعموا بأنها نشأت بإشارة من السيف الفاريـاغي من وحشية القبائل السلافية - الفنلندية المتخلفة واعتبرت مرحلة الخاقانية الكييفية (الروسية) بكاملها من القرن الرابع إلى التاسع وكأنها لم تكن.

ومن المؤسف أنه لم يحافظ على تقاليد الحوليات التشيرنوغوفية فهيهات لو كان كل شيء فيها صحيحاً ولكن ليس المقصود هكذا وإنما مقارنة الاثنتين (أي الحوليتين - المترجم) وحتى الروايات الناقصة فيهما فإنها تعطي إمكانية تحديد الحقيقة أو على الأقل التشكيك بالكذب.

كان نسطر كاتباً عبقرياً موهوباً للغاية وهذا دل على أنه يستطيع إقناع القارئ بصحة رأيه ولسوء حظنا صار تصوره لتاريخ روسيا الذي دافع عنه غير واقعي بعد وصول فلاديمير مونوماخ وأحفاده إلى السلطة، وفي ذلك الوقت صار المنافسون الرئيسيون للموناماخيين هم أوليغيو تشيرنوغوف، وغضب مسجلي الحوادث التاريخية الكييفيين على المتوحشين التيورك انصَبَّ كله على البولوفيين أصدقاء التشيرنوغوفيين أما عن المان القرن الثاني عشر فتناسوهم ولا سيما أن قوى الأباطرة كانت قد التهمتها الحروب مع الباباوات وصار الغرب غير مفيد لروسيا.

وهذا أنقذ الروايات النسطرية المتعلقة بالماضي من التعديل لأن ذلك أصبح غير واقعي في القرن الثاني عشر ومن ثم لما صار القديم مهماً لروسيا ظهرت من جديد، وهذا يعني في نهاية القرن الرابع عشر وتحولت «قصة السنين الغابرة» التي اجتازت تجارب الزمان إلى كتاب قانوني، وليس من قبيل المصادفة أن يكتب الباحث الدقيق م. إ. ارتامونوف في القرن العشرين العصيب مثل هذا «بالطبع لا يمكن أن يدور الحديث عن أي خضوع روسي للخزريين في القرن العاشر فهنا لدينا تحريف واضح تماماً للحقيقة، ومفهوم تماماً من لسان اليهودي الخزري أنه الساعي إلى تمجيد خازاريا «أما من حيث وجهة النظر هذه فإن حرب سفياتوسلاف التحريرية تتحول إلى إغارة للنهب وتفقد بطوليتها ومعناها... وهذا استثناء لصالح الروايات الحولية. ويعترف ف. ت باشوت الحَذِر «إن المصدر معتم... ولكن ربما هو يعكس بعض الواقع» ولكن لو أننا رفضنا «دعوة الفاريـاغيين» يكون قد حان الوقت لتوضيح صورة العلاقة المتبادلة بين خازاريا وروسيا، والقول بكلمات الشاعر «أكثر من مرة تحت التهديد مال تارة نحونا وطوراً نحوهم» ولكن النصر بقي لروسيا.

وهكذا كشفت شروحات د. س. ليخاتشيف التفصيلية عن الكثير من التحيز والتزوير وبخاصة في الترتيب الزمني للأحداث وهذا بالذات أعطى سبباً للمؤلف لإشراك تاريخ الرحل كمادة مقارنة بغية الفهم الأكثر وعياً لمعنى روايات الحوليات وفي الوقت نفسه ظهرت إمكانية تحديد طبيعة التعاون بين التاريخ والبلاغة ولو في الحوادث غير الكبيرة ولكن المهمة للغاية والمعلومات التاريخية موجودة فيها لأن مسجل الحوادث التاريخية كان بحاجة لكسب ثقة القراء ولكن الهدف التعليمي لقصة إتاوة البوليان للخزر[1] هو: إظهار أن المصائب الواقعة على رأس البوليان قد رفعها عنهم الفارياغ الأبطال الذين من المرغوب فيه الصداقة معهم من الآن فصاعداً. إن موقف مسجل الحوادث التاريخية هذا تطابق لدرجة مع المخطط السياسي لـ إيزياسلاف وسفياتوبولك ودور المصادفة في هذا هو في الحد الأدنى.

ولكن إن كان الأمر هكذا إذن لتفوق الأدب في النصوص المدروسة بشكل حاسم على التاريخ، والتتبع الحرفي للروايات الحولية يؤدي إلى أخطاء التاريخ وضياع المفهوم من وجهة نظر الفيلولوجيا (علم اللغة وآدابها - المترجم).

والنتيجة المماثلة بسبب «قصة السنين الغابرة» كلها استنتجها د. س. ليخاتشيف الذي وصف الحوليات «كفكرة ديناميكية سريعة التطور ووحدتها «يحددها لا شخصية المؤلف وإنما واقع الحياة» وتعكس في ذاتها جميع التناقضات الحيوية. يعني أن الحوليات - هي أدب الفن التاريخي وليس المدونات التاريخية، الحوادث المسجلة بشجاعة وليس التاريخ - «البحث عن الحقيقة» أو بصورة أكثر عصرية «الدراسة».

هذه النتيجة العامة المقنعة كلياً للأبحاث لا تلغي فقط الحاجة إلى متابعة دراسة الأقاصيص المنفردة وإنما تفسح الطريق إلى تفهمها وضبطها للتيقن والأخير ليس من مهمة الفيلولوجي (العالم في اللغة وآدابها - المترجم) بقدر ما هو من مهمة المؤرخ ولكن أليس كاليوبا وكليو أخوين (سَعد أخو سعيد - المترجم) يعني أن عليهما أن يساعدا بعضهما بعضاً.

١- د. س. ليخاتشيف يكتب أن المعلومات عن إخضاع الخزر للبوليان اقتبسها نسطر عن السابقين، يعني أن فيها عناصر حقيقية ولكن إعادة التفهم موجودة (بينة).

المأساة عند القزوين في القرن العاشر و «قصة السنين الغابرة»

في بداية القرن التاسع عشر دخل علم تدوين التاريخ في كل أوروبا في مرحلة النضوج التي غيرت فيها المقاربة النقدية للمعلومات المجمعة في المدرسة الهيرودوتية (نسبة إلى هيرودوتس أبو التاريخ - المترجم) المميزة للقرنين السابع والثامن عشر وهكذا في فرنسا حدد ليس فقط أوغسطين التيري من هو مؤلف تاريخ بيزنطة العديد المجلدات - الاباتي (أي رئيس دير - المترجم) ليبو وإنما آمدي أخوه أيضاً الذي كتب تاريخ الهون المؤلف من سجلات الأحداث المقتطفة من أعمال المؤلفين القدامى ولهذا السبب فقدت أهميتها في الوقت الحاضر.

وفي روسيا كانت معلومات «الحوليات الأولية» في القرن التاسع عشر كله مصدراً رسمياً لا شك فيه لفهم أحداث القرنين التاسع والعاشر، وكان الموقف الإلزامي - اللا نقدي من الحوليات هدفاً حكومياً (على ما يبدو أن المبادر إلى هذا التدبير كان قائد الشرطة أ. خ. بينكندورف) وفقط أ. أ. شاخماتوف ومن بعده د. س. ليخاتشيف أجريا أبحاثاً مثمرة عزلا بها الكثير من الترهات كاشفين سواء التي هي مقارنة أم هي نصوص حولية نقدية داخلية. ويعتبر تاريخ روسيا القديمة في الوقت الحاضر ليس كسلسلة من البحبوحة والرفاهية عبثت بها فقط الحروب الأميرية (بين الأمراء) المتفرقة وإنما كمسيرة شعب بطل اجتاز صعوبات هائلة للغاية بحيث لو كانت لشعب آخر لكان يمكن أن يفنى من مصائب مماثلة لها.

إن مسجل الحوادث التاريخية نسطر كان رجل زمانه، والأسوأ من ذلك أنه كان مؤرخ بلاط الأمير سفياتوبولك إيزياسلافيتش الذي لم يقل فيه أيٌّ من معاصريه كلمة طيبة. وكّلف فلاديمير مونوماخ سلفستر رئيس دير فيدوبنسكي بمراجعة وتنقيح «قصة السنين الغابرة» وهو ما قام به ولكن على ما يبدو ليس على الوجه الأكمل فهو اهتم فقط بالسيرة الذاتية لمكلفه ووالده فيسفولود الأول. وهذا يعني أحداث القرن الحادي عشر ويمكن الافتراض أن تاريخ القرنين التاسع والعاشر قد بدا له غير مطابق للواقع. ولاحظ د. س. ليخاتشيف عدم صحة الأجزاء القديمة من الحوليات وأدخل في شروحاته الكثير من التصحيحات التي لم تؤخذ بالحسبان ولا يجوز أن تقع في مجال الخطأ. ولكنها كانت هي أيضاً إحدى الصعوبات التي يجب التغلب عليها.

ويمكن أن تحدث أخطاء مسجل الحوادث التاريخية بطريقتين.

١- تشويه وصف الأحداث، تحويل التواريخ، تخيّل علمي. تأويل متعصب وكل هذا لوحظ ولذلك صححَ.

٢- السكوت عن حدث أو حتى مرحلة بكاملها وهذا بالذات هو الموجود في «قصة السنين الغابرة» ففيها أغفل وصف الصدام الروسي - الخزري من عام ٨٨٥ - إلى عام ٩٦٥م وهي ثمانون عاماً برمتها. فهل يمكن تعويض هذا الإغفال الذي قام به مسجل الحوادث التاريخية بطريقة مقصودة دون أي شك؟

إن ذلك ممكن إذا بُدّلت زاوية النظر ١٨٠ ْ: يستعمل الاستقراء عادة - للتعليم ولو أحيط بموضع خال من الأخبار والمعطيات الزمكانية (الزمانية - المكانية) المضبوطة ولا تثير الشك إذن لو وقعت في يدي الباحث مواد إضافية، يعني مصادر لم تكن موجودة عند نسطر، وثانياً أصبحت العلاقات السببية - التحقيقية بين الأحداث واضحة للغاية وبالطبع يلزم لمثل هذه الإحاطة الواسعة المعطيات التي وفرها العلم خلال مئة عام. لكن المؤلفين الذين يستخدمون المؤلفات الأخرى يجب أن يكونوا محظوظين من كل بُد لأن مقالاتهم وكتبهم تستخدم بحواشٍ مُرجِعَة (شواهد إثبات - المترجم) حتى ولو أنهم أنفسهم لم يتوقعوا نتائج أبحاثهم الشخصية وهكذا لا توضع الحواشي على أعمال الأسلاف - إن ذلك لا يليق[١].

وفي الواقع حالما أشرك أسلافنا المصادر العربية اتضح أن الفولغا والقزوين كانا حلبة أحداث عظيمة للغاية على غرار الدنيبر والبحر الأسود، ولكن مغزى تلك الأحداث غير واضح وكان موضوع مناقشات علمية، ومهمتنا - هي إيجاد صيغة لا تناقضية فهل ننجح بذلك: ندع القارئ يحكم على ذلك.

وضع القوات في نهاية القرن التاسع:

عاشت أغلبية القبائل التي استوطنت في أوروبا الشرقية الاقتصاد العيني ولذلك لم تمتلك الدوافع للسياسة الفعالة والحروب العدوانية ولكن لسوء حظها يتقاطع المنطقة طريقان مائيان وواحد بري - الطرق التجارية: الطريق المشهور «من الفارياغ إلى اليونان» وطريق الفولغا «من الفارياغ إلى خازاريا» و «طريق

١- قام م. إ. ارتامونوف بإعطاء المجموعة الأكثر كمالاً بالمعلومات التي تمس الموضوع، ولكن خلال ثلث القرن المنصرم ظهر الكثير من الأبحاث الفيلولوجية (اللغوية الأدبية العلمية - المترجم) والأثرية والجغرافية التي حملت على الرجوع إلى الموضوع الخزري وننوه بالأبحاث الخاصة لكل من أ. ب. نوفوسيلتسييف وإ. يا. فوريانوف و أ. ن. ساخاروف.

الحرير»- ممر القوافل من الصين إلى أسبانيا وكان طريق الدنيبر من عام ٩٨٢ في قبضة الملك الفارياغي أوليغ أما طريق الفولغا الذي يربط بغداد وبيارما (بيرم العظمى) فقد وضع الفرو بالمقايضة مع المصنوعات الفضية وطريق القوافل الذي يقطع الفولغا عند إيتيل بالقرب من قرية سِليترِنويي تحكمت به الشركة التجارية العالمية للراهدونيت - اليهود الذين قبضوا على السلطة الفعلية في الخاقانية الخزرية ووضعوا تحت تصرفهم كل الضفة اليسرى لنهر الدنيبر والفولغا الأعلى. والسلم بين هذين الاثنين المتوحشين لا يمكن أن يكون.

إن أوليغ الذي استولى على كييف باغتيال الأمراء الروس السلافيين أسكولد ودير غدراً أخضع لسلطته الدريفليان في منطقة بريبيات والراديمتشيين في سوج والسيفيريان في الديسنا في الأعوام ٨٨٣-٨٨٥م زد على ذلك أن القبيلتين الأخيرتين كانتا قد سلختا عن خازاريا فهل لمثل هذا الاعتداء ألا يسبب حرباً جوابية؟ إلا أن الحوليات تصمت حتى عام ٩٠٧م عندما سار أوليغ بحملة على بيزنطة المعادية لخازاريا وزعموا بأنه أحرز نصراً باهراً. ولكن أليس غريباً أن اليونانيين لم ينوهوا به وفي مدوناتهم التاريخية لم يضحدوه.

وكما أظهرت أبحاث المختصين بالدراسات البيزنطية أن القسطنطينية لم تَغُر عليها عساكر الأمير الكييفي وإنما السلاف - الفارياغ الساكنون عند مصب الدنيبر تحت قيادة «القائد الفذ» الذي نسّقَ إغارته مع هجوم قائد الأسطول العربي أسد البحر (التربوليتاني) وحدث ذلك في عام ٩٠٤م وانتهت بسحق الروس ولكن القائد الساحر نجح بالهرب تاركاً رفاقه المقاتلين الذين هلكوا من النار اليونانية عند رأس ترليفال وهذه الرواية لا تقبل النقض.

و «خطأ» نسطر ليس مصادفة فهو كتب في زمن إمارة سفياتوبولك إيزياسلافيتش الموالي للغرب وعدو اليونان، ووصف الحصار المزعوم لمدينة القيصر يشابه عملية عام ٨٦٠م المنسوبة إلى أسكولد المؤكدة من قبل المؤلفين اليونانيين، وعلى ما يبدو كانت قد وضعت في الوقت نفسه المعاهدة التجارية المشهورة التي نقلها نسطر إلى عام ٩٠٧م سوية مع الحملة، ومن المميز أن حملة عام ٩٧٠م غير مذكورة في «تاريخ الاتحاد السوفييتي» الطبعة الأخيرة عام ١٩٦٦م. وبدلاً من ذلك قيل أن «حملة ٩١١م هي الحقيقة الوحيدة في فترة إمارة (أوليغ)» ولكن بما أن علاقة الأمراء الفارياغ أوليغ وإيغور مع الملوك الخزريين تستحق إعادة النظر بها سنسعى للبرهان على أنهم لم يكونوا أعداء وإنما حلفاء وإنهم اختصموا فيما بعد. وبخاصة لما على عرش كييف جلس السلافيان أولغا وسفياتوسلاف وللبرهان على هذه القضية ننقل الانتباه إلى بحر قزوين.

إن الخاقانية الخزرية - بل الأصح - المستعمرة الراهدونية تمتعت في القرن التاسع بثروات هائلة حَصَّلتها من التجارة بالحرير الصيني وفراء ما وراء الكامسك والعبيد السلاف، ودعم التجار كل الأنظمة الاستبدادية: أباطرة تان (في الصين) والكارولنجيين (في فرنسا) والعباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة، وحمل رئيس جماعات تجار إيتيل اللقب التركي - بكْ - وحَكَمَ البلاد حكماً استبدادياً جاعلاً من خان سلالة آشين الملكية التيوركية دمية.

واستندت سلطة الـ بِكْ على القوات المرتزقة من الجرجان (إقليم في جنوب شرق بحر قزوين) وتراوح عدد القوات من ٧٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ رجل مدربين خصيصاً ومسلحين بصورة رائعة. والوحدات شبه العسكرية من البورتاس والبتشينيغ وحتى السلاف لم تستطع التصارع مع هؤلاء المحترفين إلا أنهم قبلوا باستخدامهم ضد أصحاب الثقافات الأخرى ولكنهم رفضوا القيام ضد من هم من ثقافتهم، وطالما إيتيل كانت تربطها صداقة مع بغداد لم تحدث المشكلات ولكن في عام ٨٤٢م اعتنق الديالمة الذين عاشوا على الشاطئ الجنوبي - الغربي لقزوين الإسلام وبلغوا شأواً من القوة لأن المسلمين الشيعة دعموهم عن طيب خاطر.

وفي عام ٨٧٢م استولى الديالمة على جرجان وقزوين والرِّيْ وحُرِمَ التجار الخزريون والمرتزقة من طريق القوافل الملائم عبر دربنت (دربند) إلى بغداد، وكان ضرورياً جداً لأنه في عام ٨٧٤م اندلعت انتفاضة هوان تشاوْ الفلاحية في الصين الموجهة ضد الأجانب وإمبراطورية تان التي اعتصرتهم بالمسايرة (التي تغاضت عنهم - المترجم) وتوقف الحرير عن الوصول من الصين، والتجار الأجانب المتورطون هناك قتلوا بلا شفقة وقمعتْ الانتفاضة في عام ٩٠١م ولكن اقتصاد البلاد كان قد تقوض وفقد طريق الحرير العظيم أهميته ولا سيما أن الطريق إلى بغداد كان ضرورياً لذلك كان من الضروري إزالة الحاجز الديلمي.

ترابط وتتابع الأحداث:

ظهرت في عام ٩٠٩م سفن الروس في بحر قزوين، وقام القراصنة النورمان المستكملون (المستعدون - المترجم) في أراضي السلاف الخاضعة لهم بالدفاع عن تجار إيتيل وحققوا النجاح في البداية: نهبوا جزيرة أباسكون وحرقوا مدينة ساري في مازندران ولكن الديالمة لم يتنازلوا للروس عن الشجاعة (المقصود لم يقلوا عن الروس شجاعة) وفي عام ٩١٣م قذفوا بالإنزال الروسي إلى البحر ولكي يعوضوا عن فشلهم شيئاً فشيئاً نهب الروس شيروان وباكو حيث

تربع الساجيد السنّة وبالتالي أصدقاء التجار الخزر وبعد هذه «الحملات» عاد الروس إلى إيتيل وأرسلوا للملك الخزري الحصة من الغنائم وتوقفوا للراحة.

كان عند التجار الخزريين قاعدة وهي - إعدام المقاتلين الذين يتكبدون الهزيمة فمن وجهة نظرهم كان ذلك منطقياً: دفعوا لهم مقابل أن ينتصروا لا لكي ينهزموا ولذلك سمح الملك لمرتزقته الذين أسلموا حديثاً بالتنكيل بالروس المنهكين واستمرت المعركة ثلاثة أيام ولم يأخذوا بالأسر وقتل ٣٠٠٠٠ روسي وهربت بقاياهم إلى أعالي الفولغا ولكنهم قتلوا من قبل البلغاريين والبورتاسيين ولم يرجع أي منهم إلى البيت. وعلى ما يبدو لهذا السبب لم تصادف القصة عن هذه الحملة في الحوليات. ولكن من المستحيل التصور أن أقرباء الهالكين لم يهتموا على الإطلاق بمصيرهم، ومهما كان الأمر فاعتباراً من سنة ٩١٣ إلى ٩٣٩م لا توجد أيّ معلومات عن العلاقات بين خازاريا وروسيا، ويمكن أن يكون ذلك لأن لا لشيء يستحق الذكر قد حدث فعلاً؟.

والاصطدام الثاني للروس مع الخزر وصفه مؤلف يهودي مجهول في القرن الثاني عشر. في عام ٩٣٩م في زمن توتر العلاقات اليونانية - اليهودية استولى الأمير الروسي خ - ل - غو (أوليغ - المترجم) بهجوم غير متوقع على قلعة سامكراي (تامان - آلان) ولكن الذي انهزم فيها هو القائد «بيساخ المحترم» الذي أجبر الأمير الروسي بالهجوم على «مقدونيا» يعني بيزنطة، وفي تلك الحرب احترق الأسطول الروسي بالنار اليونانية في عام ٩٤١-٩٤٢م أما بقايا الروس فقد انطلقوا في قزوين حيث استولوا في عام ٩٤٣-٩٤٤م على مدينة بارتاف (بيردا) والنصر الذي حققه الروس لم يكن ناجزاً لأن الوباء انتشر في قواتهم واضطروا للعودة في الفولغا إلى إيتيل ومصيرهم التالي غير معروف وعلى ما يبدو لاقوا المصير نفسه الذي لاقوه (أصابهم) في الحملة الأولى وفي الحقيقة كان ذلك إتاوة الدم التي دفعها الملوك النورمان المتحصنون في كييف إلى ملوك خازاريا.

ولكن علاوة على ذلك اضطروا إلى دفع الإتاوة بالفرو أيضاً وبهذا فقط يمكن إيضاح أن أيغور الكبير أثناء وجوده عند الدريفليان سَّرح قسماً من المتطوعة وبقي مع مفرزة صغيرة واستمر بسلب أتباعه السلاف وهذا ما كلفه حياته. ولكن على ما يبدو لم يستطع أن يتصرف بخلاف ذلك لأن قوات بيساخ المحترم وصلت إلى أسوار كييف في عام ٩٤٠م وفي عام ٩٤٤م استطاعت أن تعيد الحملة على الأراضي الروسية بسبب عدم دفع الإتاوة، وإيغور مع متطوعة كبيرة ليس بإمكانه أن يحصل من أي مكان على الفرو الكافي لأن ما كان سيحصله سيذهب أجوراً للمقاتلين والجميع معاً يتحدثون أن الجماعة التجارية في خازاريا في النصف الأول من القرن العاشر كانت زعيمة أوروبا الشرقية.

وقاسى سكان مناطق الدنيبر والفولغا من الموقف المتشكل أكثر من الجميع ففضلاً عن أنهم أخذوا منهم الفرو والعسل والشمع تخاطفوا الشباب والشابات للبيع في الخلافة الأموية لأن الأباطرة الكارولنجيين سمحوا بمرور القوافل من خازاريا لأنهم احتاجوا إلى الواردات من رسوم الجمارك، وطالما حاز الملك الخزري على الحرس من الجرجانيين والمساعدة السلافية والبتشينيغية الآلانية من ملوك كييف أصبح السكان في أذرع هذا الإخطبوط التجاري.

والتنكيل القاسي بالدريفليان كان درساً للسلاف الآخرين.

ولكن الأميرة أولغا بسكوفية وهذا يعني سلافية[1] وتنتمي لشعبها خلافاً لزوجها وكان لها أنصار من - السلاف - الروس وهذا يعني أيضاً ذلك القسم من أحفاد الروسومون القدماء الذين تصاهروا مع أحفاد البوليان وشكلوا إثنوساً واحداً «البوليان - يسمون الآن روساً» وبعد موت إيغور استولى السلاف - الروس على السلطة في كييف وسارت سياسة الخاقانية الكييفية في مجرى جديد.

وباستلام أولغا السلطة في عام ٩٤٥م عَقَدَت على الفور معاهدة تجارية مع بيزنطة مما عنى الانقطاع عن خازاريا وفي عام ٩٤٦م أرسلت المحاربين الروس إلى القسطنطينية لاسترجاع كريت وفي عام ٩٥٧م تعمدت وبدأت الحرب ضد خازاريا وفي عام ٩٦٥م استولى الأمير الفتي سفياتوسلاف بالاتحاد مع البتشينغيين والأتراك على إيتيل والقلاع الخزرية الأخرى: سيمندير (على التيريك) وساركيل (على الدون)، وساعدت الطبيعة نجاحات السلاح الروسي: بارتفاع مستوى قزوين خمسة أمتار وانغمار الشاطئ المستوي (المسطح) بالبحر وهذه هي المأساة الأخيرة التي حدثت عند شاطئ بحر قزوين.

ولكن ختامها حدث بعيداً في الغرب فالروس المرتبطون بخازاريا (مضوا إلى روما والأندلس» وهذا يعني بيزنطة وأسبانيا وفي بيزنطة ذابوا في سكان الإمبراطورية المتعددة الإثنوسات أما في أسبانيا فنزلوا في غاليسيا في عام ٩٦٨م ونهبوا سانتياغو وقتلوا الأسقف ولكن في عام ٩٧١م طردهم الكونت غونزالو سانشيز وعلى ما يبدو ابتلعت الأمواج بقيتهم إما في خليج بسكاي العاصف وإما في المحيط الأطلسي.

وبالتخلص من وصاية الراهدونيت وأعوانهم وجدت روسيا القديمة التلاحم الذي مكّنها من تكوين ثقافة ساطعة لا مثيل لها والتي تعتبر «قصة السنين الغابرة» واحدة من شواهدها.

١- اسمها السلافي غير معروف، اولغا - وهو لقب اسكندنافي خ - ل - غو ويلفظ بالسلافية كما في حالة المذكر - أوليغ وتسميها المدونات التاريخية الألمانية باسم العماد «هيلينا ملكة الروغ».

وهكذا بتتبع رواية «قصة السنين الغابرة» نعثر دوماً على تناقضات لا حل لها بدءاً من «دعوة الفارياغ» إلى القصة عن تنكيل أولغا بالدريفليان.

ويبدو أن مسجل الحوادث التاريخية يقدم عمداً مخططاً كاذباً للأحداث، وحسب تلميحاته كان الفارياغ والخزر أعداء ألداء وما كانوا حلفاء بحال من الأحوال، والحقائق التي جمعناها تتحدث عن العكس، وأنا (المؤلف) أفضل أن لا أصدق مسجل الحوادث التاريخية، فنسطر الذي كتب مؤلفَّه في الفترة ١١٠٠-١١١٣م هو نصير المستقبل لسفياتوبولك الثاني صديق الإقطاعيين الألمان والدانمركيين وعدو المتروبوليت اليوناني وحاميه (المدافع عنه) فلاديمير مونوماخ العدو الساحق لآخر اليهود الخزر - الأمير التشيرنوغوفي أوليغ سفياتوسلافيتش وعلاوة على ذلك تبعد الأحداث التي وصفها عنه أكثر من ٢٠٠ عام فهل يمكن لمؤرخ معاصر لنا أن يشرح من دون تحضير شخصي خاص تاريخ عهد الإمبراطورة كاترين الثانية مع الأخذ بالحسبان الأخلاق والعادات والأزياء والعلاقات الشخصية المتبادلة؟ وهذا صعب حتى في حال توفر المصادر وإلى جانب هذا فهم نسطر مثل م. ن. بوكروفسكي التاريخ كـ «سياسة متداولة في الماضي» ودافع عن مصالح دَيْرِه وأميره وفي ذلك أخطأ بحق الحقيقة.

ووصف د. س. ليخاتشيف «قصة السنين الغابرة» كمؤلف أدبي رائع فيه الأخبار التاريخية إما محوّلة بمخيلة خلاّقة مثل الأسطورة عن دعوة الفارياغ وإما أقاصيص مستبدلة مدخَلة يرجع بعضها إلى روايات الشعراء الجوالين فهو يحلل بصورة انتقاديه للغاية آراء أ. أ. شاخماتوف وهذا يعطي الإمكانية لتأسيس كلا العملين وتحديد تسلسل وترابط أحداث تاريخ روسيا القديمة ولو ليس بالتفصيل ولكن بالتقريب الضروري والكافي لموضوعنا ولذلك من الملائم اعتبار «قصة السنين الغابرة» كمؤلف أدبي رائع يصف أخلاق السنوات العشر التي كتبت فيها. وليس كمرجع دراسي كما كان مفروضاً اعتباره في المدارس الثانوية (جمنازيومات) في القرن الماضي (القرن التاسع عشر - المترجم)، ولاستعادة الصورة الأصلية للماضي يجب مقارنة معطيات الروايات الحولية مع التاريخ العالمي للقرن العاشر والإحاطة الواسعة - أي الاستنتاج ضروري جداً للتاريخ مثل الاستقراء - والدراسة المعمقة للأخبار والمعلومات المتفرقة وكلتا المقاربتين شرعية على السواء لأنهما تكملان بعضهما بعضاً.

منعرج التاريخ

بين محيطين

إن القارة الأوراسية (الأوروبية - الآسيوية) ليست كتلة واحدة متراصة بل تقسمها بدقة الموانع الطبيعية إلى أقسام، فشبه الجزيرة الغربي من القارة الأوراسية يحدها البحر الأبيض المتوسط وبحر الشمال وهي مفصولة عن أوروبا الشرقية الباردة بشكل غير منظور ولكن بحد منيع وهو خط التساوي الموجب لدرجة الحرارة في شهر كانون الثاني.

وإن مناطق الشرق الأدنى الجافة الحارة وشمال أفريقيا يعتبران أيضاً وحدة أديمية تامة محدودة من الجنوب بالصحراء ومن الشرق بصحارى آسيا الوسطى، وتحتل المنطقة الجبلية الممتدة من البحر الأدرياتيكي عبر آسيا الصغرى إلى ما وراء القفقاس موقعاً خاصاً ولكن مستقل كلياً، وعند ملتقيات هذه المناطق الثلاث الكبيرة نشأت بصورة دائمة ارتباطات إثنوسية وعلى هذا الشكل كانت أسبانيا وإيلليريا وأرمينيا الكبرى التي امتدت إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث وقعت أرمينيا الصغرى وكيليكيا في القرن الثاني عشر الميلادي.

والهند المحدودة بالجبال العالية والصحارى الحارة تعتبر بحق كقارة إلا أن أقاليم البنجاب والسند صارت في القرن الثاني عشر مناطق تماس بين الهندوس والعرب والأفغان والأتراك ولم تنقذ الموانع الطبيعية الهند من اعتداء الأجانب.

والصين شبه الاستوائية الغزيرة الترطيب عزلت نفسها عن السهب العظيم الجاف البارد بالسور الذي وقع أنقاضاً في القرن الثاني عشر ولكنه مع ذلك اعتبر حّداً طبيعياً بين الصين والسهب العظيم.

وأخيراً إن القسم الداخلي من قارة أوراسية بالمعنى الضيق للكلمة امتد من سور الصين إلى الكاربات (جبال الكاربات - المترجم) بما فيه المناطق السهبية والسهبية المتخللة بالحراج والغابية ومناطق الاتصال هنا كانت: السهب الهنغاري في الغرب ومنشوريا الغربية في الشرق وإلى الجنوب من هذا الإقليم يمكن إلحاق هضبة

التيبت ومنطقة الأنهار السبعة أما ما بين النهرين الآسيوسطية فقد اعتبرت منطقة اتصالات.

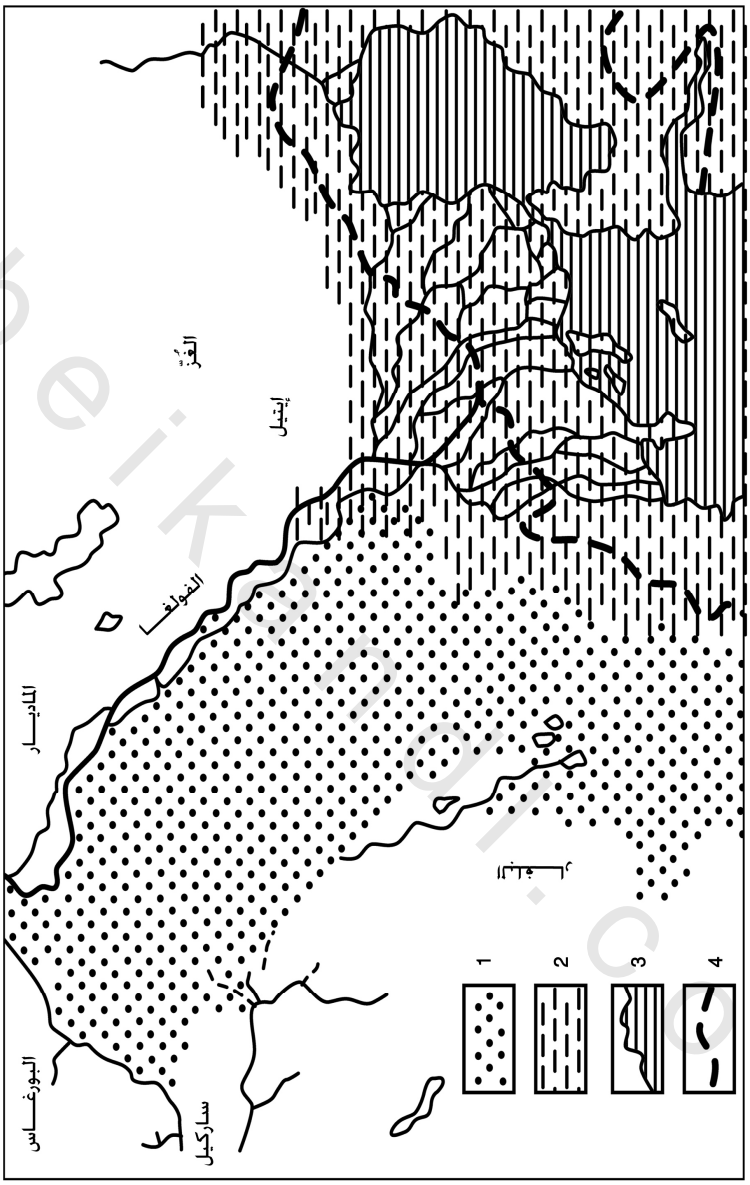

خازاريا الفولغا في القرون ٦-٩م
١- السهوب الخزرية، ٢- أراضي غمرها البحر في القرن ١٣م، ٣- شاطئ البحر في القرن ٦م، ٤- الشاطئ الحالي للبحر

ويبدو القسم المركزي من القارة الأوراسية العظيمة فقط للوهلة الأولى بلاداً قاحلة مقفرة غير قابلة للتكيف لتطوير حضارة مستقلة تتجاور من الشرق مع حضارة الصين القديمة ومن الغرب مع حضارة شبه القارة الأوروبية الغربية التي لا تقل عنها قدماً والسهب العظيم محدود من الشمال بالتايغا الكثيفة ومن الجنوب بالسلاسل الجبلية. وهذه الوحدة الجغرافية مأهولة بشعوب متعددة ذات خبرات

اقتصادية وأديان ومؤسسات اجتماعية وأخلاق وعادات متنوعة ومع ذلك شعر جميع الجيران وكأنهم كتلة واحدة مع أن جوهر المنشأ السائد لم يستطع أن يحدده الاختصاصيون في علم الأنثروبولوجيا ولا المؤرخون ولا علماء الاجتماع.

وهذا ليس من قبيل المصادفة فمنذ النصف الأول من القرن العشرين تعرض وجود الوحدات التمامية الأنثربولوجية للشك وذلك لأن العلم لم يجد بعد وجهة النظر التي تسمح بقبولها كحقائق ملموسة. ولكن كان من المستحيل التغاضي عنها فتكون وقتئذٍ مثل هذه الأفكار التجريدية كالشرق والغرب التي أشار إلى بطلانها الأكاديمي ن. إي. كونراد أو «الغابة» و «السهب» أو الإثنوس «الأصفر» والإثنوس «الأبيض».

وفي الحقيقة إن تقسيم المادة أو المعلومات إلى قسمين يسهل دوما المسألة ولكن على الأغلب يؤدي إلى حل صحيح. وفي حقيقة الأمر يستخدم المصنف عفوياً المبدأ الإثنوسي (الاثني) البدائي «نحن» و «غيرنا» فقط مجرداً إياه وفقاً لمتطلبات البحث النظري الأكاديمي ولكننا ملزمون باعتزال وجهة النظر البدائية هذه والانطلاق ليس من نظام النقد المزدوج ولكن من الوجود الفعلي للمناطق الإثنوسية الجغرافية التي كما ظهر أنها ست في الحيز الأوراسي. ومن تبدلات العروق الكبرى التي هي أكثر من ذلك ولذلك عدَّلنا زاوية النظر معتبرين أن القارة الأوراسية ليست من هذه الزاوية أو تلك وإنما من الأعلى وهذا يسمح بتحديد مقايسة حجم المناطق الاثنية الجغرافية.

والناس الذين عاشوا في تلك الأقاليم لم يختلفوا فقط باللغات والعادات والمؤسسات وإنما بالموقف من الطبيعة والتاريخ والحياة والموت ومن الخير والشر. ولنرَ بأيّ طريقة: في المصادر الأولية الكثيرة لا نجد الإجابة على ما يهمنا لأن مؤلفيها كتبوا لِقرّاء آخرين ولكن إلى جانب التقاليد المتضاربة المشبعة بصورة عاطفية عندنا في مجال النظر إلى عدد كبير من الحقائق الصامتة وواجبنا إيضاحها، وهذا يعيق إلى حد ما الباحث الذي يرفض تقييم ما يمليه عليه الأسلاف ولكن أليس العلم - هو إعادة سرد معارف الآخرين؟ وهل في العلوم الطبيعية حيث لا توجد أخبار كلامية وإنما فقط حقائق صامته لا يمكن تعميمها؟ أليس التعمق فحسب في المادة يعطي المعرفة؟ والتوسع في المدى يعطي السطحية؟

إن التقرب النمطي بإعطائه إمكانية التعميمات الواسعة لا يعيق قطعاً دقة دراسة التفاصيل، وهكذا في المناظر الطبيعية لأساتذة الرسم القدماء ظهرت الشخصيات الثانوية فقط كبقع ملونة وعندما كُبّرت فيما بعد بواسطة التصوير ظهرت أمام الناظر كاملة مرسومة رسماً دقيقاً حتى ما لا أهمية له، فكل ما فيها هو على وجه الدقة ولكنها تدخل في تأليف اللوحة بقدر ما هي ضرورية، وكذلك ننوي أن نستفيد من هذه المقاربة.

وصف البلاد الخزرية

إن الأديمات (صفحات الأرض) كالإثنوسات لها تاريخها فدلتا الفولغا قبل القرن الثالث الميلادي لم تكن مشابهة للتي هي موجودة في هذه الأيام. في ذلك الوقت تدفقت في السهب الجاف وسط تلال بائيرو مياه الفولغا النقية منصبة في بحر قزوين إلى الجنوب بكثير مما فيما بعد.

وفي ذلك الوقت كان الفولغا ضحلاً قليل العمق ولم يجرِ في المجرى الراهن بل إلى الشرق منه من خلال نهري الآختوب وبوزان ويحتمل إنه صب في الأورال الغربي المتصل ببحر قزوين بمجرى ضيق.

ومن تلك الفترة بقيت آثار الحضارة السرماثية - الآلانية وهذا يعني الطورانيين. وفي ذلك الوقت كان الخزر ما زالوا يزدحمون في أسافل مجرى نهر التيريك.

وفي القرنين الثاني والثالث الميلاديين حولت المنخفضات الجوية الأطلسية ممرها إلى الشمال وتوقفت الأمطار عن أرواء المنطقة السهبية حيث سادت الصحراء إلى حين، وصارت تسقط في ما بين نهري الفولغا وإكسكوم وفي حوض مياه كامي الفسيح وبالأخص كان الترطب الشتوي شديداً لدرجة كبيرة: كثبان الثلج المبلول ونتيجة لذلك الفيضانات الربيعية الهائلة.

وحمل الفولغا كل هذه المياه العكرة ولكن ظهر أن مجراه الأسفل كان ضيقاً على تلك السيول، وفي ذلك الوقت تشكلت دلتا النموذج الراهن التي امتدت إلى الجنوب تقريباً إلى شبه جزيرة بوزاتش (مانغشلاك الشمالية) وصارت أماكن المياه الحلوة الضحلة تغذي الأسراب الهائلة من الأسماك كما نبتت الغابة الكثيفة على ضفاف المجاري وتحولت الوديان بين التلال إلى مروج خضراء وبقيت الأعشاب السهبية فقط على قمم التلال (التوضع العمودي للمناطق) متراجعة إلى الغرب والشرق (حيث الآن مجريا باختيمير وكيغاتش). وفي مركز الأديم اللا نطاقي (أي غير الموزع إلى مناطق متمايزة محلياً - المترجم) بدأ اللوتس يزهر والضفادع تنق والبلشون (مالك الحزين - المترجم) والنورس يعشش والبلاد غيرت وجهها.

وفي ذلك الوقت تغير أيضاً الإثنوس الذي استوطنها فالسرماثيون السهبيون هجروا ضفاف المجاري حيث حرم البعوض القطعان من الراحة، والأعشاب الرطبة كانت غير مألوفة وحتى مؤذية لها. ومقابل ذلك انتشر الخزر على خط

الساحل الذي كان موجوداً في ذلك الوقت والموجود الآن على عمق ٦ أمتار أخفض من مستوى القزوين، ووجدوا أغنى أراض بالأسماك ومكان لصيد الطيور المائية ومراعٍ للخيل عند سفوح تلال بائيرو، وجلب الخزر معهم غراس العنب وزرعوها في الوطن الجديد، وقد جلبوها دون إراقة دماء وإنما مِنَّةً من الطبيعة بالمصادفة. وفي الشتاءات القاسية جداً يموت العنب ولكنه يستكمل من جديد ومن جديد بالأنواع الداغستانية لأن الاتصال بين خازاريا التيريك وخازاريا الفولغا لم ينقطع.

وكان المحاربون الآلانيون والهونيون الذين ساروا في سهوب القزوين لا يشكلون خطراً على الخزريين فالحياة في الدلتا مركزة بالقرب من المجاري، وهي عبارة عن متاهة يضيع فيها أي غريب والتيار في المجاري سريع وعلى الضفاف تقوم أجمات كثيفة من القصب والانتقال إلى اليابسة ممكن ولكن ليس من كل مكان، وأي فارس يحاول التغلغل في خازاريا لا يمكنه عبور المجاري المطوقة بالأدغال بسرعة لا سيما أن الفارس ذاته يفقد مزيته الأساسية وهي المناورة بينما السكان المحليون الذين يعرفون حَل المتاهة يستطيعون بسهولة الإمساك بالمبادرة وإنزال الضربات المفاجئة بالأعداء كونهم يستطيعون التملص ولا يمكن القبض عليهم.

والصعوبة الأكثر كانت شتاء فالجليد في النهيرات السريعة يكون رقيقاً ونادراً وفي الشتاءات الباردة جداً يمكن أن يصمد للحصان الفارس المرتدي لأمة الحرب درعاً وسلاحاً والسقوط شتاء تحت الجليد حتى في مكان ضحل معناه التجمد في الريح، ولو أن مفرزة توقفت وأشعلت ناراً لكي تتجفف فخلال هذا الوقت ينجح العدو المطارد بالاختفاء وضرب المطارد ثانية.

كانت خازاريا قلعة طبيعية ولكن وا أسفاه محاطة بالأعداء، والخزريون فيما بينهم لم يخاطروا بالخروج إلى السهب الذي كان ملائماً جداً لهم أكثر من المنطقة المتعددة الأديمات التي ينشأ عليها نظام اقتصادي بآفاق أكبر لتطوير الاقتصاد، ودلتا الفولغا قطعاً لم تكن رتيبة ولكنها غير ملائمة لتربية الماشية بالأسلوب الرحلي مع أن هذا الشكل من تربية المواشي كنظام اقتصادي توسعي ملائم للغاية للناس لأنه لا يتطلب الكثير من العمل والطبيعة لأن كمية القطعان تحددها كمية الأعشاب والحياة الرحلية غير ضارة للطبيعة.

والخزريون ما عاشوا في السهوب وبالتالي ما كانوا رحلاً ولكنهم نالوا من الطبيعة فقط الفائض عنها الذي استطاعت أن تتقاسمه معهم بلا تردد: السمك والعنب والثمار من البساتين. وقصارى القول إن إثنوسات أسافل الفولغا في ذلك الوقت كانوا في طور الاتزان (Homeostasis) - توازن مع الطبيعة ومع بعضهم بعضاً وبالنسبة لهذا النظام من الحياة كان اختلاط الإثنوسات بنشاط نادراً فيما بينها لأنه ما من سبب ليتحاربوا من أجله والزواج من البنات الأجنبيات بلا فائدة: لأنهن معتادات على حياة أخرى وسَيَكنَّ ربات منزل سيئات في بيت الزوج.

كلما كان الهدف كبيراً كانت إصابته أسهل ولذلك نختم موضوعنا - مأساة الإثنوس الخزري - في إطار تاريخ البلدان المتاخمة.

بالطبع هذا التاريخ سيكون مشروحاً «بشكل مجمل» لأن له فقط أهمية مساعدة لموضوعنا ومقابل ذلك سيكون ممكناً تتبع العلاقات الدولية الشاملة التي تغلغلت كلياً في خازاريا الصغيرة ونحس إيقاع الظواهر الطبيعية للمحيط الحيوي والمعالم المتغيرة دائماً لكل ما هو حي عندئذٍ يتألق تاريخ الحضارة بجميع الألوان.

obeikandl.com

إثنوس «الضوء المعكوس»

قد يبدو أننا بإثبات استحالة وجود إثنوس نشيط من دون هزة باسيوناريّة نكون قد أخطأنا بحق المسألة الخاصة مثلاً: أصبح الخزر معروفين عند المؤلفين البيزنطيين والفرس في القرن الرابع الميلادي والأرمن في القرن الثالث[1] ولكن ربما لم تصدمهم في القرن الثاني لا الهزات الزوالية (من اسكندينافيا إلى فلسطين) ولا الهزات العرضية في القرن الرابع الميلادي (من العربية إلى شمال الصين) (يقصد المؤلف بالعرضية والزوالية من الشمال إلى الجنوب بحسب خطوط العرض ومن الغرب إلى الشرق بحسب خطوط الطول - المترجم) وكذلك بأيّ طريقة تفسر خصائص الإثنوجينيز الخزري خلال آلاف السنين وتكون البقايا الإثنوسية المتعددة: قوزاق الأعراف وقوزاق الدون الأسفل وتتار استراخان وقرميو شبه جزيرة القرم؟

بالاختصار سلك الخزر كإثنوس «قيّم» اجتاز كل مراحل التطور ولكن على حساب أي شيء؟

إن مسجل الحوادث التاريخية الروسي يقارن بصورة صحيحة الخزر بالسكيث الذين قَصَدَ بهم جيورجي أمارتول في مؤلفه سكان القسم الجنوبي من أوروبا الشرقية القدماء ما قبل السرماثيين. في ذلك الوقت لما استولى على الأراضي السهبية التي تتوزع المياه: السرماثيون (في القرن ٣ق.م). والهون - الهونّو (في القرن ٤م) والبلغار (في القرن ٥م) والآفار (في القرن ٦م) والمجر والبتشينيغ على التوالي، عاش الخزر بهدوء في الأدغال الساحلية الكثيفة المنيعة على الرحليين الذين كانوا معهم على عداء على الدوام.

وبفضل الظروف الطبيعية الملائمة للغاية عاش الخزر - أحفاد الأوروبيين القدماء سكان أوراسيا الغربية كإثنوس مستمر إلى نهاية القرن السادس الميلادي وفي ذلك الوقت تغير الموقف بصورة حادة للغاية على حين غرة.

والدور الأهم في منشأ الإثنوس الخزري كان من نصيب إثنوس التركمان القدماء - الأتراك كما اتخذوا لهم لقباً لكي يتفادوا اختلاط المصطلحات - ومن

١- يذكر خورين موسيان في «تاريخ أرمينيا» إنه بين عامي ١٩٣ و ٢١٣م (اجتازت جموع الخزر والبارسيليين المتحدين عبر بوابة جورا «ممر دربنت»... قادمين إلى كورا وانتشروا في نواحيها) ويفترض م. إ. ارتامونوف أن ذكر الخزر في أوقات مبكرة جداً هو خطأ في تسلسل تواريخ الحوادث، إلا أنه لا يقدم أي أساس للشك، ويتبنى معلومات المصدر نثبت أن الخزر سكنوا في القرن الثاني للميلاد في أسافل التيريك والسولاق وامتدوا إلى الفولغا مؤخراً ليس عبر السهوب الجافة وإنما على شاطئ بحر قزوين الذي توقف عند المستوى ناقص ٣٦م وهذا يعني أخفض بثمانية أمتار من القرن ٢٠م.

اختلاط هذا الإثنوس مع القبائل الأخرى الناطقة بالتركية[1] نشأ الأتراك هكذا: في عام ٤٣٩م هرب الأمير آشين مع مفرزة غير كبيرة من شمال غرب الصين من التابغاتش المنتصرين الذين لا يعرفون الرحمة وكان قوام المفرزة مختلطاً ولكن ألسيانبتسيين كانوا الإثنوس الغالب فيهم وهذا يعني المغول القدماء الذين استوطنوا عند سفوح جبال ألطاي وخانغاي واختلطوا مع السكان الأصليين واشتغلوا باختصاصهم الضيق صهر الحديد وصنع الأسلحة وفي عام ٥٥٢م أحرز خان تومن النصر على الجوجانيين الذين سيطروا على السهب في القرون ٤-٦م وهكذا كانت قد أنشئت الخاقانية التيوركية العظمى.

وعين الخان ايستيمي الأخ الأصغر لـ تومن على رأس القوات بمهمة إخضاع السهوب الغربية ووصل ايستيمي إلى الدون وشواطئ البحر الأسود وهربت بعض القبائل منه والأخرى خضعت بقوة السلاح والبقية انضمت في سبيل مساعدة المنتصر لكي تقتسم معه ثمار الانتصارات، واتضح أن الخزر وقبائل الأوتورغوروف البلغارية العائشة بين الكوبان والدون كانوا في عداد هؤلاء الأخيرين. ولما تفككت الخاقانية العظمى في بداية القرن السابع وَجَدَ الخزر والأوتورغوروف أنفسهم في قوام الخاقانية الغربية وهؤلاء وأولئك المخلصون ساعدوا حكامهم الجدد في الحروب ضد بيزنطة وإيران.

إلا أن الاتحادين القبليين في الخاقانية التيوركية - الغربية شكلا حزبين تصارعا من أجل السيطرة على الخان الضعيف وانحاز الأوتورغور إلى أحد الحزبين والخزر بالطبع إلى الحزب الآخر وبعد هزيمته اتخذوا ابن الملك الهارب لهم خاقاناً في عام ٦٥٠م.

وبعد ثماني سنوات استولت قوات إمبراطورية تان على الخاقانية الغربية - التيوركية وجرى ذلك لصالح الخزريين الذين اتخذوا جانب ولي العهد المنتصر سابقاً نكاية بالأوتورغو البلغار الذين حرموا من دعم الخان الأعلى (في عام ٦٥٨م) ونتيجة لذلك سحق الخزر في نحو عام ٦٧٠م البلغار وهؤلاء تفرقوا -

---

١- إن مصطلح «تيورك» له ثلاثة معان، فبالنسبة للقرون ٦-٨م هو إثنوس صغير «تيوركيوت» ترأس اتحاداً هائلاً في السهب العظيم (ال) ومات في أواسط القرن ٨م. هؤلاء التيورك كان لهم شكل مغولي ومنهم نشأت السلالة الملكية الخزرية. ولكن الخزر أنفسهم كان لهم شكل أوروبي من النموذج الداغستاني ومن القرن ٩-١٢م التيوركي - هي تسمية عامة لمحاربي الشعوب الشمالية بمن فيهم المجر والروس والسلاف وهذا المعنى الثقافي التاريخي للمصطلح لا يمت بصلة إلى المنشأ وللمستشرقين المعاصرين «تيورك» هو مجموع اللغات التي تتكلم بها إثنوسات مختلفة الأصول.

بعضهم إلى كاما وبعضهم إلى الدون وبعضهم إلى هنغاريا والبعض حتى إلى إيطاليا.

وفي الوقت ذاته اضطر الخزر إلى صد اعتداء العرب المنتصرين من الهند إلى أكباتان ولكن في القفقاس كان النضال سجالاً مع محتلي إيران وأسبانيا على نحو غير متوقع. زد على ذلك تناوب اعتداء الخزر على ما وراء القفقاس مع الحملات العربية حتى دربنت (٦٦٢-٧٤٤م) التي لم ينجح العرب بالتحصن إلى الشمال منها. فمن أين توصل هذا الإثنوس الصغير المتبقي لمثل هذه الحمية الهائلة التي سمحت للخزر في حالة عدم تكافؤ القوى بالتوصل إلى حرب متعادلة مع أقوى وأعدى دولة في القرن ٨م؟ كانت الأكثرية الراجحة (التفوق العددي - المترجم) إلى جانب العرب لأن خانات السلالة الملكية التيوركية الخزريين لم يدعمهم لا الآلانيون ولا المجر ولا البورتاسيون ولا الموردوفيون ولا السلاف وأقل الجميع البلغار واحتل جبليو داغستان أي مملكة سِرير والتومان والزيرخ - غيران - والقايتاغ والتاباساران واللاكز والفيلان الذين خضعوا في عام ٧٣٩م لمروان والي أذربيجان وأرمينيا الذي اعتمد على دربنت المنيعة[1] موقعاً خاصاً، ولكن خازاريا الصغيرة البطلة حافظت على استقلالها لماذا؟.

نتذكر أن خانات التيوركيوت استخدموا لمدة مئة عام كاملة (من ٥٥٨ إلى ٦٥٠م) أراضي خازاريا كقاعدة لعملياتهم الحربية، وفي خازاريا استراح الأبطال التيوركيوت بعد اجتياز السهوب الجافة وعند العودة من شبه جزيرة القرم أو من وراء القفقاس وبذروا الغنائم المنهوبة على الملذات ومن هنا بالتأكيد لم يستغنوا عن النساء اللواتي كما هو معلوم لم يكن عديمات الاكتراث بالمنتصرين، والأطفال الذين يظهرون بعد الحملات العسكرية يعتبرون أنفسهم خزريين بالكامل. آباؤهم هم لا يعرفونهم وكانوا متربين في الوسط الخزري وفي أديم الفولغا حصلوا بالوراثة من التيوركيوت فقط على بعض الملامح الأنثروبيولوجية والفيزيولوجية بما فيها العاطفية. وبما أن هذه المعايشة امتدت لأكثر من مئة عام فمن الطبيعي أن العاطفية المُدْخَلَة من الأجانب صارت كافية لتحول البقية إلى إثنوس حقيقي فعال.

وكانت المرحلة التالية أيضاً جوهرية لنشأة الإثنوس عندما حكم خازاريا خانات سلالة آشين الملكية التيوركية (٦٥٠-٨١٠م) وَرَثَة حكام الخاقانية التيوركية العظيمة (٥٥٢-٧٤٥م) فابن الملك الهارب وزملاؤه الذين استقبلهم الخزر بترحاب لم يندمجوا مع جماهير الشعب ولم يواجهوها واستمروا بالعيش بالحياة الرحلية فقط يمضون الشتاء في البيوت في إيتيل وترأسوا الصراع مع العرب وصاروا مستقبلاً أساتذة حرب الحركة السهبية (الكر والفر - المترجم)

١- كانت دربنت قد احتُلَّت نهائياً من قبل العرب في ٦٨٥-٦٨٦م وانفصلت في القرن العاشر عن الخلافة سوية مع شيروان.

وعلموا الخزريين صد هجوم القوات النظامية باقين على حالهم وثنيين عابدي السماء الزرقاء والأرض السوداء. وكانوا متسامحين دينياً لدرجة غير محدودة هكذا كانوا وماتوا ولكن من أجل أي شيء وبأي شكل؟

الخزريون وأطوار الإثنوجينيز

إن دخول سمة الباسيونارية من الخارج لا يختلف في نتائجه عن ظهورها عن طريق التغيير الفجائي، ويظهر الاختلاف فقط في أنه بالانسياق التوالدي (المنشئي) تنتشر السمة بشكل أسرع. وبالتالي تجري العملية بصورة أشد ولذلك دخلت فترة حضانة الإثنوجينيز الخزري في ثلاثة أجيال نحو ٧٠ عاماً وبعد ذلك منذ عام ٦٢٧م صارت التسمية الملائمة «تيوركي - خزري» بلا معنى بعد عام ٦٥٠م لما سمي الخزريون وبخاصة المهجنين تيورك خزري الأصل، ولسبب ما قَسَّمَ الاسخريوطي وغيره من الجغرافيين الشرقيين الخزر إلى فئتين: سُمر سود الشعر و «بيض. جميلون. كاملو الهيئة» وكذلك نسبوا الخزر مرة إلى التيورك ومرة لغير التيورك ناسبيهم مرة إلى الجيورجيين الحاليين ومرة إلى الأرمن. واللغة الخزرية بحسب ملاحظة الاسخريوطي لا تشابه لا التيوركية ولا الفارسية ولا أيّاً من اللغات الأخرى المعروفة وإنما مشابهة للغة البلغار، وهذه الأخيرة أثارت الكثير من الارتباك لأن لغة البلغار تعتبر تيوركية ولكن هل كانت هي هكذا في القرنين ٥ و ٦م لمّا ظهر الأتراك للمرة الأولى عند الفولغا؟ من المشكوك بذلك!.

انتشرت اللغة التيوركية كلغة دولية وشائعة الاستعمال فقط في القرن الحادي عشر بفضل البولوفيين زد على ذلك أزاحت من السهوب اللغة الروسية القديمة التي سادت في القرنين ١٠ و ١١م وقبل هذا تكلمت الإثنوسات في البيت بلغاتها التي لم تصل إلينا وعلاوة على ذلك عرفوا التيوركية القديمة لغة القادة العسكريين.

وبهذا الشكل تشكلت عند الفولغا الأسفل في القرن السابع الظروف المثالية للإثنوجينيز: الأديمات الأرضية غير المتجانسة باقتران وثيق مع ما يناسبها من الأنماط الاقتصادية الملائمة للأسس الاثنية (الإثنوسية) التي تعود إلى إثنوس وحيد (أوراسي) متفوق والعاطفية المستوردة سمحت بإعطاء الشكل النهائي للتنوع الإثنوسي في النظام الاجتماعي وهذا الأخير كان مرناً لدرجة كافية لكي تصبح الإثنوسات الداخلية فيه إثنوساتٍ مشابهة للإثنوس الخزري الذي ورث التسمية من الأسلاف.

لذلك بالضبط شكك م. إ. ارتامونوف في صحة المدونات التاريخية الأرمنية التي ذكرت الخزر في القرن الثالث الميلادي.

غطى طور الارتقاء الإثنوسي نحو ١٥٠ عاماً. من منتصف القرن السابع وحتى نهاية القرن الثامن، وخلال هذا الزمن سار الخزريون من نجاح إلى نجاح، وكانوا على علاقات موفقة للغاية مع الجيران. إلا أن طبيعة تلك العلاقات كانت مختلفة مما أدى إلى زحزحة الخط البياني الطبيعي للإثنوجينيز ونتيجة لذلك لم يصل إلى طور الذروة، ولذلك نلفت الانتباه إلى جيران الخزر ولكن في بادئ الأمر نذكر أن الإثنوس الخزري كان في القرن الثالث حتى الخامس ميلادي في طور الاتزان، والقوى المنتجة فيه مستقرة، أما المجتمع فقد بقي في التكوين المشاعي البدائي بعلاقات إنتاجية ثابتة.

ومقابل هذا تطور جيران الخزر بسرعة. إن بيزنطة وروسيا القديمة نمتا بألم عنيف وباطراد، وفقدت إيران الساسانية فعالية النمو على حساب تبسيط الأجهزة مما أدى إلى تعزيز السلطة الحكومية وخسارة للتكتلات الاجتماعية.

إن الشعوب الشرقية - الهون الذين جاؤوا إلى أوروبا خسروا الحرب مع السكان الأصليين: الألمان في الغرب والبلغار في الشرق وبعد ذلك فقدوا الأهمية السياسية والإثنوسية، ومصير الهون مثال ساطع على أن أي عملية إثنوسية يمكن الإخلال بها بالصداقات السياسية التي لا يمكن التنبؤ بها، ولو استطاع الهون البيض الانتصار على الجبيديين (القبائل الألمانية - المترجم) في معركة نيداو عام ٤٥٣م وسحق السارغور (البلغار) في عام ٤٥٣م لتشكلت وقتئذٍ في شرق أوروبا في القرن الخامس الميلادي دولة قوية ولكن بما أن ذلك لم يحصل استردت الإثنوسات المحلية المتعددة استقلالها.

والإثنوس الآسيوي الثاني الذي وصل إلى أوروبا - الآفاريون (الأوبريون) في عام ٦٣٠م فقدوا موقعهم عند البحر الأسود نتيجة للصراع مع البلغار - الكوتورغوريين الذين استوطنوا السهوب من نهر الدون إلى جبال الكاربات وحشد الآفاريون جهودهم للصراع مع اليونانيين والفرنجة وسلاف - الدوليب ساكني فوللين المضطهدين وتكبد الآفار الهزيمة مع الفرنجة، ولكنهم حافظوا على استقلالهم واحتفظوا بالمنطقة شرقَ الدانوب حتى مجيء الهنغاريين الذين استقبلوهم كأقرباء واتحدوا معه بسرعة بإثنوس واحد. والخاقانية الآفارية هي الشظية الأخيرة من الطورانية القديمة التي زالت من الوجود في بداية القرن العشرين.

جيران الخزر في القرنين السابع والثامن الميلاديين

تركت مأساة الهون البيض أثراً على الخريطة الإثنوسية لأوروبا الشرقية فالبلغار - السارغور زحزحوا شعباً آسيوياً آخر - السابير أو السافير، جزء منهم تغلغل إلى ما وراء القفقاس وجزء في البنطس السكيثية «حتى جبال الريبين التي ينبع منها نهر التانايس «وكان السابير منحدرين من سيبيريا الغربية، وعلى ما يبدو أنهم كانوا ينتمون إلى الاوغوريين أو إلى الفروع الجنوبية الأشد ضراوة وتأسلفت (أي صارت سلافية - المترجم) القبائل الغربية منهم ولكنهم حافظوا على اسمهم القديم - السيفيريان ولم يتجاوروا مع الخزر وعلى ما يبدو لم يتخالطوا كما فعلت ذلك الإثنوسات الأخرى المجاورة.

وليس فقط مجموعة من قبائل أتراك[1] الألطاي الصغيرة التي من أصل مغولي رافقتهم في الحملات وإنما الفاساليون أيضاً دخلوا في قوام الإثنوس الخزري بحدود القرنين السابع والثامن الميلاديين وواحد منهم تجنس، أما البقية منهم فحافظوا على صفاتهم الإثنوسية وهكذا كفَّ المؤلفون البارسيليون في القرن العاشر عن التمييز بينهم وبين الخزر، أما البتشينيغيون الذين دخلوا إلى خازاريا قبل القرن التاسع كأصدقاء وحلفاء فلم يختلطوا مع الخزريين لأنه من البديهي أن الحياة الرحلية قد اجتذبتهم أكثر من حياة الخزر الحضرية ولكن هذا لم يُعِق الصداقة، ولم تربط الخزر والبارسيليين والأتراك والتيليتس والبتشينيغ وحدة العيش والأخلاق والعادات (الطباع) والحضارة واللغة وإنما وحدة المصير التاريخي: وجود الأعداء المشتركين ووحدة القضايا السياسية والأساسية منها كانت: أن تسلم لا أن تهلك. وحتى بداية القرن التاسع تغلَّب الخزر على هذه القضايا ببراعة وبخاصة لأنهم لم يكونوا منفردين.

لقد ترأست خازاريا قوى المقاومة وبفضل ذلك وسَّعَت مجال تأثيرها حتى شبه جزيرة القرم وبحر أورال وحتى الكوبان (سهوب الكوبان - المترجم)

١- عندما حاصر التيوركيوت والخزر سوية مع البيزنطيين تفليس ٦٢٧م علق الجيورجيون قرعة على سور المدينة رسموا عليها وجه الخاقان - جابكو وبدلاً من الحواجب رسموا خطوطاً رفيعة وذقناً جرداء وشعرات قليلة وأنفاً بعرض المرفق وهتفوا «هذا هو ملككم».

والأوكي (نهر) وحتى نهر الديسنا وساكمار. ولكن كثيراً ما تكمن المخاطر في مثل هذا الاختلاط الإثنوسي بالنسبة للأنظمة الدولية.

ولم يكن الغُزّ في الشرق والمجر في الشمال والآلان والبلغار (السود) في الغرب دوماً أصدقاء للخزر ولكن بما أن هذه الإثنوسات دخلت في منظومة الإثنوس الأوراسي المتفوق الوحيد. لم تحدث الصدامات بين القبائل لا في حروب إبادة ولا في حروب عدوانية. فجميع هذه الإثنوسات عاشت الاقتصاد العيني المرتبط بشكل وثيق دوماً مع الخصائص الطبيعية للأديمات المتداخلة فالغُزّ اعتادوا على السهوب الجافة والبوادي أشباه الصحارى حيث الغطاء الثلجي رقيق ولا يعيق الترحال على مدار السنة ولكن السهوب كانت مفيدة للأوغريين الساكنين في النطاق السهبي الذي تتخلله الحراج غربي أوراسيا والآلانيين القاطنين في السهوب الاثيثة بنباتات الحبوب النضرة بين الكوبان والدون حيث يسقط الثلج هناك بكثرة شتاء وبالتالي من الضروري تحضير الدريس للقطعان، مما يعني أن الحياة الرحلية غير ممكنة فتربية الماشية يجب أن تكون طليقة متنقلة.

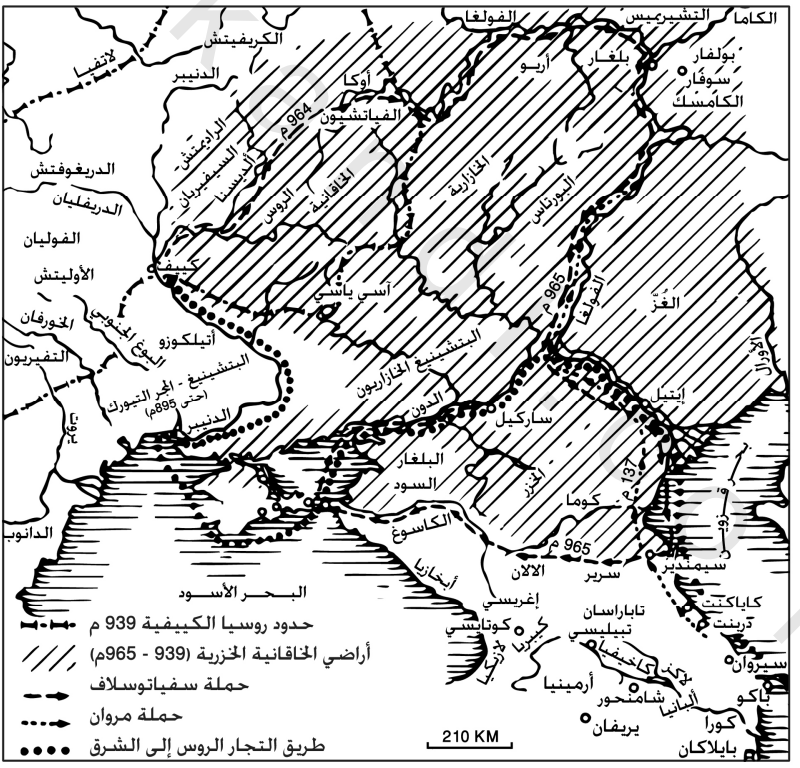

الخاقانية الخزرية في القرن العاشر الميلادي

ولكن ولا واحد من الإثنوسات المعدودة كان بحاجة لأحواض الأنهار المسكونة بالخزريين وكذلك الخزر على حد سواء ما كان لهم من حاجة بالسهوب

والغابات التي تطوقهم ولذلك تطلعوا باطمئنان إليها. وكذلك انتشر في المنطقة الغابية من أوراسيا إثنوس جديد - هم السلافيون: الفياتشيون الراديميتشيون وفي منطقة الدنيبر الأوسط مجموعة أخرى من السلافيين تشبهت بالرومونوسوف والسافيريين وحولتهم إلى البوليان والسيفيريان وكل من هذه الإثنوسات وجد معتزله البيئي ولهذا السبب كانت النزاعات فيما بينها يمكن أن تقررها فقط التقلبات العاطفية.

ومن حسن حظ الإثنوسات المعدودة إنها كانت بسلام من هذه الناحية في القرن الثامن فالآلانيون أحفاد السرماثيين المخيفين بوحشيتهم الذين أبادوا السكيث جسدياً في القرن الثالث قبل الميلاد والبارفيان الذين وهبوا القادة المتطوعين الحرس (في العام ٢٥٠ق.م) تحولوا خلال ألف عام إلى إثنوس مثقف مؤدب محب للعمل فاقد الميل للعدوان. وهذا التحول مهد السبيل لأن يرحل القسم الأنشط والأشد عزيمة من الآلانيين بعد عام ٣٧١م إلى أسبانيا لكي يتفادى الخضوع للهونيين. وكما نعلم أن العاطفية - هي سمة وراثية وبالتالي يجب البحث عن أحفاد الآلانيين العاطفيين في أسبانيا لا في القفقاس الشمالي.

والأوغريون بما فيهم المجريون - هم إثنوس قديم جداً حصل على حقنة إضافية من الباسيونارية من الهونّو[1] في القرون ٢-٥م وكان الغُزّ الذين استطاعوا أن يصونوا استقلالهم عن الهون والتيوركيوت هم الأقل باسيونارية.

والإثنوس البيزنطي ليس له أسلاف وهذا لا يدل بالطبع على أن الناس الذين شكلوه لم يتحدروا من إنسان جاوا (القرد إنساني - المترجم) ولكنهم إثنوس - ليس بتعداد الناس وإنما بالنظام الديناميكي (الفعال المليء بالقوة والنشاط والتغير - المترجم) الذي نشأ في زمن تاريخي بوجود دفعة عاطفية كمركب ضروري للحظة الإثنوجينيز العملية التي حطمت الحضارة القديمة.

في حوض البحر الأبيض المتوسط كانت في القديم حضارة هيلينية كاملة دخل فيها أثناء عملية التطور الثقافة الفينيقية وهي تشبه من وجهة النظر الإثنوسية الحضارة الأوروبية الغربية لأن النواة الأساسية الهيلينية لم تستنفد جميع أشكال الحضارة الهيلينية المتعددة الجوانب، بالطبع روما وقرطاجة وبيلا كانت لهن خصائصهن المحلية، وكن عبارة عن سوبرإثنوسات مستقلة ولكن بالمعنى الإثنوسي المتفوق دخلوا في حلقة الحضارة الهيلينية الواسعة. بالاختصار هذا ليس جديداً ولكنه مهم بالنسبة لنا كنقطة انطلاق، فالدولة الرومانية ساعدت على المساواة الإثنوسية أما مساواة اللغة اليونانية مع اللاتينية أدت إلى أن جميع سكان منطقة البحر الأبيض المتوسط تقريباً تلاقوا في إثنوس واحد. ولكن ظهر في الإمبراطورية الرومانية في القرن الأول الميلادي أناس جدد شكلوا في القرنين التاليين وحدة كلية

١- الهونّو: التسمية المتعارف عليها والتي تطلق على إثنوس آسيا المركزية تيوركيي اللغة، أما الهون فهم خليط من مجموعات الهونو الذي استوطنوا في القرن الثاني الميلادي ضفاف الفولغا والأورال مع السكان الأوغريين الأصليين. (كما ورث أحفاد «الخزر» والتيوركيوت تسمية الخزريين).

جديدة، حيث تواجهوا في بداية ظهورهم مع جميع الناس الآخرين وفي الواقع تميزوا عنهم ولكن بالطبع ليس بالسمات التشريحية البنيوية أو الوظيفية وإنما بطبيعة التصرف فهم ترفهوا وتعاملوا مع بعضهم بعضاً وفكروا ووضعوا لأنفسهم أهدافاً في الحياة على خلاف الآخرين بحيث ظهروا لمعاصريهم وكأنهم ضعفاء. فالعالم الهيليني كان بعيداً عن حياة التقشف، والناس الجدد شكلوا (Fevayda)؛ اليونانيون والسوريون أمضوا السهرات في المسارح وأحبوا رقص الزنبور «التعري القديم» أما هؤلاء فاجتمعوا للمسامرة والمحادثات وتفرقوا بهدوء إلى البيوت؛ آلهاتهم هيلينية والرومان اعتبروهم لعدة قرون صوراً وأشكالاً أدبية محافظين على العبادة كتقليد حكومي أما في الحياة فكانوا مقتصرين قراءة على الفؤول والطوالع المتعددة، والمبشرون الجدد والمبتدئون الحديثو العهد آمنوا بقناعة تامة بحقيقة الحياة الأخرى واستعدوا للحياة ما بعد الموت منتسبين بإخلاص للحكومة الرومانية ورافضين الاعتراف بطبيعتها الإلهية وعبادة تماثيل الأباطرة مع أن ذلك كلَّفَهم حياتهم. إن هذه الاختلافات البسيطة لم تحطم البنيان الاجتماعي ولكن الناس الجدد وقعوا في التوحد الإثنوسي وسببوا بغضاً مؤلماً عند سواد الناس في المدن الذين طالبوا بإبادتهم، واعتبار أن سبب نشوء الكراهية كان هو الاختلاف في المعتقدات، وهذا ليس صحيحاً لأنه لم يكن عند الوثنيين الجهلاء في ذلك الوقت أيّ ثوابت في المعتقدات، أما عند أناس التكوين الجديد فقد كانت تلك المعتقدات متعددة كثيرة الأشكال ولكن لأمر ما لم يتخاصم الهيلينيون والرومان من أجل ميترا وهسيود وكيبيل وهليوس باستثناء ما قاموا به ضد السيد المسيح، ومن الواضح أن ما يطرح على البحث - خارج قوس - هو أنه يجب تتبع ليس السمة الإيديولوجية أو السياسية وإنما الإيتولوجية[1] وهذا يعني التصرفات التي كانت بالنسبة للحضارة الهيلينية جديدة بالحقيقة وغير مألوفة مع أنها كانت غريبة على اليهود الذين لم يندمجوا قطعاً مع الرومان واليونان ولم يتعرضوا للاضطهاد من أجل الإيمان والدين.

عبر حدود القرون

في الألف الأولى من العصر الحديث كان هناك أيضاً واحد من السوبرإثنوسات من دون أرض ومن دون سلطة مركزية ومن دون قوات عسكرية... ولكنه كان. واليهود المشتتون من ألمانيا حتى إيران عاشوا من دون أن يفقدوا وحدتهم الداخلية بغض النظر عن الاختلافات في مظاهرهم الخارجية،

١- Etology: العلم الذي يدرس سلوك الأحياء في الوسط الذي يعيشون فيه.

كانوا يتمتعون فيما بينهم، بتقاليد ثقافية مختلفة ومُثُل مختلفة وأنماط سلوكية مقولبة مختلفة، فاليهود الشرقيون لم يشبهوا اليهود الرومان أو الألمان، لكننا من كل بد لا نسميهم إثنوساً وإنما سوبرإثنوساً. وفي القرن التاسع الميلادي حان الوقت الذي قالوا فيه كلمتهم لأن هذه «الكلمة» قيلت في خازاريا وأثرت إلى حد كبير جداً في مصير الخزر. إذن يجب أن نتتبع كيف ولماذا أمكن أن يحدث هذا ولأجل ذلك علينا التعمق في التاريخ وتتبع مصير الفرع الشرقي للجماعات اليهودية وارتباطها بإيران.

إن التاريخ الاثني لليهود كان متعرجاً ومتنوعاً ولكن التحولات التي نشأت نتيجة للصدمات الباسيونارية غيرتهم بما لا يقل عن كل الإثنوسات الأخرى، عندئذٍ تغير حتى مظهر الحضارة والعقيدة الدينية الجامدة والظواهر الحسية إلى ثبات أكثر من القوالب الاثنية ولكن بقي اسم الشعب الشيء الذي ضلل سواء الناس البسطاء أو حتى العلماء.

إن الأخبار الأسطورية للأسفار الأولى من الكتاب المقدس[١] تروي بغموض عن صلات أسلاف اليهود بالسومريين ومن ثم مع مصر، ولكن هذا لا يمت إلى موضوعنا بصلة. إن قبائل الخابير والمسجلة تاريخياً في القرن الرابع عشر قبل الميلاد بدأت بالاعتداء بوحشية بالغة على كنعان غير المحصن المحب للسلم ولكنهم اصطدموا بمقاومة الفلسطينيين أحد «شعوب البحر» وعلى ما يبدو من الآخيين القدماء أو الحثيين (لا هذا ولا ذاك الأصح المينويين الكريتيين - المترجم) وامتدت الحرب مع الكنعانيين والفلسطينيين إلى القرن العاشر قبل الميلاد (طور الذروة في الإثنوجينيز (Akmatic Phase of Ethnogeny). فقط الملك داود (١٠٠٤-٩٦٥ق.م) أصاب نجاحات حاسمة واحتل أورشليم حيث بنى ابنه

١- تعرض الكتاب المقدس كمصدر تاريخي للنقد من خلال التأكيد بأن الأسفار الخمسة نفسها توجهت إلى إلهين مختلفين: إلوهيم (الوحيدون) و يهوه الذي يظهر في دوامة النار. إذاً فحتى الإثنوس كانوا في البداية خلائط معقدة، أما عندما أصبح اليهود إثنوس متلاحم تحولوا إلى تعددية أنتروبولوجية. فيهود أور أيّ النمط - الكلداني - السومري اتصفوا بقصر القامة وعرض المنكبين وبالشفاه الرفيعة والشعر الأحمر. أما تواجد اليهود في مصر فمنحهم الصفات الشكلية الخاصة بالأفارقة. أما الساميون فطويلو القامة، متناسقو الجسم، ذوي أنوف مستقيمة ووجه رفيع وقد منحهم تلك الصفات اختلاطهم مع قدماء العرب. أما غالبية اليهود من النمط الأرمني والذين سكنوا أرض كنعان وسورية وآسيا الصغرى فإن صفاتهم الشكلية هي الصفات المميزة لليهود في الوقت الراهن بشكل عام. تدل هذه الاختلافات على مدى تعقيد عملية الإثنوجينيز اليهودي، ولكن هذا لا علاقة له بآفاق التحليل الإثني، لأن الإثنوس والجنس مفهومان مختلفان لنظامين متباينين.

سليمان الهيكل ولكن بعد موت سليمان انقسمت مملكته إلى (شقين) وفي سنة ٥٨٦ق.م استولى على أورشليم الملك البابلي نبوخذنصر الذي قاد الأسرى إلى بابل وهكذا بدأ الشتات المشهور (الدياسبورا). طور الجمود في الإثنوجينيز. وتأقلم اليهود في بابل ولما سمح قورش في عام ٥٣٩ق.م لليهود بالعودة إلى الوطن استفاد قليل من الناس من هذا السماح فمستعمرة اليهود البابلية بدت أغنى من فلسطين الغاصة بالناس.

ومن بابل انتشر اليهود في كل ميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وبلاد سوز حيث دخلوا في اتصالات وثيقة مع الفرس وحتى هناك افتراض بأن كتابات إكزركسيس (أحشويرش - المترجم) المشهورة «Ahtug Bob» التي تحرم عبدة آلهة القبائل D Bob وجدت لها صدى في التوراة في سِفر «أستير» الذي يصف محتواه كيف تمكن الحكيم مردخاي بفضل سحر ابنة عمه أستير أسيرة الملك من تدبير مذبحة المقدونيين[١] والمنافسين الآخرين لليهود على النفوذ عند ملك الملوك الفارسي.

إلا أن نجاح مردخاي ظهر أنه كان نجاحاً مؤقتاً فالفرس فتروا تجاه اليهود وهؤلاء رحبوا بسرور بالاسكندر المقدوني مستفيدين من أنه لا الملك ولا أصدقائه الهيلينيون اصطدموا باليهود. ولما صار اليونان واليهود في الدولة السلوقية الواحدة نشبت بينهم حرب دموية انتهت بانتصار اليهود الذين أنشؤوا في فلسطين مملكة من أسرة الحشمونيين وأخذ يهود فلسطين ويهود الشتات بالانعزال تدريجياً عن بعضهم بعضاً «مكونين كما لو أنهما أمتان» ومصيراهما كانا مختلفين.

كان مصير يهود فلسطين محزناً فقد تخاصموا على التوالي مع الفرس والمقدونيين والرومان، والأخيرون نكلوا باليهود عام ٧٠ و ١٣٢م بحيث أقفرت فلسطين وأعمرت بالعرب ولكن بقي السكان اليهود في مدن الإمبراطورية الرومانية الضخمة وفي المستعمرات اليونانية - بانتيكابي وغورغيبي وتانايسي في أرمينيا وفي واحات العربية. إلا أن هؤلاء كانوا يهوداً جدداً أثرت فيهم صدمة القرن الأول الميلادي الباسيونارية، وبالتالي فهم مثل أترابهم البيزنطيين والسلافيين. وحافظوا على اتصال وثيق مع أبناء دينهم الإيرانيين المستفيدين من حماية أعداء روما - الملوك البارثيين ونتيجة لذلك تبادلت كل من الجماعتين على الدوام الأفكار والأشخاص[٢] حتى نهاية القرن الخامس.

١- دخلت مقدونيا في الدولة الفارسية من عام ٤٩٠-٤٥٦ق.م وفي هذه الفترة القصيرة خدم الذين من مواليدها الملك إكزركسيس (ارتحششتا).

٢- على هذه الخلفية كان قد تكون تجديد التعليم الديني اليهودي فقد صيغت في القرن الأول الميلادي نسختان من التلمود: الأورشليمية والبابلية وفي القرنين الثاني والثالث نشأت القبالا وهذا يعني «التعليم المتلقى من التقليد» ووفقاً للقبالا الله «الذي ملَّ من الوحدانية» قرر أن يخلق له أمثالاً العالم والناس -

وكيف كان ذلك ضرورياً لهم! وفارس كانت بلاداً فقيرة ولكنها محسنة إلى اليهود، والإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت غنية ولكن اليونان تنافسوا بنجاح مع اليهود، وفي تلك القرون كان مركز الثقل في الصراعات ما بين الإثنوسية قد انتقل إلى مجال الإيديولوجيات فالكتاب المقدس قد ترجم إلى اللغة اليونانية ولم يعد محجوباً وقرؤوه باجتهاد ولكن رد فعل القراء كان مختلفاً، فبعضهم دافع عن الحية التي دفعت حواء لتنال معرفة الخير والشر وذلك الإله أراد ترك الناس في الجهل وسموا الروح الشرير شيطاناً وآخرون بشروا بالهيولى وبالتالي كل العالم المرئي غير باق وهو يعني عقبات صغيرة على الطريق إلى الكمال الروحي ووافق الغنوصيون على بعض من هذه الأفكار ومجموعة ثالثة رفضت تعاقب العهد القديم والجديد معتبرين الدين اليهودي القديم عبادة الشيطان (مرقص ومدرسته) والمجموعة الرابعة المغاويون الذين اعتبروا الكون مجالاً لصراع النور والظلام، وإذا المسيحيون اعترفوا أن الكون والحياة هي من خلق الله فالمغاويون تمسكوا بوجهة نظر معاكسة: الكون - هو ظلام أسر ذرات النور (الأرواح).

وفي الغرب لم يتمسكوا بالثنوية[1]، وشكّل الوثني بلوتين والمسيحي أيريجن مفهوم الأحادية الذي استحوذ على عقول الناس المفكرين في القرن الثالث. وانغلق أتباع الغنوصية باستخفافهم بعامة الناس، وتوقفت أفكارهم عن التأثير في طبقة واسعة من المجتمع الروماني والإثنوسات الأخرى التي تشكله. واصطدمت الغنوصية المغاوية بالبنيان التنظيمي للزرادشية حيث تبارك الحياة وتؤكد على أنها من عمل أهوارمزدا والموت والفناء يعتبران من عمل أهرمان ودفع ماني حياته من أجل عدم الانحراف عن تعاليمه لأنه يبدو أن لا مكان في العالم لنكران الذات في النظام الغنوصي ولكنه هو أوجده.

وعند حدود الإثنوسات المتفوقة - الهيلينية والإيرانية الطورانية والطورانية والهندية ازدحمت الإمارات العربية التي ولو أنها صغيرة ولكنها مستقلة، والقفقاسيون والأفتاليون[2] - وجد أتباع الأفكار الغنوصية لهم الملجأ والأمان وكان في عدادهم اليهود الذين بادلوا فلسطين ببلاد ما بين النهرين، حيث تضايقوا من

المنبعثان منه: غايتهما الكمال إلى مستوى الإله، عند ذلك، يأتي الروح المتجسد ثانية والله يساعده لأن «المساعدة» - هي تقديم خبز التكفير وعليه بنفسه الوصول إلى الكمال.

١- الثنوية (Dualism): مذهب يقول بأن الكون خاضع لمبدأين متعارضين أحدهما خير والآخر شر كالزرادشتيه مثلاً - المترجم.

١- الإفتاليون: مجموعة قبائل اجتاحت بلاد فارس من الجهة الشمالية الغربية في القرنين ٥-٦م ثم اتجهوا نحو الهند. وفي نفس الفترة أسسوا دولتهم التي ضمت أراضٍ من آسيا الوسطى وأفغانستان وشرقي فارس.

القيود الصارمة للدين الرسمي واستجابوا بدقة لتطوير الأفكار العالمية المبدعة، وقدموا آراءهم حول التقليد القديم - القبالا مفسحين لها مكاناً في الوقت نفسه جنباً لجنب مع نظام التلمود الصارم، وفي القبالا كانت موجودة الأنظمة التوحيدية القريبة من الأفلاطونية الجديدة والثنوية المتوارثة من العيسويين والنزوع إلى الأفكار الجديدة التي ظهرت مراراً في إيران وبيزنطة وبما أن الناس الباسيوناريين في الجماعة البابلية كانوا كثيرين فمن القرن الثالث إلى السادس الميلادي هاجت بالأفكار وشاركت بفعالية في الأحداث التي لها أهمية لموضوعنا.

عند الفرس من القرن الخامس إلى السابع ميلادي

لم يستطع الرومان حتى في مرحلة القدرة الحربية الأشد أن يستولوا على ما بين النهرين، لأن السكان المحليين ساعدوا البارثيين بشدة ومن ثم الفرس ولقاء إظهار الولاء أحسن شاه إيران لليهود بالسماح لهم بإنشاء مستعمرة في طيسفون (المدائن) وأصفهان وبتسهيلات مماثلة استفاد نساطرة (نسبة إلى نسطوريوس - المترجم) ومونوفيزيت (أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة - المترجم) أرمينيا لأنهم كانوا أعداء الملك الأرثوذكسي البيزنطي.

وكانت الزرادشتية مشابهة لليهودية - ديناً وراثياً وهذا يعني أن على جميع الفرس اتِّباع تعاليم المجوس وعبادة النار، ولكن لم يكن مسموحاً لأي غريب كان بالعبادة. وعوقب على تحول الفرس إلى المسيحية بالموت مما أدى أحياناً إلى تعقيدات لم يحدث مثلها مع اليهود الذين بالطريقة نفسها مثل الفرس لم يسمحوا للغرباء في وسطهم وبالرغم من هذا المسير المتعاقب استثني من التشابه بأن نشأ في غرب إيران وما بين النهرين وهم يهودي - سوري - أرمني - فارسي مع إضافة من الأشراف البارثيين (الفرتيين) وعرب البحرين حيث عبدوا الكواكب الآلهة وخدموا من أجل المال الشاه الإيراني. ولم يكن هناك وفاق داخل هذه الفسيفساء الغريبة الشكل، فالزعماء والكهنة اجتهدوا لكي يحدّوا من سلطة الشاه ولكن من دون التطاول (الاعتداء) على العرش لأن السلطة المركزية كانت ضرورية للحماية من الأعداء الخارجيين وسعى الشاه جهده للقضاء على حكم الأشراف المطلق ولكن من دون إراقة دماء وذلك لأن الأشراف كانوا يشكلون قوات الفرسان، وكان اليهود إلى جانب التاج والعاطفية المميزة لهذا الإثنوس تجاوزت حد الحميّة التي لم تعد عليهم بالفائدة.

وفي عام ٩٤١م حل الجفاف بإيران والمحل المتصل به وغارات الجراد وفتح الشاه قباذ عنابر الحبوب الحكومية ولكن ذلك لم يحل دون الاضطرابات

الشعبية، عندئذٍ اقترح مزدك وهو أحد الأشراف على الشاه تصوره لإنقاذ الدولة وكان ذلك الاقتراح هو الثنوية ولكن فيها خلافاً للمانوية «مملكة النور» اعتمد على صفات الإرادة والعقل أما «مملكة الظلام»- صفة الطبع غير المعقول ومن هنا تأتى الظلم الموجود في العالم - وهو نتيجة لمنافاة العقل وإصلاحه ممكن بوسائط العقل: فرض المساواة والتساوي في الخيرات وهذا يعني (مصادرة ممتلكات الأغنياء وتوزيعها على المزدكيين) وإعدام «أنصار الشر» يعني أولئك ممن كان غير موافق لمزدك.

وظفر النظام بمنطق لا عيب فيه ودعم الشاه مزدك ولكن كيف يمكن تفريق أنصار النور عن حماة الظلام؟ فقط بالتصريح الشخصي! هنا دخل في سياق الكذب ولما قبض المزدكيون على السلطة بأيديهم نشروا الإرهاب الشامل وصار الشاه في أيديهم دمية. وفي عام ٤٩٦م هرب قباذ من وزرائه إلى الأفتاليين ورجع مع القوات واعتلى العرش، ولكن المزدكيين استمروا بتقلد الوظائف حول العرش والتنكيل بالناس غير المرغوب فيهم سواء الغرباء أو بين البعض. في عام ٥٢٩ وفقط جمع ولي العهد كسرى قوات من الناس المستائين من المزدكيين ومستميلاً إلى جانبه الساكيين وشنق مزدك وأما أنصاره فدفنوا وهم أحياء. ودَور العنف كان عظيماً لدرجة أن الناجين المزدكيين اضطروا إلى الهرب إلى القفقاس لأن لا الافتاليون في الشرق ولا البيزنطيون في الغرب قبلوهم.

هل استطاع يهود بلاد ما بين النهرين وأصفهان البقاء لا مبالين بالأحداث التي دارت من حولهم؟ بالطبع لا. لقد ساهموا بها مساهمة حيّة، ولكنهم انقسموا - كما هي الحال دوماً - إلى تلموديين متعصبين (يكرهون المزدكية)، وقباليين أحرار (يحبون المزدكيّة)، وجرت بين جماعات يهود إيران صراعات شديدة للغاية وحتى دموية كما في الدولة العظمى نفسها. هدد انتصار المزدكيين جميع اليهود التلموديين بالموت، فاضطروا للهجرة إلى بيزنطة حيث قوبلوا هناك على مضض، لكن ذلك كان أفضل من الموت بالنسبة لهم.

وعندما جرى التنكيل بالمزدكيين في عام ٥٢٩م أصاب اليهود المنحازين إليهم سوء كذلك فقد شنق حاخام جماعة يهود إيران مار زوترا وكذلك كل من وقع بين يدي كسرى أنو شروان الذي تولى السلطة ووالده قباذ بعد على قيد الحياة وهرب المزدكيون الناجون إلى القفقاس لكي يختفوا بين سكان ميديا - انتروباتن (أذربيجان الحالية) المسيحيين وهم نجحوا بذلك لأن المسيحيين عاملوا عبدة النار - الفرس بصورة سلبية للغاية وخبؤوا الهاربين من إيران.

واليهود المرتبطون بالحركة المزدكية فروا أيضاً إلى القفقاس ولكن إلى أبعد ما يمكن عن الفرس الساخطين، ووجدوا أنفسهم في السهل الفسيح بين التيريك والسولاق وصاروا يرعون القطعان هناك هرباً من الاشتباكات مع الجيران الذين لا يراعون بدقة للغاية الطقوس التقليدية إلا أنهم احتفلوا بيوم السبت المقدس وقاموا بطقس الختان.

ولنعد إلى مصير اليهود - التلموديين لأنهم سيلعبون بالذات في العهد الثاني بصورة خاصة الدور الأساسي. فالكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية عاملت اليهود في عهد المجامع المسكونية الكبرى بعين العطف ولما تزايدت هجرة اليهود من إيران ونشطت الجماعة اليهودية البيزنطية عندئذٍ بدأت فترة ليس للاضطهاد وإنما التحديد الحكومي لحرية العبادة اليهودية فقد حرم مرسوم يوستنيان في عام ٥٤٦م اليهود من الاحتفال بالفصح وأكل الفطير في الأيام التي إذا وقع فيها الفصح اليهودي في أسبوع الآلام، وفي عام ٥٥٣م كان محرماً على اليهود «تداول تقاليدهم الدينية الشفهية» بالاختصار سعى لتحويل اليهود إلى مواطنين من الدرجة الثانية. (Inferiores, Quasi, Infames, Turpes) مما أدى إلى بعث الميول الموالية لإيران عند يهود بيزنطة وفرصة للثأر مقابل الإذلال الذي تعرضوا له في بداية القرن السابع.

وفي عام ٦٠٢م اغتال العسكر الإمبراطور مرقص ونصبوا على العرش الطاغية العنيف فوقا (فوكاس المغتصب - المترجم) وبدأ الشاهنشاه كسرى (الثاني - المترجم) أبرويز الحرب متذرعاً بحجة الثأر لوالده بالتبني المقتول والهدف الحقيقي من هذه الحرب هو طرد اليونانيين من آسيا ومصر وهذا يعني استعادة الإمبراطورية الإخمينية، ووقف اليهود إلى جانب الفرس وأحدثوا الفوضى في المؤخرة عند اليونان وزد على ذلك نجحوا بتأمين حماية القيادة اليونانية لهم وتحويل غضبها إلى المسيحيين الشرقيين المونوفيزس[1] والنساطرة الذين كانوا تحت حماية الفرس لأن تعاطف السكان المحليين بعد الحملات التأديبية من القسطنطينية تحول إلى جانبهم وبهذا الشكل تقدم الفرس إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

والأسوأ هو ما حصل في القدس (أورشليم) في عام ٦١٥م حيث أخذ الفرس في السر بعد استسلام المدينة من ٦٢-٧٢ ألف أسير ولما لم تكن هناك إمكانية لسوق البضائع! الحية عبر الصحراء السورية دون خسائر كبيرة باع المحاربون الفرس العبيد والإماء بالمزاد العلني «واليهود بسبب عدوانهم اشتروهم بأرخص الأسعار وقتلوهم» - وكتب السوري المجهول الاسم في عام ١٢٣٤م وهذا يعني شخصاً ليس له مصلحة شخصية وبالتالي أي تحيّز. وفي الموضع نفسه يعلن أن اليهود «كانوا مبعدين من أورشليم» وهذا يعني ببساطة عادوا إلى وطن الأسلاف في ما بين النهرين. وهنا أقنعوا الحامية الفارسية بعد

١- المونوفيزس (Monophysis): من اليونانية (Mono واحد، و Physis طبيعة) القرن (٥م) مذهب القائلين بأن للسيد المسيح طبيعة ألهية واحدة ولا يوجد مسيح إنسان - المترجم.

عقد الصلح في عام ٦٢٩م بالدفاع عن أديسا ضد اليونان والتي يجب أن تعود إلى بيزنطة بحسب شروط معاهدة الصلح. وأثناء ذلك دَبّروا الإفلات من القصاص بإرسال رسول هدنة إلى الإمبراطور هرقل الذي التمس العفو لأبناء جماعته والمحاربين الفرس قتلوا بأيدي البيزنطيين.

أما القيادة البيزنطية إما أنها لم ترَ أو أنها ما أرادت أن ترى تناسب القوى، فقد حَلمَ هرقل بإعادة توحيد المونوفيزيت مع الأرثوذكس ولأجل ذلك قدم وسطاً - عقيدة المونوثيليت التي بموجبها حول تجسد الكلمة بطبيعتين - إلهيه وبشرية ومشيئة واحدة - إلهيه وهذه العقيدة لم يقبلها لا اليونان ولا السوريين مع المصريين ولا النساطرة الفرس ولا البابا ووجد أتباع هذا التعليم فقط في جبال لبنان ولكنهم هناك كانوا أيضاً قليلين جداً لأن جبليي لبنان تعاملوا بعداء سواء مع اليونانيين أو مع السوريين فقد كانوا إثنوساً أثرياً (بقية إثنوسية).

وعلى خلفية النفور العام أبقى هرقل عطفه على اليهود لا بل ساعدهم جداً وعانى اليهود الغربيون الذين تغلغلوا إلى ضفة الراين في العهد الروماني بشدة من عدوان الألمان في القرن ٥م ولكن على ضفاف الرون والفارون عاشوا في هدوء ورغد، وعامل الميروفنجيون اليهود من دون عطف، ففي عام ٦٢٩م قرر الملك داغبرت إبعادهم من مملكته ولكن الإمبراطور هرقل تدخّل ولم ينفذ الإبعاد.

ومن غير المفهوم بماذا - استرشد هرقل، من المحتمل أنه لفت انتباهه إلى ما قد بدأ في العربية من اصطدامات دموية بين الجماعات اليهودية وأنصار النبي الجديد - محمد $ ويحتمل أنها كانت /أسباباً/ غير معروفة لنا ولكن على أيّ حال تمت الصفقة على حساب شعوب الشرق الأوسط. زد على ذلك الذي خسر كان اليونان والفرس على السواء أما الرابح فكان فقط اليهود.

وسبَّبَ موقف الخيانة المكشوف لهذه الدرجة الحقد على اليهود السوريين واليهود العرب الساميين ولهذا السبب من الصعب تسمية ذلك معاداة الساميين لأن النتيجة كانت الاتفاق الذي تم التوصل إليه في عام ٦٣٧م بين البطريرك صفر ونيوس والخليفة عمر. فقد سلم البطريرك أورشليم للخليفة «بشرط أن لا يعيش اليهود في أورشليم».

عند العرب في القرن السابع الميلادي

لم تكن علاقة اليهود مع المسلمين أفضل من علاقتهم مع المسيحيين، فقد بدأ الصراع في المدينة المنورة منذ عهد الرسول محمد $. حيث قرر اليهود بعد خسارتهم المتكررة في المواجهة مع المسلمين ترك الأراضي العربية واللجوء إلى فلسطين وبشكل خاص إلى بحيرة طبريا التي كانت آنذاك تحت سيطرة الفرس. بعدها قام بعضهم بالذهاب إلى إيران مع الفرس المنسحبين خوفاً من انتقام مسيحيي سوريا، ولكن في العام ٦٥٠م وقع الاثنان تحت نير العرب. تقبل الفرس ذلك بليونة كونهم اعتنقوا الاسلام، أما اليهود فلم يتقبلوا الارتداد عن ديانتهم.

في العام ٦٥٣م قام أحد اليهود معتنقي الإسلام وهو عبدالله بن سبأ بوضع تعاليم - تبدو للوهلة منطقية - تفيد بأنه وقبل يوم القيامة سيعود النبي محمد $ إلى العالم، وريثما يعود يجب أن يخلفه من كان مساعده في حياته، ألا وهو علي بن أبي طالب وذُرّيته. مما أجج نار الخلاف الناشبة في ذلك الحين.

لا نريد هنا سرد تفاصيل بل يكفي القول أن الضحية كان علي بن أبي طالب «قتل عام ٦٦١م» وابنه الحسين «سقط أثناء الحرب في ٦٨٠م»، مخذولاً من قبل أصدقائه وأتباعه، الذين أصابهم الندم على ذلك ليقاتلوا من جديد في العام ٦٩٠م، وليُتبعوا ذلك بتعذيب النفس وعقاب الذات على مر السنين معبرين عن ندمهم.

وهكذا ترك وقتئذٍ يهود فارس فقد عاشوا في تلك البلاد ١٢٠٠ عام متمتعين بحماية القوانين والدعم العاطفي للملوك ولكن عندما استبدلت القوانين الإيرانية بالشريعة، والشاهات بالأمراء المعينين المطلقي الصلاحية، توجه اليهود من جديد للبحث عن «أرض الميعاد» وقد صوروا هذه الهجرة هكذا «كان في صيف عام ٤٤٥٠ للطوفان (يعني سنة ٦٩٠م) أن اشتد الصراع بين الإسماعيليين والفرس في ذلك الحين، وكان الخاسرون هم الفرس أنفسهم (أمام العرب) وسقطوا تحت أقدامهم وفر الكثير من اليهود طلباً للنجاة من السيف من بلاد فارس وانتقلوا من قبيلة إلى قبيلة ومن دولة إلى شعب آخر ووصلوا إلى بلاد الروس وأرض الأشكناز في السويد ووجدوا هناك يهوداً كثيرين»[١].

وهذا النص يظهر الكثير... يعني أن بلاد روسيا كانت منذ القرن ٧م. وفي ألمانيا (الأشكنار) والسويد كانت الوثنية، وفيها مستعمرات يهودية وهكذا خازاريا

١- النص المعتمد يعود إلى مسجل الحوادث التاريخية والطبيب المشهور يوسف ابن إيشوع هاكوهين الذي عاش في القرن ١٦م ولكن كان في حوزته مخطوط أقدم.

لم تكن موجودة بالقائمة بالرغم أنه في العام ٧٣٧م لو أجبر المنتصر العربي «الفرس - عبدة النار والخزر يعبدون برج الثور (عبادة النجوم - المترجم) وبعضهم يتبعون شريعة موسى» على اعتناق الإسلام[1] وفي الواقع كان ذلك فقط رغبة مروان الثاني لبقوا دون نتيجة، أما الخزر في عام ٦٩٠م وتحت قيادة الأمراء الأتراك الأصل من قبيلة آشين الملكية الذين أصبحوا خانات الخزر فقد هزموا ما وراء القفقاس واحتفظوا بدربنت حتى عام ٦٩٣م. فكيف استطاع اليهود أن لا ينتبهوا لمثل هذه الدولة القوية؟ - فقط لأنهم لم يروها!

هذا يعني أن طريق المهاجرين اليهود من إيران امتد ليس عبر سهب شمال القفقاس المضرج في تلك السنوات بالدماء البلغارية والآلانية وإنما عبر آسيا الصغرى والبحر الأسود إلى مصب الدنيبر وروسيا، ومن هناك - إلى الأرض حيث كانت مستعمرات الفرع الغربي لليهود الذين بقوا في أوروبا بعد تفكك الإمبراطورية الرومانية.

ولكن لو كان الأمر كذلك فمن في خازاريا «قام بشريعة موسى»؟ من الواضح أنهم أولئك اليهود الذين هربوا إلى القفقاس سوية مع المزدكيين فهم استوعبوا ملياً الصراع الدموي داخل الجماعة اليهودية الإيرانية في عام ٦٩٠م وعلى ذلك الأساس بالضبط خافوا على أفراد جماعتهم وأمنوا لهم ملجأً، وبدلاً من ذلك تصرف أحفادهم في القرن ٨م بطريقة مختلفة لأن المأساة المزدكية نسيها أحفاد المشاركين فيها.

٢- يفترض إ. برلين أن هذا الحدث بالذات هو الذي أجبر اليهود على ترك خازاريا والنزوح إلى الغرب.

عند الخزر في القرن الثامن الميلادي

وهكذا أصبح الأمويون في دمشق أعداء لكلا الفرعين اليهوديين القباليين والتلموديين. فالأولون كانوا حلفاء الخزر، والتالون وجدوا لهم ملجأ بين المسيحيين وتوزيع القوى هذا يعطي الحق بالاستنتاج أنه في وقت الصراع على القسطنطينية في الأعوام ٧١٧ و ٧١٨م لما أحرق ليون الإيصافري العمارة (الأسطول) العربية «بالنار اليونانية» وقذف بالجيش البري المنهك بالجوع عن أسوار العاصمة، فإن اليهود حاربوا إلى جانب اليونان.

وكانت قوى العرب مقيدة على كل الجبهات ففي أسبانيا شكل الأسبان غير المخضعين (العصاة) في عام ٧١٨م مملكة أستوريا، وفي آسيا الوسطى اتفق التيورغيشيون مع الصين وعقدوا صلحاً مع التيبت حليفة الخلافة ودعموا انتفاضة الصغديين المحتلين فقط ولكن غير الخاضعين. وكذلك أجبر الخزر الجيش العربي على الانسحاب ونقلوا الأعمال الحربية إلى أذربيجان أولاً ثم إلى أرمينيا (٧٢١-٧٢٢م) وساعَدهم عَبدَة النار الفرس الناجون والمتعبدون الموسويون - اليهود وبرز القائد اليهودي الذي حمل اللقب التيوركي بولان (الالكة) في هذه الحملة ونتيجة لذلك أخذ يقود بصورة مستقلة: ولكنه استعاد الطقوس اليهودية لشعبه[1] ولم يحصل «إدخال الخزر» في اليهودية ولم يكن ممكناً أن يحصل ذلك لأن المهتدين حديثاً في القرون الوسطى إلى الديانة المسيحية والإسلام واجهوا بشدة الأديان القديمة حيث سمح بالقيام بالعبادة فقط لأعضاء القبيلة (الجنس) حتى في الحالة التي ترقى فيها القبيلة إلى إثنوس. فالفارسي - عابد النار أو الهندوسي ابن الطبقة الرفيعة يجب أن يكون قد ولد ولكن لا يمكن أن يكون قد صار ولو نشأت ضرورة قبول الغريب في وسطهم أو إلحاق قبيلة غريبة بهم عندئذٍ يختلقون سلسلة نسب مزورة لكي يتلافوا مخالفة المبدأ؛ وهكذا قرر الشاه يزدجرد زيادة قوات الفرسان، واقترح على

١- إن الأساس الذي أتى به م. إ. ارتامونوف للتاريخ متناقض في وصف غزوة الخزريين لما وراء القفقاس بقيادة بولان، وذكر الطريق إلى دار علام «الذي منه يصلون إلى داريال» ومدينة أرفيل يعني أردبيل ويقارن م. إ. ارتامونوف هذه الغزوة باعتداء الخزر على أذربيجان في عام ٧٣١م عندما أصابها الخزر بعد عدة نجاحات هزمهم العرب، وهذا لا يتطابق مع القصة حول نجاح بولان. وبعد ذلك استولى العرب على «راية بشكل صورة نحاسية» من الخزر، الشيء الذي لا يمكن أن يكون عند اليهود. وأخيراً كان قائد الخزر ابن الخاقان - بارجيل وهو قطعاً ليس يهودياً وكذلك أمه الخانشا بارسبيت «وجه النمر» وعلى ما يبدو يجب تفضيل (الأخذ بـ) التاريخ المبكر أكثر - ٧١٨م لكي لا يناقض الحقيقة المثبتة المعروفة وعلى السواء طريق بولان مشروح بطريقة غير دقيقة دار علام - حرفياً «بوابة العالم» وهي (فارسية - عربية) - وهذه ليست داريال بل دربنت «الباب المغلق» - وهذه القلعة حررها الخزر في عام ٧١٨م من العرب.

الأشراف الأرمن أن يصيروا زرادشتيين على أساس أن هؤلاء الناس الأشراف يتحدرون من البارثيين - الأرشاقيين، ولما رفض هؤلاء التخلي عن المسيحية لفظ الأمر أنفاسه.

واليهودية هي - عبادة شعب «يهوه المختار» ولذلك يعتبر القلائل المنضمون حديثاً «برص إسرائيل» وتجاور اليهود في وئام مع الخزريين وخرجوا معاً في الحملات ولكنهم صلّوا منفردين. والحق يفترض أنه من أجل العلاقات الجيدة مع الجيران لا داعي (ضرورة) لأن نجعلهم مشابهين لنا أو بالعكس تحت ستار الرياء بالتلون لنيل الحظوة. وحتى نسيان القسم الأكبر من فروض التلمود المعقدة كان محتماً بالنسبة للقبائل الرحلية حيث لا مكان ولا وقت للفتيان لتعلم حتى القراءة والكتابة ببساطة ولم يذب أحفاد اليهود - المزدكيين في وسط قبائل داغستان المحيطة بهم، فهم لم يسعوا إلى ذلك. أجل وهؤلاء لم يقبلوهم في وسطهم وكانت مأثرة بولان شيئاً آخر، فقد أبَعَد من بلاده رعاة (خدّام) الأصنام وأقنع الأمراء الآخرين والأمير الأعلى لليهود باستعادة الدين المنسي وصنع الخيمة والشمعدان والمذبح والآنية المقدسة وهذا يعني أنه استعاد الطقوس اليهودية لشعبه، وقد تُرجِمَ هذا الخبر في مؤلفات إيهودا بن بارزيل مؤلف القرن ١١م اليهودي هكذا: «صار الخزر مهتدين حديثاً وكان ملوكهم مهتدين (إلى اليهودية)» - إلا أن س. شيشمان يشير إلى أن كلمة «غير» في التوراة تعني الغريب المنضم إلى شعب آخر ونال حق العضو في القبيلة التي آوته. ومعنى «Proselyte - المهتدي حديثاً» صار في وقت متأخر وبمقتضى المجرى العام للأحداث يستنتج أن المعنى القديم في الحالة الراهنة هو الأفضل لأن بولان اعتنق لا الربانية (أي الحاخامية التلمودية - المترجم) وإنما القرائية.

ولكي لا نربك القارئ بأن اليهود الذين عاشوا في خازاريا سموا خزراً وهذا مألوف بالنسبة لتعميم الاسم الإثنوسي عندما يأخذ الإثنوس الثانوي في الغربة اسم الإثنوس المحلي الأصلي وهكذا فالبريتون في روسيا سموا أنفسهم فرنسيين (البريتون نسبة إلى مقاطعة بريتاني في فرنسا - المترجم) والكاريلليون (من كاريليا في روسيا - أيضاً) في فرنسا - روس، وبالنسبة للأجانب الخزر - هؤلاء هم الناس الذين عاشوا في خازاريا وخضعوا لسلطة الخاقانية الخزرية، ولكن بالنسبة لسكان البلاد أنفسهم وعلى السواء بالنسبة لمصيرهم التاريخي تكون الاختلافات على مستوى الإثنوس الثانوي ملحوظة وأحياناً لا يكون لها أهمية كبيرة ولكن بالنسبة لبعض الأسباب والظروف يتعاظم دورها. وهذا ما حصل في خازاريا في النصف الثاني من القرن الثامن، في ذلك الوقت أخذ اليهود التلموديين يأتون إلى هناك من بيزنطة.

عند اليونان في القرن الثامن الميلادي

في عام ٧٢٣م أصدر ليون الثالث الايصافري مرسوماً يقضي بالتعميد الإجباري لجميع اليهود الموجودين في حدود الإمبراطورية البيزنطية[١]. وهذا المرسوم صدر بعد الانتصار على العرب وقبل سنة واحدة من بداية الحرب ضد الأيقونات فما الذي دعاه إلى ذلك؟

لا توجد إجابة على هذا السؤال في المصادر، يعني يجب البحث عن فحوى المرسوم انطلاقاً من الموقف العام. كان مسيحيو آسيا الصغرى وكذلك المونوفيزيت والنساطرة من مقاومي تكريم الإيقونات وربما أراد ليون الايصافري أن يزيد من عدد أنصاره واضعاً في الاعتبار اليهود من عداد المسيحيين لعل ذلك يعطيه الحق في المشاركة بالإصلاح المقبل؟ ولعل هذا هو التفسير الأكثر احتمالاً وذلك لأن الاضطهاد التالي لم يقع على اليهود الذين ظلوا على دينهم بل على الأرثوذكس. وعلى العكس كتب القديس يوحنا منصور - الدمشقي الذي كان أحد كبار موظفي الخليفة الأموي هشام (بن عبد الملك ٧٢٣-٧٤٣م) رسالتي تكذيب ضد محاربي الأيقونات تحت حماية الخليفة.

ويؤخذ بالحسبان أن هذا المرسوم سبب هجرة اليهود من بيزنطة إلى خازاريا ولكن ليس من المعروف هل وضع في حيز التنفيذ وحتى لو كان ذلك فالهجرة إلى خازاريا حصلت في الوقت الذي كانت فيه حليفة لبيزنطة، وبما أن بولان أمسك بزمام المبادرة في الحرب مع العرب فلا يستبعد أن ليون الايصافري هو الذي شكل الظرف لنقل الإثنوس القادر على المقاتلة (القتال) إلى ذلك القطاع الضروري من الجبهة. وهكذا تصرفت القيادة البيزنطية على وجه التقريب مع جبليي لبنان - المردة: فقد نقلتهم من سوريا وأنزلتهم في حاميات آسيا الصغرى لكي تستفيد من خبرتهم في الحرب.

وكان لإصلاح بولان أيضاً تلك الأهمية وهي أنه قطع الاتصال مع التقاليد المزدكية، كما ظهرت الاتصالات العقائدية لأعضاء الجماعة اليهودية المفكرين «أحرار الفكر» مع مجموعة المفكرين الفرس خيالية، وحالما طرحت الحياة مسائل أخرى وقضايا مختلفة تفكك الوهم، فالذي كان بالنسبة للمزدكيين - الفرس جزءاً عضوياً أساسياً كوّن الإحساس بالكون رمى به اليهود كالقشارة الجافة وحاول المزدكيون الخرّميون بالضبط فيما بعد التحالف مع المسيحيين - محاربي

١- هذا المرسوم مشار إليه في حوليات بتروفان وكدرين.

الإيقونات[1] لأنه في الصراع المميت (٨١٥-٨٣٧م) مع العرب والفرس - المسلمين لم يساعد اليهود الخزر إخوانهم السابقين وشركاءهم في الرأي.

ومقابل ذلك لم تعان الاتصالات الإثنوسية الداخلية من الاختلافات الفردية بل على العكس كانت هجرة البيزنطيين إلى خازاريا ميسرة وبالأخص لأن الهاربين لاقوا الذين من دينهم نفسه وساعدوهم على الاستقرار وبما أن الحاخامات - اليهود كانوا في القرنين ٧ و ٨م من أبناء البلد فإنهم سكنوا في المدن إيتيل وسيمندير وسامكريتش وبيلنجير ومارسوا فيها التجارة ولهذا لم تظهر مؤهلات الخزر أنفسهم.

والاصطدامات ما بين الإثنوسية المختلفة أعطت في التاريخ نتائج مختلفة. فالتيورك الذين اتحدوا مع الخزريين حملوهم إلى الانتصارات وأهدوهم السيادة على الإثنوسات المجاورة وبولان الذي اتخذ نحو عام ٧١٨م اسم «صابرئيل» هزم شر الهزيمة في عام ٧٣٧م من آخر الأمويين العظام - مروان الذي أخذ وعداً من الخزر باعتناق الدين الإسلامي، بالطبع لم يبر الخزر بوعدهم ولا سيما أن مروان هزمه العباسيون في عام ٧٥٠م وقتل، وبقي كل شيء في خازاريا مثلما كان في الماضي باستثناء أنهم نقلوا العاصمة من التيريك من سيمندير إلى أبعد من الغرب إلى الفولغا إلى إيتيل. ومنذ القدم عاش الخزر في أسافل الفولغا في الدلتا وحوضه وهم لم يمارسوا تربية الماشية بقدر ما مارسوا زراعة الكروم وصيد السمك وأعالت المجاري الجميلة الزرقاء وسط المروج الخضراء والأجمات الكثيفة السكان الكثيرين، والعاصمة إيتيل الواقعة على جزيرة مشكلة من الفولغا ورافده الشرقي آختوب لها قاعدة اقتصادية واسعة. وسيطر الخزر على السكان القلائل في السهوب الجافة التي تحيط بواحاتهم المنتشرة في ذلك الوقت تقريباً حتى شبه جزيرة بوزاتش. لقد كانت «نيذرلاند القزوين» (نسبة لنذرلاند أوروبا وهي هولندا أي الأراضي المنخفضة في خليج زويدر زو - المترجم) زد على ذلك أن التشابه اكتمل بأن أصبحت إيتيل نقطة إعادة شحن على طريقي قوافل: من إيران إلى بيارما أو بيرم العظمى ومن الصين إلى بروفانس (في فرنسا - المترجم).

وفي إيتيل عاش اليهود ولعبوا الدور الرئيس في القرنين ٩ و ١٠م ولكن في أي وقت وصلوا إلى هناك؟ من الواضح أنه يجب تتبع تاريخ بيزنطة إلى أبعد.

والشهادة التالية عن الانقطاع بين بيزنطة الأقلية اليهودية واضحة أما تاريخها فيستحق الاعتبار لأنه على خلفية التاريخ العالمي هو الأكثر أهمية «إن

١- عقد بابك زعيم الخرميين تحالفاً مع ثيوفيل نحو عام ٨٣٠م ولكن محاولة المزدكيين الاتحاد مع محاربي الأيقونات الأرثوذكس التي جرت في الوقت نفسه لم تلق نجاحاً.

عاهل القسطنطينية في عهد هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩م) طرد من مملكته جميع اليهود العائشين فيها والذين ارتحلوا نتيجة لذلك إلى بلاد الخزر حيث وجدوا أناساً أذكياء ولكنهم غارقون في الضلال (وثيون ل. غ). ولذلك عرض عليهم اليهود دينهم الذي وجده الخزريون أفضل من دينهم السابق واعتنقوه» هذا النص يؤكد أولاً حدسنا وهو أن الأباطرة محاربي الأيقونات لم يوقعوا أي اضطهاد باليهود، ولو كان خلافاً لذلك لما طرد يهودي واحد. وثانياً: أيّ اضطهادات توافقت مع المجمع المسكوني السابع (٧٨٧م) والهيمنة التالية لليونان على آسيويي آسيا الصغرى واليهود المنحازين إليهم. ووفقاً لمنطق الأحداث وبخاصة في السنوات الأخيرة من القرن ٨م نشأ عند اليونان مفهوم السعي للتخلص من اليهود لأن كراهية الأخيرين للعرب تبدلت إلى تعاطف بعد أن انتقل عرش الخلافة من الأمويين إلى العباسيين المحاطين بالمستشارين الفرس الذين استأنفوا التقليد السياسي لإيران الساسانية.

يجر تكرار الموقف السياسي في التاريخ وراءه قبل كل شيء استعادة توزيع القوى بالرغم من أن التطابقات الحرفية لا تحدث أبداً، وخلال ٢٥٠ عاماً تعاظم الوجود المستقل لخازاريا لدرجة أن النصيب الصغير جداً من السلطنة التركية الغربية تحول إلى دولة قوية كسبت الحرب مع الخلافة العربية وهنا حِيك مصير الإثنوسين اليهودي والخزري.

الراهدونيت

جرت في أواسط القرن الثامن على كامل امتداد القارة الأوراسية أحداث غيّرت العالم بالشكل الذي لم يستطع أحد أن يتنبأ به، كانت الدولة الفرنجية الخائرة العزيمة ممسوكة بطوق شارل مارتل الفولاذي وأضاع ابنه بيبين القصير عرش «الملوك المتوانين» من السلالة الميروفنجية في عام ٧٥١م.

وفي هذه السنة التقى العرب مع الصينيين في وادي نهر تالاس وهزموهم شر هزيمة، والجيشان الصينيان الآخران: أحدهما في منشوريا والآخر في يون - نان هزمتهما القوات المدنية (شبه العسكرية) للقبائل المحلية، والحلم بسيادة الصين على آسيا الذي كان يوجه الأفكار السياسية لإمبراطورية تان السابقة قد تبخر.

وقبل ستة أعوام من ذلك أي في عام ٧٤٥م سقطت الخاقانية التيوركية الثانية وهلك أبطالها في المعارك أو اغتيلوا أثناء الهروب، وقامت محلها الخاقانية الأويغورية غير العدوانية إطلاقاً المنفتحة على التأثيرات الحضارية لإيران ولكن ليس للصين.

ولكن التطور الأكبر كان تبوؤ العباسيين العرش في بغداد وبدء انهيار الخلافة لأن ذلك فتح الطرق من الغرب إلى الشرق لأولئك التجار أصحاب الهمة

الذين اطلعوا على تلك الطرق. فالطريق باللغة الفارسية Rah= رآه، وأصل الفعل «Don= دون = عَرِفَ» تفيد عالم الطريق راهدونيت هكذا دعي التجار اليهود الذين قبضوا بأيديهم على احتكار تجارة القوافل بين الصين وأوروبا.

obeikandl.com

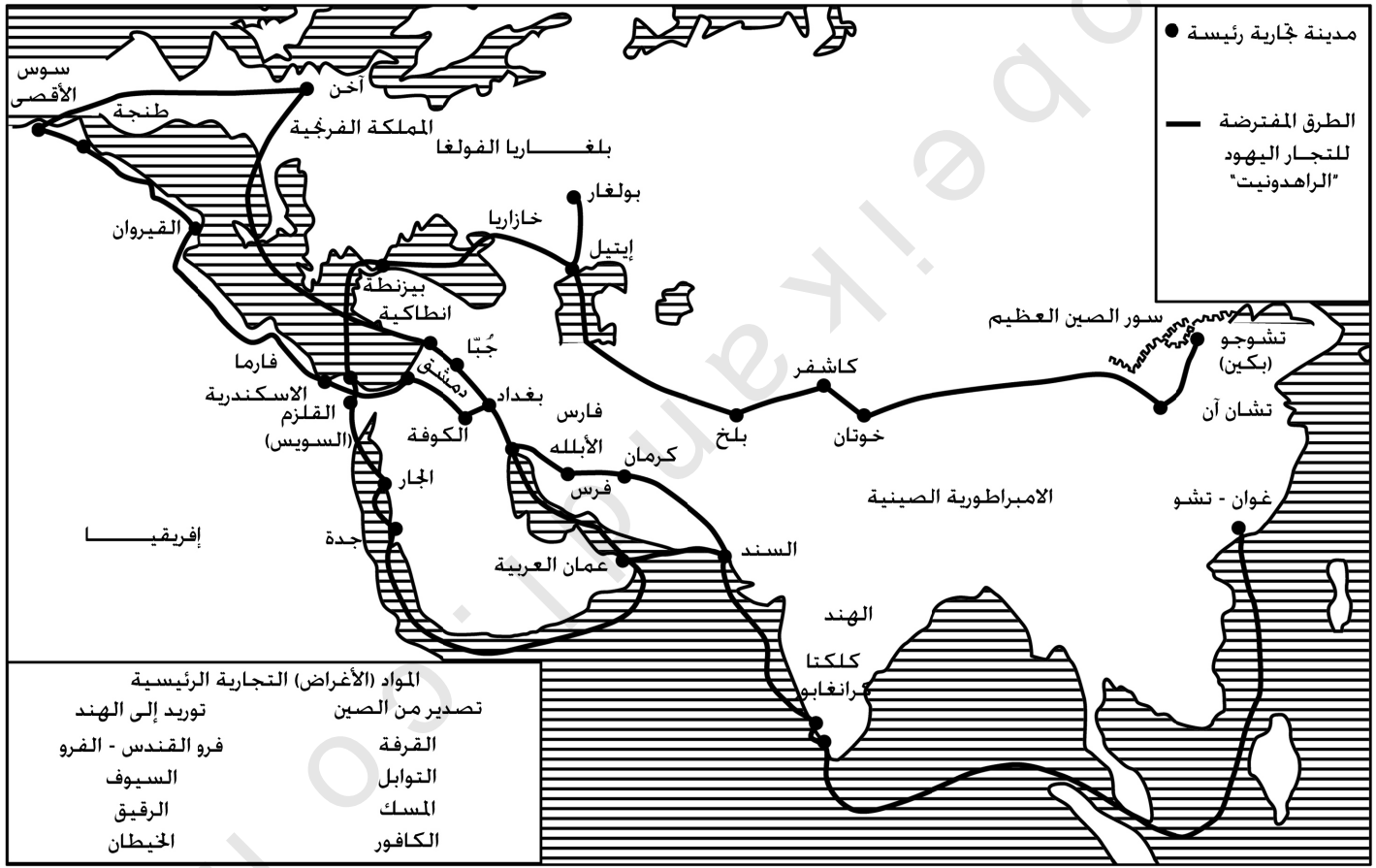

الطرق التجارية للتجار واليهود: ٨٠٠- ٩٠٠ م. (م. جيلبرت. أطلس في تاريخ الشعب اليهودي - القدس ١٩٩٠م.)

كانت التجارة مربحة بصورة خيالية لأنهم ما تاجروا ببضائع الاستهلاك الواسع الضرورية للسكان وإنما بالبضائع الكمالية، وبترجمتها في مفهوم القرن العشرين تطابقت هذه التجارة مع العمليات المالية (البورصة) وتجارة المخدرات وبأرباحها المماثلة غطوا نفقات النقل وصيانة الطرق بانتظام والتي بنوا عليها البرك والقبب فوق الينابيع ووضعوا الشواخص التي تشير إلى اتجاهات الطرق وبنوا محطات القوافل للمبيت ووقفات النهار في الأيام الحارّة جداً.

وكان من البحر الأحمر إلى الصين نحو ٢٠٠ مرحلة يومية أما من حول الشاطئ الشمالي لبحر قزوين فأكثر من ذلك أيضاً غير، أن هؤلاء التجار استخدموا الطريق الشمالي لأن الثورات في الخلافة (الدولة - المترجم) العباسية كانت أمراً عادياً. أما الخزر فقد اهتموا بالأمن بشدة على الطرق السهبية ولذلك تعاظمت أهمية إيتيل كنقطة إعادة شحن على الطرق الطويلة، فالاستراحة على الفولغا لم تكن مريحة فقط بل ممتعة أيضاً.

أما هؤلاء الرحالة اليهود في القرن ٨م الملقبون بالكلمة الفارسية راهدونيت التي تدل على أن أساس هذه الشركة التجارية قد شكّله المتحدرون من أصل بابلي وهذا يعني الجماعة الإيرانية التي هربت من الخليفة عبد الملك في عام ٦٩٠م وفي عام ٧٢٣م انضم إليها يهود من بيزنطة، وبما أن الحروب ما زالت مستمرة على حدود الصغد والخلافة والصين والخاقانية التيوركية فإن التجارة قد لاقت العقبات ولكن في الوقت الذي توقفت فيه تلك الحروب ورقدت الصين بعد ثورة آن يو شان (٧٥٦-٧٦٣) تحت الأنقاض وباعت الحرير رخيصاً انتشر اليهود الراهدونيت وأسسوا ليس فقط الطريق الشرقي الذي جاء منه الحرير مقابل الذهب وإنما الشمالي - من إيران إلى كامو الذي مر فيه الفرو مقابل الفضة. ووقعت خازاريا بالضبط على تقاطع تلك الطرق وإلى هناك اندفع المهاجرون من بيزنطة.

واعتبر خانات التيوركيوت من سلالة آشين بطبيعتهم السهبية، المتسامحون دينياً وأخلاقهم الدمثة أن دولتهم تكتسب بذلك أتباعاً عاملين متنورين من السهل استخدامهم بالمهمات الدبلوماسية والتوكيلات الاقتصادية. وقدم الأغنياء اليهود للخانات والبكوات الخزريين الهدايا الفاخرة أمّا الحسناوات اليهوديات فكن من الحريم الخاني وهكذا تكون الوهم اليهودي - الخزري.

وكان مما يؤسف له فقط بالنسبة لليهود - الراهدونيت على الأرجح هو أن محاولة بولان الحصول على السيادة في الحياة السياسية لخازاريا قد أفشلتها الرجولة العربية. وبقيت السلطة العسكرية في أيدي الأشراف الأتراك - الخزريين الذين لم يكن التفاهم معهم سهلاً دوماً.

وشغلت العملية الموصوفة أعلاه النصف الثاني من القرن الثامن وخلال هذا الوقت نقل الخزر الأعمال الحربية ضد العرب إلى ما وراء القفقاس، وانتقاماً

لتخريب سيمندير وبيلنجرا اكتسحوا أذربيجان ولا توجد معلومات عن مشاركة اليهود سواء زملاء بولان أم الراهدونيت - الجدد في تلك العمليات.

وعوض اليهود - الخزر عن فقدان الأحباء في الفشل بالعمل العسكري حيث ظهر في نهاية القرن الثامن بين التيريك والفولغا الكثير من الأطفال من الزيجات المختلطة اليهودية - الخزرية إلا أن مصير هؤلاء كان مختلفاً وفقاً لمن كان هو أب الطفل ومن كانت هي الأم. وإليك لماذا.

كل القبائل الأوراسية اعتبرت الطفل عضواً من نسل الأب، فالطفل المولود شرعاً له حصة في الممتلكات القبلية وله حق الحماية والعون المتبادل والمشاركة في العبادات القبلية، فالنسب كان عنصر الإثنوس والثقافة، وبالتالي حددت التبعية الإثنوسية العضوية القبلية ولم يؤخذ أصل الأم بالاعتبار.

وعند اليهود تنطبق التبعية الإثنوسية مع التبعية للجماعة، والحق كان هو العضوية في الجماعة وبالتالي اليهودي يحدده الأصل في اليهودية. ففي القرن الثاني قبل الميلاد أعطى هذا الحق إمكانية إدخال القبائل السامية الشقيقة في قوام اليهود كالآدوميين والعماليق والمؤابيين وبخاصة في البلاد الأوروبية والأوراسية حيث الزواج باليهوديات محرم في الديانة المسيحية، وفي خازاريا لم تكن موجودة مثل هذه القيود.

وحصل أن ابن الخزري واليهودية له كل حقوق الأب وإمكانات الأم وهذا يعني أن الحاخامات اليهود علموه والجماعة ساعدته لبناء مستقبله أو المشاركة بالتجارة، وجنس الأب حماه من الأعداء وأمنه من الفقر في حال النكبات. أما ابن اليهودي والخزرية فكان غريباً في كل شيء ليس له نصيب في الوراثة من الأب في ممتلكات القبيلة ولا يمكنه تعلم التلمود في المدارس الروحية اليهودية ولم يتلق العون من أحد سوى والديه، أجل هكذا كان مقيداً بالعادات القبلية والدينية والشرائع وهؤلاء التعساء لم يكن لهم مكان في الحياة ولذلك تكدسوا (ازدحموا) في أطراف خازاريا - في شبه جزيرة القرم ودانوا بالقرّائية التي لا تتطلب دراسة التلمود؛ وقراءة الأسفار الخمسة يمكن لأي كان أن يعلمها لهم ولكنهم عاجزون أمام شريعة الآباء، وشكل أحفادهم إثنوساً صغيراً جداً من القرَّائين القرميين الذين تجمع ملامحهم الأنثروبيولوجية الشخصيات التيوركية والشرق أدنيويه، وكانت ميولهم متجهة إلى السكان الأصليين: الخزر والبلغار والغوث والآلان وليس لأبناء عمومتهم الذين صنعوا «المستقبل والحظ» في إيتيل الغنية.

ولم تختزن الجماعة اليهودية في إيتيل الثروة فقط وإنما أدخلت في قوامها خانات سلالة آشين الملكية التيوركية. فقد حافظ التيورك على عادة تعدد الزوجات وتزوجوا باليهوديات الجميلات وصار أبناؤهم أبناء الملوك وأصبحوا أعضاء في الجماعة اليهودية، وتعلموا التوراة والتلمود واختلطوا مع أقارب أمهاتهم وتزوجوا بحسب نصائحهم من البنات الفتيات من تعداد قبيلتهم، وهكذا حدث الانقسام تدريجياً بين الأشراف الخزر والشعب الذي عاش بهدوء في واحات الدلتا النضرة

دون أن يشارك في أمور الدولة التي لم تعد تخصه، ولكن بقيت الأرستقراطية التي صارت أحوالها صعبة وجاء حل المسألة فقط في القرن التاسع.

وكان من الممكن ملاحظة أن البكوات والتارخانات الأتراك كانوا غرباء جداً مثل التجار اليهود عن الإثنوس الخزري المثابر، وفي الحقيقة حصل الخزريون على فائدة واحدة فقط عن سلالة آشين وهي: - الحماية من الأعداء الخارجيين والأمان، ونسي ذلك بسرعة لأنه أصبح مألوفاً لأن الحالة الاجتماعية وهي - كره الشعب للأرستقراطية حتى التي ليست منه دائماً، والدخيلة عليه قد حدثت في المجتمع الخزري واليهود لم يكونوا خارج هذه الكراهة لأنهم عاشوا في مستعمراتهم المغلقة وتخالطوا قليلاً مع السكان المحليين.

إلا أن طبيعة العلاقات المتبادلة التركية - الخزرية واليهودية - الخزرية كانت على طرفي نقيض، فالأتراك أنعموا على الخزر بالأولاد الذين رباهم الخزريون بعاطفة زائدة وانتزع اليهود الأطفال من الإثنوس الخزري سواء اليهود كاملي القيمة (هنا الحقوق - المترجم) - الأم يهودية أو كأبناء غير شرعيين (الأب يهودي) أحطّوا النظام الإثنوسي وبالأخص أدوا إلى تبسيطه ويبدو هذا عند الملاحظة المباشرة أن هنا ببساطة سلسلة من المصادفات، ولكنها في الحقيقة كانت عملية موجهة وخلال ٨٠ عاماً (اعتباراً من بولان) أعطت نتائج ملموسة: - ظهر في البلاد قسم من الناس الناطقين بالخزرية آباؤهم من تعداد الخزر والأتراك متكيفون مع البيئة ولكنهم لم يكونوا خزراً بالإثنوس والثقافة وبالنسبة للأجانب الذين كتبوا عن خازاريا حسب انطباعاتهم الخارجية ظهر أن هؤلاء الناس - هم خزر يهوديو الديانة ولكنهم ليسوا يهوداً وليسوا خزراً حقيقيين وما تاهوا ولا لدقيقة، أما بالنسبة للخزر فلا حاجة للبرهان أن يهود القرون الوسطى قد أثبتوا أنهم يعتبرون أن الخزريين الذين من دينهم نفسه هم أحفاد جيل السمعانية ونصف جيل مانا سييف الساكنين «في بلاد كوزرايم بعيداً عن أورشليم... وهم لا يعدّون ويجمعون الإتاوة من ٢٥ دولة، ومن ناحية الإسماعيليين فهم يدفعون لهم الإتاوة بسبب الخوف الموحى به لهم، وشجاعتهم».

إن النص المترجم يصف الوضع لا في القرن الثامن وإنما في القرنين ٩ و ١٠م زد على ذلك إنه دقيق للغاية. ففي النصف الأول من القرن التاسع وقعت أحداث عندما حول اقتران إثنوسين متفوقين منطقة الاتصال الإثنوسي إلى واقع اجتماعي - ثقافي وهم (حلم) إثنوسي لا يمكن تحقيقه.

و قصف الرعد...

في تلك السنوات العشر التي اعتلى فيها الشريف نقفور العرش في القسطنطينية (٨٠٢/١٠/٣١م) وأعدم الخليفة هارون الرشيد أحسن معاونيه

وأصدقائه المخلصين - البرامكة في (٨٠٣/١/٢٧م) أمسك بزمام السلطة بيديه في الخاقانية الخزرية شخص أسمه عوباديا من المتنفذين اليهود محولاً الخان من سلالة آشين (بالنسبة لأبيه) إلى دمية وجعل اليهودية الحاخامية (التلمودية - المترجم) دين الدولة الخزرية.

والظرف الذي حدث فيه ذلك ليس دينياً لتلك الدرجة بقدر ما هو انقلاب حكومي مغطى بمقدار عظيم من الخرافات[1] التي تعتبر جميعها من دون استثناء مختلقة من قبل شخص واحد - أخفى عن الشعب والتاريخ الوضع الحقيقي للأمر، حتى أنه غير معروف من كان عوباديا، وعلى ما يبدو إنه لم ينتم إلى عداد اليهود المحليين أحفاد أخوان مزدك الأميين المقاتلين الشجعان - القرَّائين مثل بولان. وعن عوباديا قيل «إنه كان شخصاً ورعاً وعادلاً جدد المملكة ودعم المجالس (الكُنُسْ) وبيوت التعليم (المدارس) وجمع عدداً كبيراً من الحكماء الإسرائيليين وأعطاهم الكثير من الفضة والذهب وشرحوا له الـ ٢٤ سفراً (الكتاب المقدس) والمشنا والتلمود وكل نظام الصلوات المتبعة عند (Khazzanov) وخاف الله وأحب الشريعة والوصايا». ويبدو من هذا شيء واحد وهو أن عوباديا لم يكن قرّائياً ولا خزرياً.

كلا إن هذا الوصف يدل على أن عوباديا كان إنساناً مفكراً له اتصال مع الأقلية اليهودية (يهود الشتات - المترجم) وبالنسبة «لحكماء إسرائيل» لم يوفر «فضة وذهب» خازاريا فقط لكي يرضي هؤلاء الحكماء بالحضور إلى إيتيل، ولو قارنا الحالة العامة المعروفة للجميع مع هذه الحقائق وهي أن الانقلاب السياسي يحتاج إلى مال وتنظيم، يتبين إذن مع أيّ أوساط كان عوباديا مرتبطاً. وربح من تبديل السلطة لا الخزر ولا اليهود الخزريون وإنما اليهود الوافدون والجماعة اليهودية عامة وبما أن الانقلاب حدث هكذا بسرعة إذن يعني أنهم دبروه وفي الوقت نفسه محافظين على المبدأ القانوني: الخان الشرعي من سلالة آشين صار يهودياً وهذا يعني أنه اعتنق دين أمه وكان مقبولاً في الجماعة، وجميع الوظائف الحكومية كانت موزعة بين اليهود زد على ذلك أن عوباديا نفسه اتخذ لقب «بك» الذي يترجم إلى العربية كـ «مَلِك» أي قيصر بالروسية وهذا يعني أنه ترأس السلطة في حين أن الخان (الخاقان) الاسمي موجود اعتباراً من ذلك الوقت تحت الحراسة ويطلق سراحه مرة في السنة، ليعرض على أنظار الشعب، أما معنى الانقلاب للشعب الخزري فقد حدده الملك يوسف رئيس الجماعة اليهودية في إيتيل

١- إن افتراض م. إ. ارتامونوف عن انتماء عوباديا إلى الأشراف الخزريين الذين يدينون باليهودية يقعِ في تناقض مع جميع الحقائق التي ساقها هو بنفسه.

بكتابته «منذ ذلك اليوم كما خطا أسلافنا تحت حجاب سيكينة (بوجود الله)[1] (الأرجح أن المؤلف أخذ بغير المقصود فالمقصود هو عمود السحاب الذي حجب بني إسرائيل عن أعين المصريين كما ورد في سفر خروج ١٤: ١٩-٢٠ الصفحة ٩٢ - المترجم) وأخضع لنا جميع أعدائنا وأسقط جميع الشعوب والقبائل العائشة من حولنا بحيث ما من أحد صمد أمامنا حتى يومنا هذا (نحو ٩٦٠ ل. غ) وجميعهم يخدموننا ويدفعون الإتاوة لنا» أجل كان الأمر موفقاً.

والآن نتحول لدقيقة من الوقت عن وصف مجرى التاريخ ونحاول فهم فحواه. إن انقلاب عوباديا هو قطعاً ظاهرة غير عادية، وعلاوة على ذلك استثنائية وهو لا يدخل في السنة المألوفة للإثنوجينيز ولا للتركي ولا لليهودي فالإثنوس التركي - الخزري كان في نهاية طور جمود الإثنوس الهوني - السيانبيتسي المتفوق المستوعب في ذاته الاوغوريين والخيونيتيين والدينيليينيين والكومانيين وأنتج سلوكاً وعقيدة مقولبين وهذا يعني حضارة، واليهود كانوا حديثي النشوء فهم تجاوزوا للتو طور الأزمة النفسية وانشقاق «المجال» الإثنوسي والذين سيكونون في المستقبل القريب أترابا للبيزنطيين والسلاف - الروس واختلف اليهود بأنهم تأقلموا لا مع البيئة الجغرافية فحسب وإنما مع البيئة الإنسانية - المدن من تشان آن (في الصين) حتى تولوز (في فرنسا) وطرق القوافل وتشوه الارتباط الحتمي المتبادل بين البيئة والإثنوس قليلاً قليلاً وبدا ذلك كافياً لكي يتحول النظام الإثنوسي إلى الصارم وبصورة أدق شبه الصارم وهذا دل على أن الإثنوس قد تحول إلى طبقة اجتماعية لولاها لكان انقلاب عوباديا والازدهار التالي لليهودية - الخزرية مستحيلين.

إلا أن الأنظمة الصارمة تستثنى من التطور التلقائي الطبيعي وتنمو فعاليتها على حساب اللقاءات الدائمة مع المحيط وهي أكبر حتى مما عند الإثنوسات الطبيعية. ولكن مثل هذه الأنظمة ليس لها «عمر» وكذلك ظهورها بين الإثنوسات الطبيعية (الحقيقية) النشوء، يشوّه أو بصورة أدق يحرِّف السير الطبيعي لإثنوجينيز المنطقة وهذا يعني يشكل «منعرجات» غير مستدركة لا للطبيعة ولا للعلم ويخلق مشكلات تستحق غاية الاهتمام.

ويجب عدم الافتراض أن خلق الوهم - هو ظاهرة استثنائية وأن اليهود هنا مثلوا دوراً فريداً. كلا فإن نتائج مشابهة تظهر في كل مكان حيث تنشأ ارتباطات غير محدودة على مستوى الإثنوس المتفوق، وهكذا فقد سكن أحفاد خلفاء الإسكندر ومن ولد بعدهم (أي أبناء الأحفاد) في مدن باكتريا وسورية أما ورثة أبطال طوران - البارثيين فصاروا الطبقة الحاكمة في إيران الممزقة.

١- يعود التأويل الفلسفي للمصطلح إلى فيلوث الإسكندري فـ سيكينة أو سيدة قدس الأقداس في التلمود تماثل الإلهة مرتدية لباساً أسود تسير في الأرض نادبة معبد أورشليم ومتحسرة على أبنائها المشتتين وسط الشعوب وعلى الأرجح أخذ يوسف بالحسبان المعنى المثيولوجي لكلمة «سيكينة» أكثر من المعنى الفلسفي.

والسلالات المقدونية - البطالسة والسلوقيون والشاهات البارثيون - الارشاقيون فقد بقوا خلال ثلاثة قرون غرباء بالنسبة لرعاياهم. وعمت الكراهية للمقدونيين بعد ذلك إلى الرومان ولهذا السبب كان سكان سورية ومصر حتى حدوث الانفجار الباسيوناري في القرنين الأول والثاني الميلاديين وهم عرقي، وبالإمكان إيراد بعض الأمثلة الساطعة للغاية ولكن لا يوجد وقت فعلينا أن نعود إلى أسافل الفولغا.

التنكيل

لم ينْوِ أحد من سكان خازاريا التحول إلى اليهودية فقد أبقى حكماء صهيون وصايا يهوه للشعب المختار الذي حاز على كل الخيرات المجمعة المرتبطة بالوظائف القيادية.

والانقلاب صارت ضحيته الارستقراطية القبلية لجميع الإثنوسات الداخلة في الخاقانية الخزرية المتوائمة مع السلالة الملكية التيوركية وأدى ذلك إلى الحرب الأهلية حيث قام المجر إلى جانب الثوار والبتشينيغ المستأجرين بالمال إلى جانب - اليهود، والمعلومات عن هذه الحرب بين الشعب والسلطة يتضمنها كتاب قسطنطين باغريانو رودني «عندما حدث عندهم انفصال عن سلطتهم ونشبت الحرب الداخلية وتغلبت السلطة الأولى وقتل بعض منهم (الثائرين) والآخرون فروا واستوطنوا مع التركمان (هنا الهنغاريين. ل. غ) في أرض البتشينيغ الحالية (في أسافل الدنيبر ل. غ) وعقدوا صداقات متبادلة ونالوا اسم كاباروف».

وكانت هذه الحرب لا هوادة فيها لأنه وفقاً للتلمود البابلي «غير اليهودي الذي يعمل الشر لليهودي فكأنما يعمله لسيده نفسه، مرتكباً بهذا الشكل إهانة لصاحب الجلالة تستحق الموت» (من تأويل «السنهدرين»[1] دون الإشارة إلى الصفحة والعمود).

كانت الحرب الشاملة بالنسبة للقرون الوسطى الباكرة بدعة غير مألوفة تفترض تحطيم مقاومة العدو وفرض المنتصر للإتاوات والواجبات والمشاركة في الخدمة العسكرية بالوحدات المساعدة ولكن الإبادة الشاملة لجميع البشر الموجودين في تلك الجهة من الجبهة كانت صدى للماضي البعيد مثلاً عندما استولى يشوع بن نون على بلاد كنعان حَرَّم أسر النساء والأطفال والإبقاء على

١- السنهدرين: صيغة عبرية للكلمة اليونانية «سندريون» وتعني «مجلس»، وقد كان هذا الاسم يُطلق على الهيئة القضائية العليا المختصة بالنظر في القضايا السياسية والجنائية والدينية المهمة في المناطق التي كان يعيش فيها اليهود في فلسطين. وكان السنهدرين بمنزلة المحكمة (بيت دين).

حياتهم بالذات حتى قضى بإبادة الحيوانات الداجنة التي كانت ملكاً للعدو وبعث عوباديا الماضي المنسي.

وبعد هذه الحرب التي لم تخضع بدايتها ونهايتها للتأريخ الدقيق، غيرت خازاريا هيئتها فتحولت من وحدة كلية منظمة إلى تجميع غير عادي من جموع من الأتباع مع طبقة حاكمة غريبة عن الشعب بالدم والثقافة والتقاليد، وهذا الوضع الذي تشكل لا أساس لتسميته بالنظام الإقطاعي. ولكن هل يمكن أن ينتهي الوهم الإثنوسي الاجتماعي إلى أي تكوين؟ وماذا خطب عوباديا كممثل للسلطة الخزرية قطعاً لم يتحدث عما إذا أقلقه مصير الشعب والدولة فهو ببساطة استخدم القانون للتضليل ولكن خلافاً لِما يفرضه دينه الذي كان مخلصاً بالنسبة له واليهود على ما يبدو أيدوا الشرعية للغاية، وسميت سلطتهم «الأولى» وبالتالي تعتبر شرعية كما هي الحال مع مزدك وعلى كل حقق النظام الجديد في السنوات العشر الأولى من القرن الرابع نصراً تاماً بخسارة مناطق غير كبيرة خاضعة لخاقانيات وثنية.

فـ غوتيا القرم - بلاد أرثوذكسية - انفصلت عن خازاريا واتحدت مع بيزنطة وعانى بشدة المسلمون الخزريون الذين لم يستطع خليفة بغداد بعد أن يقدم لهم المساعدة وذلك لأن قواه كانت مقيدة بثورة بابك الخرمي، والخرميون هم آخر المزدكيين. وتخلى يهود خازاريا عن حلفائهم القدامى في وقت المصيبة ولكن بفضل ذلك أقاموا اتصالاً دبلوماسياً مع خلافة بغداد مما أمن لهم أرباحاً تجارية هائلة عند شواطئ بحر قزوين.

إن الكلمة الحاسمة في تلك الحرب التي لا هوادة فيها كان يجب أن ينطق بها سكان وديان التيريك والدون ودلتا الفولغا الخزريين الأصليين ولكنهم صمتوا، فخمول الإثنوس المستمر حكم بالموت على بكواته وترخاناته وتيبيراته (ألقاب ومراتب اجتماعية خزرية - المترجم)، وبخسارة - حلفائه - المجر الذين هربوا إلى وراء الدنيير في بلاد ليفيديا وهناك بجوار الخاقانيات الأخرى الوثنية والقوية حصل الهاربون على بعض الأمان ومقابل ذلك بنى اليهود في عام ٨٣٤م قلعة ساركيل للحماية من الأعداء الغربيين الذين لم يكونوا فقط المجر السهبيين وإنما الخاقانية الروسية في كييف أيضاً. وتكونت حامية القلعة من البتشينيغ أو الغُزّ ربما.

إن سلبية الخزر أنقذتهم من الإعدامات ولكنها أثرت بشدة في مصير أبنائهم وأحفادهم. حيث قاد خانات آشين في السياسة المصالح الخارجية والداخلية لرعاياهم أما الملوك اليهود فلم يضعوا لأنفسهم مثل تلك الأهداف، فهم سحقوا أعداء اليهودية الداخليين إنما ليس الخزريين. وأزالوا التنظيم الكنسي للمسيحيين الخزريين ومنعوا إعادة بنائه وفي عام ٨٥٤م أجبر الخزر - المسلمين على الهجرة إلى ما وراء القفقاس.

وكانت زيادة أعداد الأتباع من دافعي الإتاوة لصالح القيادة الجديدة لأنه في النصف الثاني من القرن التاسع صار الدنيبر هو الحد الغربي لخازاريا وصارت قبائل - السيفيريان والبياتشيين والراديميتشيين - السلافية من دافعي الإتاوة للخزريين وعلى ما يبدو أن التفيريين والأوليتشين الساكنين في أسافل أنهار البوغ والدينستر حتى مصب الدانوب كانوا حلفاء الملك الخزري في الحروب التي لم تنقطع مع المجر ويتبين هذا من حوليات أوليغ الذي أخضع له السيفيريان والراديمتشيين من دون حرب في الأعوام ٨٨٤ و ٨٨٥م «وتحارب مع الأوليتشيين والتفيريين» وبما أن ذلك كان على هذا النحو فالحلفاء الطبيعيون للأوليتشيين كانوا الخزريين باعتبارهم أعداء للأمراء الكييفيين، ولكن البوليان خلافاً لذلك بشهادة مسجل الحوادث التاريخية الصريحة لم يدفعوا الإتاوة للملك الخزري في القرن التاسع وفي كييف تربع الخاقانات الروس دير وأسكولد الأحفاد المباشرون لـ كيْ الذين لم يهربوا أبداً من الملك روريك. وفي هذه الحالة كما في معظم الحالات الأخرى تؤخذ معطيات التحليل التاريخي للمعلومات المفصلة من المصادر الموثوق بها.

وهم عند الفولغا

إذا كان يمكن تسمية خازاريا في القرن الثامن إثنوساً فإنها تحولت في القرنين التاسع والعاشر إلى وهم اجتماعي سياسي، فالمسيحيون لم يشاركوا في الحرب الأهلية وتجنبوا التنكيل واستمروا بالإفادة من حماية أبناء دينهم من خلف البحار. ولكن الوثنيين الأصليين لم يتكلوا على أحد، وهم في الحقيقة استطاعوا القيام بحملات تحت رايات غريبة ولكن حكامهم الجدد لم يكونوا بحاجة لمساعدتهم.

واستأجر اليهود القوة القتالية واستخدموا في بادئ الأمر البتشينيغ ضد المجر ولكن في النصف الثاني من القرن التاسع تخاصموا معهم وتحالفوا مع الغُزّ ونحو عام ٨٨٩م نحى الغُزّ البتشينيغ وهؤلاء ارتحلوا إلى ضفاف الدنيبر حيث تابعوا الحرب مع المجر دون أن ينسوا الخزر وفي عام ٩٥١م ظهر البتشينيغ أولاً على حدود روسيا ولكن سيدور الحديث عن هذا فيما بعد.

ولم يبق الغُزّ طويلاً أيضاً في صداقة مع اليهود الخزر وهؤلاء اضطروا للبحث عن مصدر قوى حربية عادي ووجدوه على الشاطئ الجنوبي - الشرقي لقزوين واستؤجر مسلمو تلك المنطقة بطيب خاطر للخدمة في خازاريا مشترطين فقط أنهم لا ينخرطون للقتال ضد المسلمين. وتكوّن فيلق الحرس الدائم المأجور

في إيتيل من ٧ آلاف محارب وكان ذلك كافياً للمحافظة على الطاعة سواء على أطراف الخاقانية أو الشعب الأصلي وحتى للحروب الخارجية على مستوى صغير، ولم تقم خازاريا اليهودية في القرن التاسع بحروب عدوانية في ما وراء القفقاس. ولكن بغض النظر عن أن نظام القيادة الموصوف هنا قد كلف غالياً أغلى بكثير من التركي ومن أجل الكل اضطر الخزر أنفسهم للدفاع متحولين في بلادهم الأصلية إلى أتباع مهضومي الحقوق وخاضعين للسلطة الغريبة عنهم إثنوسياً وغريبة بالدين والواجبات.

ولو كان بالإمكان الرد بأن الميزانية الخزرية غير معروفة، وهي بالفعل كذلك فإن ميزانية الخلافة البغدادية معروفة حيث أنفقت في عام ٨٦٩م على الأجور السنوية والتعيينات لـ ٧٠ ألف مرتزق وبربري مليوني دينار ذهبي، ومثل هذا كانت كلفة الحروب في القرن التاسع وخازاريا كانت أصغر وأفقر من الخلافة ومقابل دفع الرواتب العالية للمحاربين عرضت القيادة الخزرية عليهم شروطاً مبتكرة: يحرم على القوات تكبد الهزيمة، وعدم تنفيذ المهمة القتالية، وهذا يعني الهروب من العدو، يعاقب عليه بالموت، يستثنى من ذلك فقط القائد ومعاونه اللذين لم يكونا مرتزقين وإنما يهوديان ومقابل ذلك تخضع ممتلكاتهم للمصادرة وأولادهم ونساؤهم يوهبون على مرأى من الملك إلى مقربيهم، وفي حالة عدم وجود أسباب مخففة عندهم يُعدمون أيضاً.

ومن الواضح أن المحاربين وبخاصة العساكر على الأغلب هم المذنبون في العمليات الفاشلة ولذلك حُرموا من إمكانية إثبات براءتهم - ظلماً ولكن لو اقتربنا من المسألة بطريقة أخرى لظهر المنطق الصارم: المحاربون ليسوا من ذويهم، وهم يدفعون، ومقابل هذه الأموال يصبحون مالكين لحياتهم، وبالتالي يمكن للملك أن يتصرف بالحياة التي تم التعاقد عليها مسبقاً كشيء مشترى وبما أن العرض تجاوز الطلب فعلياً كان «المشترى» قد استُغِلّ حتى النهاية مع فائدته القصوى وهذا يعني أن المرتزقة المسلمين اعتبروا لا كبشر وبالضبط لا كأشخاص وإنما فقط كرأسمال مستثمر عليه أن يعود بالفائدة، ومن وجهة نظر الرحل الأوراسيين السلاف والبيزنطيين والعرب وحتى الألمان كانت مثل هذه المعاملة غير مسموح بها حتى للخيول القتالية وكلاب الصيد. غير أن الصيادين وجَدوا ربحاً وازداد الجيش «الخزري» أحياناً حتى ١٢ ألف فارس، وبالطبع حصلت سلطة خازاريا على الأموال للدفع للمحاربين ليس من الراهدونيت المسافرين من الصين إلى أسبانيا ومن إيران إلى بيرم العظمى وذلك لأن التجار عند زيادة الرسوم سيبدلون طريق القوافل. وبالتالي المصاريف تغطى بالإتاوات. يعني أن الخزر سددوا لمستعبديهم وبخاصة لأن تجارة المرور (الترانزيت) كانت معنى الحياة للجماعة اليهودية في خازاريا ووفقاً لهذا المبدأ لاقى التجار المسلمون والجغرافيون المرافقون لهم معاملة لطيفة استثنائية في إيتيل، ونشأ حكم (رأي) من طرف واحد مُصاغ في عمل الشباب (الكتاب الذي ألف في فترة الشباب - المترجم) لـ - ف.

ف. غريغورييفا «كان الشعب الخزري ظاهرة فريدة في القرون الوسطى محاطاً بقبائل متوحشة مترحلة، كان متفوقاً على كل البلاد المتحضرة: إدارة منظمة، تجارة واسعة مزدهرة وقوات دائمة، لمّا نازع كل من الفوضى والتعصب والجهل العميق بعضهم بعضاً للسيطرة على أوروبا الغربية، اشتهرت الدولة الخزرية بالعدل والتسامح الديني، وجرت الاضطهادات الدينية خارجاً من كل جانب، وكمثال ساطع تألقت على الأفق المظلم لأوروبا وانطفأت دون أن تترك أيّ آثار تدل على وجودها».

وبالفعل أدهشت مدينة إيتيل المتوضعة على ضفتي نهر الآختوب الرحالة بأبعادها حيث امتدت من ٨-١٠كم على طول الضفة اليسرى وعلى جزيرة خضراء في حوض النهر حيث أقيم قصر الملك، وقدّر عدد سكان المدينة اليهود بأربعة آلاف رجل وعلاوة على ذلك كان هناك الخزر الذين يدينون باليهودية ومن الواضح أنهم الأبناء من الزيجات المختلطة والخزر الآخرين كانوا مسيحيين ومسلمين أو من الذين دانوا بدين الآباء.

المعابد اليهودية (الكُنُسْ) والمساجد والكنائس، والأسواق الهائلة والخراف السمينة الرخيصة والأنواع المختلفة من السمك وأجناس البطيخ الجميلة والأولاد من كلا الجنسين الذين يباعون عبيداً، والسفن المنطلقة في الفولغا والقوافل القادمة إلى المدينة من الشرق والغرب - كل هذا ترك انطباعاً قوياً عند الشهود وأثْرَتْ أوصافهم للغاية مؤرخي القرن التاسع عشر الميلادي.

ومع ذلك يخبر الاسخريوطي وابن حوقل «الخزر لا ينتجون أي شيء ولا يصدرون أي شيء ما عدا صمغ السمك (الغراء - المترجم)» ولكن مثل هذه التجارة حملت القليل من الدخل للشعب من جراء الانخفاض العجيب لأسعار السمك، كما عُوِّض عن عمل صيادي الأسماك الخزريين الشاق بالحد الأدنى.

كان تسامح الخاقانية الخزرية الديني اضطرارياً، لأن هذا التسامح ضمن لهم الأرباح من تجارة المرور. لكن ما إن يهدد أحد ما مصالح المجتمعات اليهودية من الخارج، فإن الملك (وليس الخاقان) يرد على ذلك بالعقاب والاضطهاد. ففي عام ٩٢٢-٩٢٣م قام المسلمون بتخريب الكنيس في مدينة دار البابونج[1]، ومقابل ذلك أمر الملك الخزري بتخريب مئذنة مسجد إيتيل وإعدام المؤذنين الأبرياء من أي ذنب، معلناً: «لولا خشيتي من ألا يبقى في بلاد الإسلام كنيس واحد قائم، لكنت هدمت كامل المسجد بالتأكيد».

١- مكان هذه المدينة غير محدد.

ولكن التجار المسلمين اشتروا منه العبيد - الفتيان البتشينيغ والسلاف ودفعوا له الرسوم ودفعوا أكثر من اللازم لقاء المؤن في البازارات، وعملوا سماسرة عند استئجار الفرسان الأشداء والرماة المدربين جيداً، ولذلك كان السلام مع المسلمين أكثر ربحاً من الحرب، بالنسبة للملك.

ومن بين أوصاف المعاصرين المتحمسة بشدة للأنظمة الخزرية هناك شهادات أخرى تجعل الهمة تفتر على نحو يثير الدهشة والإعجاب. فالخزريون يخرجون في نيسان إلى حقولهم ومزارعهم وينقلون محاصيلهم في الخريف إلى إيتيل لدفع الضرائب من أجل نفقات الكاهن وبالتالي لمقربيه ومن أجلهم أيضاً اصطادوا السمك الأحمر من الفولغا وأمنوا «لحم الخراف السمينة اللذيذ ولحم الدجاج» وكان عليهم أن يخرّوا ساجدين أمام قادة الخزر والمؤسف أكثر أن أبناء الخزر - عبدة الأصنام بيعوا عبيداً في أسواق النخاسة في بلاد الإسلام، زِدْ على ذلك أن لا اليهود ولا المسيحيون باعوا أبناء دينهم عبيداً. وعلى ما يبدو أن السكان المحليين الخزريين محرومون حتى من ذلك التنظيم الذي يعطى للجماعة الدينية فقد كانوا غير محميين كلياً أمام جباة الضرائب القساة الغرباء عنهم بالدم والثقافة والتقاليد.

وهكذا حصلوا على الأموال لرواتب المحاربين الخوارزميين والجرجانيين الذين أبقوا بالتبعية أولئك الذين أطعموهم، وعاشوا في إيتيل المضيافة سوياً مع النساء والأطفال.

وعلاوة على الحرس الإسلامي الذي يحرس الخاقان بصورة اسمية كان عند الملك - اليهودي ٤ آلاف رجل في حاشيته وكان عند هؤلاء أيضاً النساء والأطفال الذين لم يصطادوا السمك ولم يعملوا في الحقول تحت أشعة الشمس المتوهجة صيفاً.

ويعتبر ب. ن. زاخودير أن «السكان الخزريين المستغلين كانوا في وضع أصعب بكثير من الفلاحين في الشرق المسلم» زد على ذلك أن الفلاحين المسلمين الذين ثاروا مراراً ماتوا من عسف المأمورين، أما في خازاريا فلم يكن هناك تمرد واحد! وقطعاً ليس لأن الخزر كانوا هكذا سعداء.

لا يجوز لوْم الخزر لأن وضعهم لم يكن فقط صعباً وإنما ميؤوس منه، لأن أي ثورة لهم ضد الحكومة التي تملك جيشاً كان مقضياً عليها. ففي مجاري وأدغال الدلتا كان من السهل الاختفاء عن الغرباء، ولكن ليس عن الأهل الذين يعرفون مواقع القرى ومزارع الأسماك، أما القادة الخزريون المحتمل وجودهم إما ماتوا بالحرب مع عوباديا وإما هربوا إلى المجريين، وكتذكار على تنكيلات الحكومة التي لا رحمة فيها ولا شفقة بالأتباع الأصليين تنتصب خرائب الحصن الخزري على الضفة اليمنى للدون عند قرية تسيميانسكوي، وهذا الحصن بحسب

رأي مكتشفه الأول قد دمر لأن صاحبه شارك في الحرب ضد تهويد خازاريا وكانت إضطهادات الحكومة الإيتيلية ضد الثوار في النصف الأول من القرن التاسع حاسمة (هنا مؤثرة - المترجم) للغاية لأن نسبة قوى الحكومة السابقة والشعب المقهور صارت واضحة لهؤلاء وأولئك.

وهذا الموقف اختفى عن الأنظار السطحية للرحالة العرب بسهولة وبخاصة لأن الأطفال من الزيجات المختلطة اليهودية - الخزرية وحتى اليهود ذاتهم صاروا يسمون أنفسهم في القرن العاشر خزراً ولهذا السبب ميز الجغرافيون العرب بين الخزر «السود» و «البيض» ولذلك كان من الضروري إدخال مصطلحين «يهودي - خزري» و «تيوركي - خزري».

وكما أسلفنا نقول إن أحفاد التيورك - الخزر (السكان الأصليون) في القرن الحادي عشر تخلوا عن تسميتهم الإثنوسية وصاروا يسمون أنفسهم في البداية باللغة السلافية برودنيكيين ثم بالتركية قوزاق. وفي ذلك الوقت بقي اسم «خزر» لأحفاد اليهود ولكن فقط حتى نهاية القرن الحادي عشر عندما اختفى الإثنوس عن مسرح التاريخ.

عادة تبقى الآثار بعد الناس إلا أنه بقي فقط من الخزر الوثنيين المدافن الفقيرة في دلتا الفولغا أما من الخزر المسيحيين والمسلمين فلم يبق شيء: يبدو هذا غريباً!

وأين الفن؟

بالفعل لماذا لم يبق شيء من الخزر بينما التلال الهونية ملأى بالتحف التيوركية والبولوفية «الفلاّحات الحجريات» اكتشفِنَ بأعداد هائلة واللوحات الجدارية الأويغورية التي تزين قاعات الأرميتاج ومتحف برلين. وحتى من الاوغور القدماء بقيت النقوش البارزة لصور المحاربين والأسرى؟[1]. والأواني الخزرية عديمة الزخرفة والقلاع التي تعود للعهد الخزري التي تم اكتشافها مبنية من دون اعتناء وصور الناس غير موجودة على الإطلاق هل هذا طبيعي - أم ببساطة كانت التنقيبات الأثرية فاشلة؟.

لا، لقد عمل علماء الآثار بإخلاص وبدقة زائدة، ولكن مواد الفنون الجميلة لم تكن في قوائم المواد في خازاريا في القرنين ٩ و ١٠م. نعم، ولا يمكن أن تكون مع أن الخزر من حيث المواهب لم يقلوا عن الجيران

١- مزهرية من كنز سنتيمكلوشي. متحف تاريخ الفن - فيينا.

السهبيين والجبليين. وبما أن صنع الآثار المدنية يمكن أن يكون فقط عند وجود صاحب الطلب (الزبون) القادر على تسديد أجور عمل الفنان والقادر على الدفع في خازاريا كان هو الحكومة ولكنها تكونت من أناس ينبذون الفنون الجميلة، لذلك لم تكن موجودة.

إن اليهود القدماء معاصري (النبي - المترجم) موسى قيموا الفنون بما لا يقل عن جيرانهم، فهم الذين سكبوا الجسم الذهبي (لآبيس) أو الحية النحاسية كرمز للإله الذي أرادوا أن يصلوا له وعاقبهم (النبي) موسى بشدة لأجل ذلك لأنه قِيلَ له على جبل سيناء «لا تصنع لنفسك آلهة مسبوكة» (سفر الخروج الإصحاح ٣٤ العدد ١٧ الصفحة ١٢١ - المترجم) وسلك أتباعه كذلك وفي النهاية نهوا اليهود عن تصوير أي شيء، ولكن الفن بقي عندهم لأن الخيمة (خيمة الاجتماع - المترجم) والهيكل من بعد كان يجب تزيينهما، ولكنه صار مجرداً غير ذي موضوع متحولاً إلى الرموز والزخرفة والهندسة، بالاختصار صار الفن اليهودي القديم النموذج الأصلي للفن التجريدي وحُبِّب الفن التجريدي حتى عند اليهود أنفسهم ببطء وصعوبة، فهم صوروا في وقت من الأوقات البعليم والعشتروث وسعوا جهدهم إلى التعبد بشكل مفهوم وجميل للإله. ولكن حتى بداية العهد الجديد كان هذا الأسلوب قد ترسخ عندهم وأزعجتهم أيّ صور أو تماثيل ولذلك لم يكن عندهم مصوروهم وإذا ظهروا فإنهم مارسوا فقط فن الخط.

إن الخزر ببساطة لم يفهموا الفن التجريدي الروحي ولم يكن عندهم لا الإمكانية ولا الرغبة للاهتمام بالمسائل التجريدية المعقدة في الموضوع المبين أعلاه، والفن الذاتي الخاص أيضاً لم يستطع إيجاد الشاري لأن الخزر كانوا فقراء ويلزم للزخرفة والزينة بعض الوفرة، وهم لم يضعوا شواهد قبرية فهم ببساطة وضعوا الموتى على قمم تلال بائيرو حيث طمرهم هناك غبار السهب، وقاموا بالعبادة في الأحراج المقدسة وليس في المعابد[1] أما أولئك الخزريون الذين اعتنقوا المسيحية أو الإسلام فكانوا مجبرين على الصلاة في تلك البيوت الفلاحية الفقيرة التي عاشوا فيها. وفي الحقيقة كان في إيتيل مسجد حجري ولكنه خصص للأجانب، ولما بنى المهندس البيزنطي بيترون كاماتير في عام ٨٣٤م قلعة ساركيل أراد أن يقيم هناك كنيسة حجرية لخزر الدون ولكن لم يسمح له بذلك

١- «إن الرئيس الأعلى بالديانة اليهودية؛ وأيْمَانهم أيضاً مثل إيشا (الملك) وكذلك القادة العسكريين والزعماء التابعين له والخزر الآخرين دانوا بدين مماثل لدين المجر».

والأعمدة الحجرية التي نقلها وتيجانها كانت ملقاة في السهب حيث وجدها م. إ. ارتامونوف في عام ١٩٣٥م.

ولكن أليس في ذلك الوقت كان من المفروض بناء الكنس حتى لو في القرى الكبيرة. نعم بالطبع! ولكن لماذا لم تبق؟ سيدرك القارئ ذلك بعد أن يقلب عدة صفحات أيضاً.

وهكذا برهن أسلوب الإحاطة الإقليمية الواسعة الذي طبقناه على قيمته وما داموا قد نقبوا فقط عن الغرض نفسه - خازاريا - كان ممكناً بناء أيّ فرضيات ليعللوا عن عدم وجود الآثار ولكن لما ظهرت بالاستعراض المتزامن حدود «البقعة البيضاء» سقطت بصورة معقولة الفرضيات عن وحشية الخزر وعن ازدهارهم بالرغم من أن النتيجة الأخيرة عُمِلَت بناء على أساس الكثير من المصادر الشرقية للمستشرق اللامع ف. ف. غريغورييف.

لقد عمل ف. ف. غريغورييف على مستوى زمانه: لقد تقصى المصادر يعني الأقوال وليس الأعمال التي لها منطقها الداخلي في التشكل حتى لم يخطر بباله لهذا السبب أن عند الخزر أنفسهم يمكن أن تكون الأفكار أكثر شمولاً من تلك التي استطاع العرب والفرس أن يخبروا عنها مشاهداتهم السطحية جداً لخازاريا وفي الحقيقة لم تبق أفكار خزرية في المصادر الكتابية لأن الخزر لم يتمكنوا من الكتابة إلا أن سلوكهم أظهره بوضوح موقفهم من «ازدواجية السلطة» السيئة الشهرة، ولكن لكي يكون هذا مفهوماً يجب تتبع لا المصادر وإنما تاريخ الأحداث في الدولة التي سميت الخاقانية الخزرية؛ في القرنين ٩-١٠م شكل الخزر الأقلية الأشد اضطهاداً بالقياس إلى الخزر الآلانيين والبورتاسيين والسافير والغُزّ القبائل الحرة تقريباً والمرتزقة الخوارزميين - الفئة المميزة وأعضاء الجماعة اليهودية - الطبقة الحاكمة بالرغم أنه كان في وسط هؤلاء الأخيرين كثير من الفقراء.

وكان الأهم بالنسبة للمسلمين «ذويهم» العرب وللمسيحيين - اليونان ولليهود يهود جميع المدن الكبيرة من كانتون إلى غرينادا (غرناطة - المترجم) ومن بغداد إلى ليون وماينس أما للخزر - فلا أحد فمن أجلهم ما من أحد رأى أنه من الضروري الدفاع عنهم، وقد شعروا بأنفسهم مطمئنين نسبياً فقط عند تلال وأجمات قصب الدلتا.

كانت إيتيل في الحقيقة مدينة رائعة بالرغم من أن قصورها كانت معمولة من الخشب واللباد والطين ولكنها مفعمة بالحرير وفراء السمور والنبيذ والخراف والسمك الأحمر (زَجَرَّ). والراقصات الجميلات والفتيان الخدومون ولكن كل هذا لم يكن للخزر وإنما للتجار الراهدونيت الذين يستريحون عند الفولغا بعد الطريق الطويل في الصحراء من الصين أو عبر جبال البروفانس. أما ذلك الخاقان الذي لا حول له ولا قوة ولا سلطة فكان من الأقارب البعيدين لخانات سلالة آشين الذين لم يتزوجوا أبداً بالحسان اليهوديات وكل هذا لم يكن له أي أهمية لأن الدولة حكمها «ألبكْ» أو بالأدق الملك، هو ومستشاروه كانوا يهوداً أصليين مالكي دولة

متعددة الطبقات، وأعضاء في أكثر المؤسسات التجارية ربحاً وهو لم يمثل خازاريا بقدر ما مثل ذويه المشتتين في العالم والإثنوس المتفوق الثري بشكل خيالي.

وكانت «السلطة المزدوجة» في خازاريا خدعة هائلة للشعب الذي أروه الخان الشرعي مرة واحدة بالسنة والذي أصبح أيضاً يهودياً لكي يعتصر في باقي الوقت رأس الجماعة اليهودية الأموال من الخزر والشعوب المجاورة من أجل المرتزقة الذين كان عليهم قمع هؤلاء الخزر والخزر دفعوا... ولم يكن هناك من مخرج.

إن المأساة الخزرية وصفناها نحن ولكن على نحو غير واضح فقد بقيت تلك الأسباب غير مفهومة (هنا واضحة - المترجم) وهي أن الجماعة اليهودية القليلة العدد والمحرومة من الأصدقاء المخلصين والمكروهة من الجيران وغير المدعومة من الأتباع قد سيطرت لمدة ١٥٠ عاماً على التجارة العالمية وترأست معظم الجماعات اليهودية المشتتة فمثل هذا الأمر لا يمكن تحقيقه من دون حلفاء ورفاق طريق مخلصين، وهذا يعني أنه عند خازاريا اليهودية كان مثل هؤلاء الحلفاء.

أصدقاء خازاريا المتجددة

ورثت حكومة عوباديا وحانوك مع العرش سوية تقليداً خطيراً من العلاقات والتفاعلات الدولية. فخانات سلالة آشين الملكية الأتراك وحليفهم بولان القرّائي لم ينظروا في المسائل الاقتصادية المعقدة فهم ببساطة دافعوا عن شعبهم من المسلمين الزاحفين من الجنوب والبتشينيغ المهاجمين من الشرق من وراء الأورال وكان الحليف الطبيعي لخازاريا في القرن الثامن هو بيزنطة المتحاربة أيضاً مع العرب وبلغار الإسباروخ الهاربين من الخزر، ولذلك لم يلقَ انتشار الأرثوذكسية بين الآلان والخزر مقاومة وفي منتصف القرن الثامن وجدت الأبرشيات الخزرية - الخوارزمية (قبل الروسية) التي كانت تابعة لسبعة كراسي أسقفية. والاتصالات الثقافية كانت نتيجة للاتحاد السياسي[1].

ومع الشرق الأقصى والغرب البعيد لم تتعزز العلاقات التركية - الخزرية فعند الحدود الصينية نشبت قبيل عام ٧٤٥م حروب دموية عنيفة بين الخاقانية التركية وإمبراطورية تان ثم ثورة آن - لو - شان في الأعوام ٧٥٦-٧٦٣م

١- يشهد ياقوت الحموي أن الخزر كانوا مسيحيين ومسلمين ووثنيين جزئياً، وقليل منهم فقط دان باليهودية، ويشير الدمشقي إلى أن المحاربين الخزريين كانوا مسلمين والمدنيون يهوداً. ولكن على ما يبدو أن كليهما أخذا بالحسبان فقط سكان العاصمة.

استنزفت الصين وعلى أثر ذلك دخلت التيبت وأويغوريا بالحرب وفي هذا الوقت لم يكن هناك أي شيء يدعو للالتفات في الشرق الأقصى.

ولم يكن الوضع في الغرب أحسن حيث انفك التئام الدولة الفرنجية الميروفنجية ومملكة لومبارديا وفي بريطانيا ذبح الإنكليز والسكسون السلتيين ولكن الوضع هناك تغير قبيل عام ٨٠٠م حيث أخضع شارل العظيم السكسون واللومبارديين وتوج نفسه إمبراطوراً. واتفقت سنوات حكمه الأخيرة مع انقلاب عوباديا وفي ذلك الوقت دخلت إمبراطوريتان ناشئتان في اتصالات صداقة تجلت بأن شارل سمح بمرسوم خاص لليهود أن يعيشوا بحسب تقاليدهم وفيما بعد دعم اليهود الاتحاد مع الكارولنجيين تماماً حتى سقوطهم في القرن العاشر.

والفاعلية الأشد في هذا الوقت أبدتها الإثنوسات الجنوبية ونسف تعاظم عاطفية أحفاد الفاتحين العرب الخلافة العباسية من الداخل ولكن شظاياها بدت للجيران أكثر رعباً من النظام الاجتماعي - السياسي - الأهور مزدي المركزي وبالنسبة لبرابرة وطوارق إفريقيا وأتراك آسيا الوسطى وجبليي البامير والهندوكوش كفَّ الإسلام على أن يكون رمزاً للاضطهاد والنهب لأنه ظهرت إمكانية الاستفادة من التيارات الإسلامية المنفتحة كراية للصراع ضد بغداد المتزمتة.

واستولى الأفارقة المنشقون عن الخلافة على صقلية واعتدوا على إيطاليا حيث زحزحوا اللومبارديين وحطموا قوات فرنجة لودفيغ الثاني وفي سنة ٨٤٠م دخل الأسطول الإفريقي في مصب نهر التيبر وكاد أن يستولي على روما وفي السنة نفسها استولى الفرس - السامانيون على إسفيجاب (سايرام الحالية بالقرب من تشيمكنت) أما خليفة بغداد فقد صرف الجهود والأموال لسحق ثورات أتباعه من الدين نفسه والقبيلة نفسها والحرب المتواصلة مع بيزنطة.

وكما تنبع الماغما الجوفية من شقوق الانكسارات التكتونية للقشرة الأرضية هكذا عند حدود إثنوسين متفوقين وحضارتين عظيمتين نشأت الحركات التي بدت منسية ومدفونة: الخرميون في أذربيجان والبولسيون في آسيا الصغرى. لم يكن بينهما وبين الآخرين لا اتصالات تنظيمية ولا نزعة سياسية مشتركة. بعضهم كانوا مزدكيين راسخين والآخرون حاولوا إحياء بعض المبادئ المرقصية - الغنوصية، ولكن أولئك وهؤلاء حاولوا إحياء بعض المبادئ الإيديولوجية والأهداف النهائية بعودتهم إلى تعاليم ماني القديمة بتقسيم العالم إلى أسود وأبيض والطموح عن طريق تنفيذ الإعدامات الدموية إلى تحقيق انتصار البداية المنيرة كما اعتبروها.

فكيف كان يجب أن ترد الحكومة الخزرية على ذلك؟ فالخرميون كانوا أحفاد المزدكيين حلفاء اليهود والخزر في الأعوام ٤٩٤-٥٢٦م والعرب مضطهدي اليهود (برأي المؤلف - المترجم) في عام ٦٩٠م واليونان أجبروا اليهود على الارتداد عن الدين في عام ٧٢٣م وعلى ما يبدو حان وقت الحساب

ولكن حكومة عوباديا وحانوك فّضلت التجارة مع بغداد ومساعدة المهندسين البيزنطيين لبناء قلعة ساركيل وفاء للتقاليد التاريخية والصداقة الغابرة التي لم يتخلَّ عنها التيورك - الخزر أبداً والآن تبدل نظام القيم: الربح صار محل الوفاء والمروءة وأحسن حالة ملائمة لليهود كانت حرب اليونان ضد أعدائهم البلغار والعرب.

ونجح ثيوفيل باستعادة مدينة سميساط في عام ٨٣٧م ولكن الخليفة المعتصم حطم الجيش البيزنطي عند دازيمون واستولي على عمورية أكبر مدن الإمبراطورية بعد القسطنطينية (في مركز الأناضول) وجرت الحرب بضراوة لا يمكن تصديقها زد على ذلك أن الخرميين كانوا حلفاء اليونان والبولسيين[1] ساعدوا العرب وهاجم بلغار الخان بيرسيان مؤخرات البيزنطيين ناهبين مقدونيا أما الخزر أعداء البلغار أبداً وأصدقاء اليونان فقد توقفوا عن العمل بينما خانات آشين لم يتخلوا عن أصدقائهم في الضرّاء أبداً.

ننتقل إلى بيزنطة. هناك انتهى الانشقاق وانتهت الأزمة النفسية في عام ٨٤٣م التي أدَّت إلى حرب الأيقونات التي كلفت بيزنطة غالياً وفي عام ٨١٣م وصل خان البلغار كروم إلى أسوار القسطنطينية واستولى قراصنة أسبانيا العرب - البربر على كريت وجعلوا من هذه الجزيرة قاعدة للإغارات على جزر وشواطئ بحر إيجة، وفي عام ٨٢٧م اقتحم بربر الأطلس (جبال الأطلس بالجزائر - المترجم) جزيرة صقلية ثم نقلوا عدوانهم إلى جنوب إيطاليا واكتسح البلغار مقدونيا، أما في القسطنطينية فاشتغل الإمبراطور في تدمير الإيقونات وتعقب الرهبان ولكن كل هذا انتهى في عام ٨٤٣م وبدأت المخاوف تخمد.

إن انخفاض التوتر النفسي الباسيوناري سار لصالح بيزنطة وإحلال السلام بين السلطة الدنيوية والكنسية أعطى إمكانية توجيه قوى النظام الهائلة في مجرى محدد، وأدخل القديس كيريل في عام ٨٦٠ مجموعات من الخزر إلى

١- لو تحدثنا عن العقيدة الدينية للبولسيين للفتنا النظر إلى تمايزهم عن المغاويين، وتشابههم مع الغنوصيين القدامى، والموقف السلبي للغاية من المزدكية واليهودية. لكن التفصيلات اللاهوتية التي شغلت أذهان اللاهوتيين كانت غريبة وغير مفهومة بالنسبة لعامة الناس، والذين كانت مهمتهم خوض الحرب ضد بيزنطة. لقد كان كافياً بالنسبة للأرثوذكسية الرومية أن تقدم - من أجل المواجهة - اعترافها بعدم ألوهية المادة، وبأنها نتاج الشر الأبدي. قاربت هذه القضية البولسيين مع المغاويين والتطهيريين، لكن نشوء العقيدة من تأويل مرقص الضائع وضع بصماته الخفية على إيديولوجيتهم. لا يمكن اعتبار البولسيين والمغاويين مسيحيون، على الرغم من أنهم لم ينكروا الإنجيل. لقد اعتبر البولسيون الصليب رمز اللعنة لأن المسيح صلب عليه، ولم يتبنوا الأيقونات والطقوس الدينية المسيحية، ولم يعترفوا بالتعميد السري وبالقرابين، واعتبروا كل ما هو مادي من صنع الشر. كافح الذين تبعوا البولسيين ضد الكنيسة وسيطرتها، وعملوا ببيع الأسرى الفتيان والبنات للعرب. ووجِد في صفوف البولسيين الكثير من رجال الدين المجردين، وكذلك المحاربين المحترفين الذين قادوا مفارزهم المتكاتفة المنضبطة، ولم يستطع حتى القادة الروحيون منع تلك المذاهب من القيام بالأعمال الوحشية وارتكاب الفظائع، ولا يستحق مرقص اللوم على تلك الاغتيالات والمجازر، وهو الذي كان فقيهاً في علم اللاهوت، وأظهر الاختلاف بين العهدين الجديد والقديم.

الأرثوذكسية وفي عام ٨٦٤م أدخل هو وأخوه ميتودي مورافيا إلى الأرثوذكسية وفي عام ٨٦٤-٨٦٥م اعتمد الملك البلغاري بوريس وفي النهاية انتهت الحرب الطويلة القاسية مع البولسيين في عام ٨٧٢م بانتصار البيزنطيين ولكن من أجل كل شيء يجب الدفع حتى من أجل إنقاذ الوطن الأصلي وكان الثمن عظيماً جداً.

حتى منتصف القرن التاسع كانت بيزنطة مركز الثقافة المسيحية المتعارف عليه وهذا الإقرار لم يعن السيادة السياسية على دول الغرب والشرق المسيحية الأخرى ولكنه أعطى الثقة بأنهم من ذويهم (هنا تعني من أهلهم - المترجم) وفي حال الخطر عليهم المساعدة ضد الآخرين ولو سلمنا أن تلك الواجبات لم تنفذ دوماً ولكنها على كل حال لها أهمية وبخاصة لتلك المناطق في جنوب إيطاليا حيث اقتحم المحاربون البربر الأفارقة الذين اشتغلوا بتجارة العبيد والنهب.

وحتى في سنوات حرب الأيقونات القاسية شارك باباوات روما في الأمور البيزنطية داعمين على قدر القوى المدافعين عن الأيقونات، والاستقلال الحقيقي المهدد لعرش الكارولنجيين الروماني لم يعق وحدة التفوق الإثنوسي: فاليونان كانوا في بيتهم في روما وباريس والفرنجة كذلك في تسالونيكي وأفسس، واللاهوتية هناك وهنا كانت واحدة شبه بيلاجية يعني أرثوذكسية. ولكن في عام ٨٥٨م صار فوتيوس البطريرك القسطنطيني الذي لم يعترف بالبابا نيقولاي (نيقولاوس) الأول. وتبع الجدال حرم فوتيوس في عام ٨٦٣م غير المعترف به في الشرق. وفي عام ٨٦٧م ألقى مجمع القسطنطينية الحرم على البابا معلناً أن تدخله في أمور الكنيسة الشرقية غير شرعي وهكذا بدأ انشقاق الكنيسة.

يجب عدم الافتراض بأن تشبث فوتيوس ونيقولاوس أو الجدل حول الانبثاق من الآب وإضافة «الابن» (فيليوليفي - Filioque) أو ادعاء البابا بأحقيته في إيلليريا وصقلية (أي دخولهما في دائرة اختصاصه) كانت السبب في الانشقاق وجميع هذه الأمور الصغيرة قد تمت تسويتها بسرعة ولكن مغتصب السلطة فاسيلي الأول المقدوني عزل فوتيوس، والبابا العنيد نيقولاوس الأول مات في السنة ٨٦٧م نفسها وأجل الجدل اللاهوتي إلى حين غير محدد، وصقلية استولى عليها البرابرة وأيلليريا، المجريون ولم تغيّر مهادنة الكنيسة البيزنطية الرسمية مع العرش البابوي نحو عام ٩٠٠م شيئاً.

وكان الانشقاق الكنسي مهما ليس فقط بحد ذاته. لقد تحول إلى رمز لانفصال الغرب عن الشرق الأرثوذكسي لأن ثورة الإثنوجينيز حدثت في القرن التاسع فالفرنجة واللاتين صاروا غرباء بالنسبة لليونان. لقد مضوا بطريق تطور مبتكر جديد. فالعروق التي نشأت خلال المئة عام هذه على شواطئ بحر الشمال وخليج بسقونيا (بسكاي) كشفت عن أنماط لم يسبق لها مثيل في الحياة الاجتماعية وفهم الطبيعة والتاريخ وفضلوها على السابقة لا لأنها أفضل ولكن لأنها كانت

منهم وفيهم. إن قوة استمرار الحضارة المسيحية الشاملة خلبت قلوب المعاصرين الذين تعاموا عن رؤية الواقع الكئيب.

وهكذا تحولت بيزنطة من إمبراطورية لها إدعاءاتها بالدور القيادي في تراث روما إلى مملكة غير كبيرة في آسيا الصغرى، وصار الإمبراطور أرمنياً أشرك في الخدمة مواطنيه. وبما أن الأرمن ألفوا الدفاع ببطولة عن الحرية والدين، صار اليهود خصوماً لبيزنطة.

والآن صار من الممكن تعميم الملاحظة وهي أن خازاريا اليهودية كانت على صداقة مع جميع الأنظمة الإمبراطورية: إمبراطورية تان المتأخرة، (في الوقت وليس المتخلفة - المترجم) والكارولنجيون وخلفاؤهم - السكسون في ألمانيا، والعباسيون في بغداد، وبعداوة مع جميع أقوام القرون الوسطى: الأرمن والجيورجيون والخلافات الشيعية لأنهم مثلوا مصالح القبائل العدوانية البتشينيغ والتورفان والأوغور والسلاف وهذا يعني الخاقانية الكييفية.

وهذا ليس بالمصادفة. فالقرابة الاجتماعية للأنظمة الاستبدادية التي تواجه تطور تاريخ العمليات لتشكيل التنوع الإثنوسي لها مكان، وصراع هذين المبدأين كان قائداً للتناقضات المتنازعة في القرون ٨ و ٩ و ١٠م وهنا ساعد الحظ اليهود - الخزر ثانية ودخل في اللعبة شريك جديد - الفارياغ المستأجرون بالمقاولة من الفايكنج الإسكندنافيين.

الخاقانيات الأربع

ظهر في بداية القرن التاسع على شواطئ بحر الشمال قراصنة مرعبون من إسكندنافيا - الفايكنج. وفي داخل أوروبا الغربية بدأت تتميز شعوب جديدة، ففي استوريا حدثت أول محاولة فاشلة لإعادة إخضاع - وهي العودة لاحتلال شبه جزيرة البيرينيه. فإذا ربطت تلك الأقاليم مع الظهور المتزامن لنشوء الفعالية التخيلية الخطية (أو المناطقية أفضل) فنحصل على محور الدفعة العاطفية الجديدة التي ظهرت على الوجه الأكمل خلال القرن التاسع.

ووصف لودفيج الألماني حالة أوروبا الشرقية في هذا القرن في كتابه إلى باسيليوس المقدوني (٨٦٧-٨٨٦م) في عام ٨٧١م كأربع خاقانيات[١] موجودة: الآفارية[٢] والنورماندية (يعني الروسية) والخزرية والبلغارية (على الدانوب لأن لودفيغ ما عرف البلغارية الكامسكية العظيمة). هذه الخاقانيات كالإمبراطوريات الثلاث (بما فيها الخلافة) كانت مواريث دفعات باسيونارية سابقة كان عليها أن تصمد لاشتعال إثنوجينيز جديد، لأنه قبل أن ننتقل للحديث عن المأساة الأساسية للعهد الناشب (المتشكل). لننظر في وجوه أشخاص مسرحيتها ونقدر إمكاناتهم ونزعاتهم.

كانت أهمية الخاقانية الآفارية المنهوبة من الفرنجة والمقيدة بالسلافيين في الحد الأدنى ولكنها على أي حال كانت حاجزاً أوقف عدوان الإقطاعيين الألمان عند حد الدانوب الأوسط.

وكان وضع الخاقانية البلغارية أحسن بكثير لأن خانات البلغار الأوائل أسبارخ وكْروم لم يوتروا العلاقات مع أتباعهم السلافيين بل على العكس اتحدوا معهم ضد اليونان، وانجر البلغار تدريجياً إلى السياسة الأوروبية. فمرة دعموا الموارفيين السلاف ضد الألمان في عام ٨٦٣م ومرة أرسلوا قوات مساعدة للودفيج الأماني ضد الإقطاعيين في عام ٨٦٣م وأعاق الأمير البلغاري بوريس فقط دينهُ الوثني ولكنه بدله بالأرثوذكسية في عام ٨٦٤م وهذا جعل بلغاريا عدوة

١- خاقان (بالتيوركية) ملك ذو سيادة. حرفياً «عظيم».

٢- أخذ لودفيغ بالحسبان بقايا إثنوس الآفار الأصليين (الأوبريون) الناجين بعد الهزيمة التي أنزلها بهم الفرنجة في عام ٧٩٥م وهؤلاء الآفار استمروا بالعيش في بانونيا تحت سلطة الخاقان الأصلي حتى منتصف القرن التاسع.

للبابوية والمملكة الألمانية. ولكن الاتحاد مع الإمبراطورية البيزنطية سرعان ما نقض وبدأ سيمون وريث بوريس الحرب في عام ٨٩٤م مع اليونان التي أنهكت كلا الطرفين من دون نتائج ملموسة للبلغار.

وألحق المجر المنسحبون من أمام الخزر المستأجرين للبتشينيغ أذى كبيراً بالبلغار في أسافل الدنيبر في الأعوام ٨٢٢-٨٢٦م. إلا أن البتشينيغ ظهروا حلفاء غير مريحين للخزريين نحو عام ٨٩٠م فعقدت الحكومة الخزرية الصلح مع المجر واليونان ضد البتشينيغ والبلغار، وأحرز الأخيرون النصر على الخزريين ولكنهم تكبدوا خسائر كبيرة من المجر الذين انتقلوا في عام ٨٩٣م عبر الدانوب واستولوا على الكثير من الأسرى، ورد سميون ملك البلغار على ذلك بضربة مماثلة بحيث ترك المجر بلادهم ومضوا إلى وراء الكاربات إلى أعالي نهر تيس حيث استوعبوا فيما بينهم بقايا الآفار، وكانت أسافل الدنيبر من نصيب البتشينيغ أما أسافل الدينستر فللقبائل السلافية - التفيريتسيين والاوليتشيين.

وبالنسبة لترتيب القوى السياسية المتشكل ربح الخزريون، فهم تصالحوا مع المجر موجهين طاقتهم الحربية ضد شعوب أوروبا الغربية حيث قلق آخر الكارولنجيين أقل من أي شيء آخر على سلامة فلاحيهم وإقطاعييهم وكقاعدة عامة الأنظمة الإمبراطورية المستاءة. ونجحت الحكومة الخزرية بجعل التفيريين والاوليتشيين حلفاء لها مؤمنة بذلك الطريق التجاري المهم بالذات للتجار اليهود من إيتيل إلى تولوز وفي النهاية في عام ٩١٣م سحق الخزر بمساعدة الغُزّ أولئك البتشينيغ الذين عاشوا عند الياك وإمبي متحكمين بقطاع الطريق من إيتيل إلى الصين.

وبقيت الخاقانية الروسية التي مركزها كييف هي المسألة الأخيرة غير المحلولة بالنسبة للحكومة الخزرية، وكانت الحرب مع الروس لا مفر منها. ووعد النصر الكامل بفوائد لا عد لها للمستعمرة الإيتيلية ولكن بالطبع لا للخزر المستعبدين.

والمعلوم عن نشوء وتاريخ هذه الخاقانية الرابعة الروسية القديم قليل لدرجة عظيمة والكتب التي حول الموضوع ضخمة ولكن لحسن الحظ أنجز منذ زمن قريب موجز نقدي للحقائق والملاحظات والنصوص والآراء التي غطت تاريخ المسألة وعكست وجهة النظر المعاصرة واستثنت المفاهيم الخيالية عن روسيا النورمانية.

وأدت نتيجة هذا البحث الذي استخدم فيه ٦٢٣ عملاً إلى التالي:

في بداية العصر الميلادي عند ضفاف الدنيبر الأوسط في المناطق الغابية والسهبية الغابية عاش الغينيديون - أجداد السلاف وقبيل القرن الرابع انقسموا إلى الكلافيين والآنتيين. وآنتي - التسمية اليونانية لاتحاد القبائل على الضفة اليمنى

للدنيبر ولكن هذه القبائل بحد ذاتها سميت بوليان ثم صاروا يسمونهم «روس»[1] وفي القرن التاسع استولى على السلطة في المدينة الروسية كييف الدخيل - الملك الفاريـاغي خيلكـي (الكـاف هنـا تلفظ كـالجيم المصـرية أو الفارسـية - المتـرجم) (أوليغ) الذي لا علاقة لـه بـالروس المحليين «الفاريـاغ» - إثنوسياً وإنما التسمية تحت مهنية - وهكذا سميت عصابات القراصنة المختلفة التكوين الإثنوسي في القرنين ٩ و ١٠م ومع أن الروس ليسوا سلافيين وإنما هم الساكنون القدماء للضفة اليمنى لنهر الدنيبر وانتشروا في القرون ٦-٨م إلى الضفة اليسرى حيث بنوا مدينة تشيرنوغوف وبيرياسلافل وسميت هذه المنطقة في المرحلة الإقطاعية «روسـيا» أو «الأرض الروسـية» (بـالمعنى الضـيق) خلافـاً للدولـة الروسـية (بـالمعنى الواسـع) التـي ضـمت نوفغـورود وسـوزدال وريـازان وبولوتسـك وسمولنسـك وغاليتشـين وفـولين وتموتاركـان وأسـافل الدنيسـتر والبـوغ وبعـض الأراضي غير السلافية مع السكان البلاطقة (نسبة إلى بحر البلطيق - المترجم) والفنلنديين.

وهذا التعميم المخـالف للمفـاهيم النورمانيـة يعتبـر التقريـب الأشـد للحقيقـة التاريخيـة، واتخـذناه أساسـاً للتحليـل المقبـل، وبمـا أن الاعتراضـات تثيـر بعـض الخصوصيات فهناك اثنتان يجب الإشارة إليهما:

الأولى: هي مقارنة روسومون القرن الرابع الميلادي الذين وصفهم جوردان مع الروكسـولان سـكان الـبلاد الأوائـل (الأصـليين) التقليـديين - إن اسـم العلـم «روس» والبادئة «جوخ » ليسا متماثلين فـ Rox هي الترجمة اليونانية للكلمة الفارسـية «Raush/Ravsh راوش» روعـة - سـنا... إلـخ (زوجـة الاسـكندر المقدوني - روكسانا حملت اسماً فارسياً - روشـاناك Ravshanak - «روعـة») لا تمـت بصـلة إلـى الآلانيـين الروسـومون - أسـلاف الـروس وعلـى السـواء النورمان - الفايكنج وإليك لماذا.

فسَّرَ د. س. ليخاتشيف مقطع المدونـة التاريخيـة المشـهور «وهنـا الـروس الذين يسمون أنفسهم فاريازي (فارياغ لأنهم هكذا أصدقاء للأورمـان (النورمـان يعني النرويجيين) والإنكليز (الجوتلانديون) أصـدقاء الـ غتـي (الغوث)...إلـخ»

١- «البوليان الذين سمي مكان سكنهم بالروس». يوضح المؤلف أن الروس - ظاهرة تاريخية جديدة هم أخلاف اتحاد البوليان المنحل.

بصورة رائعة. ولكن تأكيداً لاستنتاجه، إن ما أورده مسجل الحوادث التاريخية في القرن ١٢م عن الغوْث لا يستطيع أن يلمح إلى أن جزيرة جوتلاند قد كانت مأهولة في زمانه بينما هجرها الغوث من منتصف القرن الثاني الميلادي وهذا يعني ١٠٠٠ عام قبل أن يكتب هذا النص فالغوث هنا - هم غوث شبه جزيرة القرم أو البحر الأسود التتراسكيت المعروفون جيداً عند قارئ القرنين ١٢ و ١٣م المذكورون في كتاب «كلمة عن فوج إيغور» وإذا كان هكذا إذن تعني إضافة الروس إلى المجموعة الإثنوسية الراهنة له فقط مغزى (أنثوغرافي قديم). (أنثروبيولوجي وصفي قديم - المترجم) أي الروسومون وكذلك الغوث - هم شظايا استيطان الشعوب العظيم الذي استقر في شرق أوروبا وتسميتهم «فارياغ» تدل على مهنة روريك الذي يتحدر من قبائل روس منطقة الدنيبر الذين اختلطوا إلى حد ما مع السلافيين ولكنهم بقوا محافظين حتى القرن التاسع على بعض ملامح الحضارة الشمالية القديمة.

ونحو عام ٨٠٠-٨٠٩م حدث الاستيطان الثاني للسلافيين من ضفاف نهر إلبه إلى الشرق ويفترض أ. أ. شاخماتوف إن السلافيين هربوا من فرنجة شارل العظيم. وهذه الرواية من الصعب قبولها. فنجاحات شارل وباروناته مبالغ فيها للغاية من قبل مدوني الحوليات والمؤرخين اللاحقين. فالفرنجة لم ينجحوا بالتمسك لا عند الايبرو ولا عند نهر التيس ولا الضفة اليمن لنهر الألبه. ولذلك بالنسبة لاستيطان السلافيين في بلاد ذات مناخ مختلف كلياً حيث يسيطر هناك الصقيع الشتوي والقيظ الصيفي من الضروري البحث عن أسباب أخرى.

إن الدافع الباسيونارية التي ظهرت في إسكندنافيا في بداية القرن التاسع وفي أوروبا الغربية بنحو عام ٨٤١م كان لها فترة حضانة وكان القسم الشمالي من ألمانيا واقعاً في مجال هذا الدافع وهذا يعني ضفة نهر الألبِه فإن كان ذلك هكذا فأمامنا هجرة عاطفية بَدَّل بسببها الفياتشيون والراديمتشيون مكان الإقامة.

وكان كلا فرعي السلاف الشرقيين في القرن الثامن في حالة ارتقاء من التوتر العاطفي وتحمل ضآلة (تفاهة) المصادر إلى اللجوء لاستكمال المؤرخ تقويمياً (هنا يعني الاستكمال من أخبار الحوادث المسجلة بحسب تسلسل وقوعها الزمني - المترجم) وهذه الطريقة تعطي نتائج مثمرة. عن أحفاد آنتيي القرن الرابع الذين انتصروا سوياً مع الروسومون والهون على الغوث كان لهم حتى بداية القرن التاسع «خاقانيتهم» وهذا يعني دولة ذات سيادة مركزها في كييف، وملك يدعى دير وإذا أخذنا بالحسبان ارتقاء هذه الفروع من السلافيين مقارنة بالدافع العاطفي الذي سبب هجرة الشعوب الكبرى وتكوين بيزنطة ومن الجماعات الدينية في آسيا الصغرى فإن طور الذروة أخذ ينهار في القرن التاسع وفي القرن الثامن نشأت الأزمة كما هي.

إن مستوى الباسيونارية العالي أعطى السلافيين التفوق على البلاطقة (الياتفياغ والغولياد) والفنلنديين - الأوغرام (الميريا - والمورما - والفيس) وسبب

اندماج القبائل السلافية في الإثنوس الروسي القديم الموحد الذي تحقق في نهاية القرن العاشر، ولكن السلاف والخزر في القرن الثامن لم يصطدموا بعد مع بعضهم بعضاً ولم يتصوروا خطر بعضهم على الآخر.

ثانياً: مما لا جدال فيه إن العلاقات المتبادلة بين الخاقانيتين الروسية والخزرية لم تكن «مسالمة رغيدة» غير أن فناء عدد من قرى البوليان في القرن الثامن لم يكن عملاً من أيدي الخزر لأن الخزر توغلوا في الحرب مع العرب في القرن الثامن وتعززوا على خط الدون فقط في عام ٨٣٤م وفي ذلك الوقت بدأت الحرب بالفعل.

إذا كان تاريخ فناء قرية ناستيرسكي وسكان التحصينات الأخرى المهجورة صحيحاً فأعداء الروس والسلاف يمكن أن يكونوا فقط الآفار الذين تحكموا بأراضي الكوتورغوروف (فرع البلغار الغربي) من جبال الكاربات حتى الدون وفي عام ٦٣١م سحق الآفاريون ثورة الكوتورغوروف الذين انضمت بقاياهم إلى الاتورغورام في عام ٦٣٣م ولما تكبد الأخيرون في عام ٦٥٦م الهزيمة من الخزر تفرق البلغار راكضين (هنا مسرعين - المترجم) بعضهم إلى كامو وبعض إلى الدانوب وبعضهم الآخر إلى إيطاليا أما أرض الكوتورغوروف السابقة فكانت مسكونة بالتفيرتسام والأوليتشام.

وكل هذه الأحداث لم تقلل بحال من الأحوال من قدرة الآفار الذين «عذبوا الدوليبيين» يعني سيطروا على السهوب شرقي الكاربات، وبدأ انحطاط الخاقانية الآفارية في الفترة ٨٠٠-٨٠٩م على أثر الحرب مع الفرنجة كما قالوا، وبعد هذه السنوات العشر المهلكة بدأت الاعتداءات الخزرية على الغرب.

هذا هو «اتصال العهد» أو «منطق الأحداث». نشأ الاتحاد القبلي الانتيكي أو البولياني الداخل فيه الروسومون كإثنوس شرقي سلافي نتيجة للباسيونارية في القرن الثاني مع بيزنطة بوقت واحد ومعها سوية دخل في طور الذروة الذي أسفر عن النصر على الآفار العدو القاسي، وبعد ذلك انتشر السلافيون حتى شواطئ البحر السود وخلافاً لبيزنطة اجتاز الإثنوس البولياني أزمة الانتقال من طور إلى طور بسلام وذلك لأنه تلقى تعزيزات غير متوقعة ولكنها مفيدة للغاية.

يجب الأخذ بالحسبان أن الخاقانية الروسية كانت معزولة عن البلدان التي لها جغرافيا كتابية (ليس واضحاً ماذا يقصد المؤلف بهذا التعبير ربما كان يعني البلدان التي لها أبجديات للكتابة لأن معظم القبائل الرحلية كان لها لغات غير مكتوبة - المترجم): الخاقانية الخزرية عزلتها عن الشرق الإسلامي والبلغارية (الخاقانية) عن بيزنطة والآفارية - عن ألمانيا وإليكم لماذا كانت الأخبار عن روس القرن التاسع ناقصة للغاية ومنقطعة، ولماذا استطاع مؤلفو القرن التاسع الألمان شبك الروسومون مع السويديين. هؤلاء والآخرون كانوا اسكندنافيين بالرغم من أن أسلاف الروسومون قد هجروا وطنهم في القرنين الأول والثاني الميلاديين.

وفي القرن العاشر أيضاً وصف المعاصرون الروس والسلاف كإثنوسين مختلفين ظهرا كقاعدة عامة معاً. يعني كان الوضع هنا مشابهاً للوضع الذي تشكل عند الأتراك والخزر، إلا أن اختلافاً واحداً مهماً للغاية وهو أن الأتراك حملوا الباسيونارية للخزر أما الروسومون والسلاف عند اللقاء والاتصال فكانوا باسيونارين على السواء (بصورة متعادلة) لأنهم تشكلوا في مجال باسيونارية واحدة.

والآن عدة كلمات عن الفايكنج الذين توجد حولهم آراء كثيرة مبتذلة للغاية بحيث تدعو بالضرورة إلى تلافي التصور الناقص عنهم.

لم تكن إسكندنافيا في القرن التاسع مكتظة بالسكان لأن الفيوردات[1] التي ما زالت خالية حتى الآن كثيرة بالرغم من أن الناس صاروا أكثر وكان التكوين هناك عبارة عن جماعات بدائية والملوك عبارة عن أشخاص منتخبين من زعماء القبائل. وحتى القرن التاسع دافع السكندنافيون بصعوبة عن أرضهم من هجوم اللوباريين طالما لم يطردوهم إلى أقصى الشمال في التوندرا؛ دعي بالفايكنج أولئك الأشخاص الذين لم يرغبوا بالعيش في القبيلة ويخضعوا لقوانينها وكلمة «فايكنج» حملت في ذلك الوقت مسحة بذيئة أو مهينة على غرار «قرصان - أو قاطع طريق» في الوقت الحالي، وعندما يغادر الفتى الأسرة ويذهب مع فصائل متطوعي الفايكنج كانوا يبكونه وكأنه ميت، وفي الحقيقة لم يكن من السهل أن يسلم في الحملات البعيدة والمعارك المستمرة، بالرغم من أن الفايكنج لم يتمتعوا بشجاعة طبيعية أكثر من الذين ظلوا في ديارهم. وفاقت الجرأة الطبيعية لشعوب الجنوب مراراً رجولة شعوب الشمال ولكن ذلك ليس باسيونارية وإنما هي دلائل أخرى على السلوك ليست عدوانية وإنما هي قدرة مماثلة من رد الفعل تظهر عادة عند الدفاع عن الذات.

فالفايكنج خافوا الموت كسائر الناس الآخرين ولكنهم أخفوا هذا الخوف عن بعضهم بعضاً بتناولهم قبل المعركة نوعاً من الفطور السامة المُسكرة أما العرب المعاصرون لهم فيندفعون إلى الهجوم وهم صاحون ولكن الفايكنج الجبارين المنتشين حصدوا العرب والفرنجة والسلت، واستطاعوا لا سيما المسعورين البرسركيين (أشباه الدببة) أي الناس المؤهلون قبل المعركة على الاستغراق في حالة هستيرية بقدرة هائلة على تحطيم العدو، وبعد النوبات يقع البرسركيون في كآبة عميقة حتى الإحباط العصبي التالي، وفي الأحوال العادية لم يحتملوا البرسركيين[2] حيث يجبرونهم على ترك القرى ويبعدونهم إلى الكهوف الجبلية

١- Fiord= زقاق = (مجازاً خليج) بحري تكتنفه الأجرف ينشأ نتيجة لزحف الجليديات وتكون الخلجان المتشكلة من ذلك عميقة وضيقة وطويلة - المترجم.

١- البرسركي (Berserk أو Berserker): واحد من المحاربين الإسكندنافيين القدماء عرفوا بقتالهم الشديد المسعور (الشديد الاهتياج) - المترجم.

حيث يتقونهم أينما تحركوا، ولكن البرسركيين وجدوا لأنفسهم استخداماً في مفارز الفايكنج، وبكلمات أخرى إن الباسيونارية تجعل حتى الناس غير الشجعان جداً ضواري، وهذا يعني أن الفايكنج كانوا أناساً مختلفين بعض الشيء عن طباع وتكوين الإسكندنافيين الآخرين بتمتعهم بدرجة عالية من العاطفية وكانوا لا يطاقون بالنسبة للنرويجيين ذوي الباسيونارية الضعيفة الذين فضلوا البقاء في البيت وصيد الرنكة ولذلك انشق القسم الباسيوناري من السكان عن الجمهور الأساسي للشعب وباد في الغربة ومقابل هذا نشر المحاربون - الباسيوناريون النرويجيون والدنماركيون والسويديون صيت شجاعتهم في كل أوروبا وأجبروا مالكيها على الدفاع عنها.

الخزر والنورمان

بالرغم من أن الفايكنج بحسب المولد كانوا إسكندنافيين أو بلطيقيين ولكنهم لم يكونوا ممثلين لشعوبهم. إن الباسيونارية أحدثت اختلافاً فالشباب الذين تركوا موطنهم الأصلي إلى غرينلاندا أو نورماندیا أو الجزيرة الخضراء إيرين أو شواطئ البحر الأبيض المتوسط اللازوردية شكلوا اتحاداً إثنوسياً مستقلاً وأحياناً هلكوا وأحياناً انتصروا وبما أنهم كانوا مشتتين في كل أنحاء أوروبا كان لقاؤهم باليهود - الخزر محتماً، أما طبيعة ذلك اللقاء فحددتها تلك الخلفية التاريخية التي حصل بها. والمصادر التي تلقي الضوء على هذه الصفحة من التاريخ غير موجودة. وبالتالي من الضروري أن نلقي النظر ثانية على توزع القوى لكي نمسك لو بالاتجاه العام لتطور الأحداث.

وكما أشير من قبل بعد أن وقع انشقاق الكنيسة الفعلي في القرن التاسع أصبحت بيزنطة مملكة شرقية معزولة عن كل الجيران متحولة في البداية من منافس ثم إلى عدو، مقيدة بالحروب الدائمة مع بلغاريا والمحاولات الفاشلة للاحتفاظ بجنوب إيطاليا من العرب الغزاة ولم تستطع بيزنطة أن تقاوم بشدة تعزز (تعاظم) الملوك الخزريين نتيجة لأن الأرثوذكسية فقدت مواقعها في داغستان وفي القفقاس الشمالي واحتفظت بصعوبة بالشاطئ الجنوبي لشبه جزيرة القرم.

وكانت محاولة شارل العظيم إنشاء الإمبراطورية الألمانية المسيحية المتفوقة إثنوسياً في الغرب بصورة مشابهة للإمبراطورية اليونانية التي كانت في الشرق ليست بلا آفاق. ولكن الباسيونارية المتنامية في القرن التاسع قلبت هذه المنشأة الهائلة كما لو أنها كانت بيتاً من ورق. وقبيل عام ٨٨٨م تحققت «الثورة الإقليمية» يعني ظهرت إثنوسات تدعى أو - تييري «أمم»: البريطانيون والاوكويتانيون والبروفانسيون والفرنسيون والبورغنديون والإيطاليون والألمانيون زد على ذلك أن الأخيرين تكونوا من عروق فرعية «قبائل»

الساكسونيين والفرانكونيين والبافاريين والسوابين (الألمان) والتيورينغوف وجميعهم ضيعوا قواهم في محاربة بعضهم بعضاً ولذلك قاوموا على نحو سيئ جداً اعتداءات العرب والنورمان ولم يكونوا خطرين بالنسبة للخزر.

ومقابل ذلك كان اليهود الخزر خطرين بالنسبة للفرنسيين لأنهم يأتون بالأموال الكثيرة إلى بروفانسيا وقد أشتروا رعاية الملوك والزعماء والحماية من مطاردة الأكليروس والشعب. وتنامى العنف من كلا الطرفين فاليهود حافظوا أكثر على بقايا الثقافة القديمة من الفرنسيين، ولذلك تغلبوا على المسيحيين في المجادلات التي نشأت بسبب العهد القديم ولاقت دعايتهم النجاح، ففي عام ٨٤٧م انتحل راهب شاب من ألمانيا اليهودية وتزوج بيهودية وسافر إلى أسبانيا وهناك أثار العرب لمطاردة المسيحيين واشتكى مطران غاليسيا من أن اليهود يشترون العبيد المسيحيين ويجبرونهم على تأدية الطقوس اليهودية ويخطفون الأطفال المسيحيين ويبيعونهم للمسلمين، وأن اليهود بحقدهم على منافسيهم يساعدون النورمانديين والمسلمين بفتحهم أبواب المدن المحاصرة لهم وأنهم يسمون لحم خنزير «لحم المسيحيين» الأمر الذي يسيء جداً للمسيحيين.

من الصعب القول فيما إذا كانت تلك الاتهامات عادلة، ولكن يهمنا شيء آخر وهو: العنف المتبادل والكراهية بين السكان الأصليين واليهود عند الرون (منطقة نهر الرون في فرنسا - المترجم) هددت الفرنسيين بالعواقب نفسها التي كانت للتغلغل اليهودي إلى الفولغا فـ بروفانس يمكن أن تتحول بسهولة على مثال خازاريا وبالأخص أن القوة العسكرية للبربر الذين استؤجروا عن طيب خاطر في قوات البلاد المجاورة لم تكن تقل عن التي للخوارزميين ولكن من أجل ذلك بالإضافة للأموال الكثيرة كان الوقت ضرورياً، وهو لم يكن كافياً بالنسبة لليهود. لماذا؟ هذا ما سنراه أدناه (هنا تعني ما يلي - المترجم).

وبعد أن نلفت الانتباه إلى أن التفاهم بين اليهود - الخزر والوثنيين النورمان قد حدث بحيث تخبر «قصة السنين الغابرة» أنه في عام ٨٥٩م «إن فارياغ ما وراء البحر» حصلوا جبوا الإتاوة من التشود والسلافيين والميريين والكريفتشيين أما الخزر - فمن البوليان والسيفيريان والفياتشيين فإذا أخذنا بالحسبان التوزع العام للقوى في أوروبا فإن النص يدعو للتأمل.

في عام ٨٦٠م هاجم الروس الكييفيون القسطنطينية وكادوا أن يستولوا عليها فلو كانوا أتباعاً للخزر فما كانوا سبباً للنزاع الخزري - البيزنطي وبدلاً من ذلك قبلت الخاقانية الخزرية في تلك السنة نفسها بعثة القديس كيريل وسمحت له بتعميد الوثنيين الموجودين عندها في العاصمة، وقام كيريل برحلة في الموقف السلمي نفسه ومنه نستنتج أن روسيا المتحاربة مع اليونان لم تكن مرتبطة ولا بحال من الأحوال مع الخزر وحكومتهم.

وفي السويد نحو عام ٨٥٩م كان عدة ملوك: بيرن التلي ونوابه إدموند واولاف. وقام إيريك بن إدموند في عام ٨٥٤م بحملة إلى الشرق وفرض الإتاوة

علـى الكـوروف والأسـتوف والفينـوف (الكـاربليون والأسـتونيون والفنلنـديون - المترجم) ولكن على ما يبدو من خلال التناقض أنه عمل فقط على شواطئ بحر البلطيق بينما الكريفيتش والميريا (التشيريميس) والفيس (فيبيس) عاشوا في غابات أوروبا الشرقية الكبيرة، ولو أن أياً كان من الملوك السويديين قد أخضع أراضي واسعة لكان ذلك قد أشيرَ إليه ولو في الملاحم التاريخية الآيسلندية ولم يُشَرْ إلى ذلك أيضاً المبشر الكاثوليكي القديس آنسغار الذي بشر في السويد في الفترة ٨٤٩-٨٥٢م وحافظ على العلاقة مع السويديين حتى وفاته في عام ٨٦٥م إذن هنا شيء ما غير هذا محذوف.

فلنقارن الحقائق: في عام ٨٤٨م نهب الوثنيون النورمان وأحرقوا مدينة بوردو بفضل خيانة اليهود المحليين، وبما أن الأخيرين لم يعانوا من الفايكنج يجب الافتراض أنه كان بينهم وبين الأخيرين اتصال منظم ويشرح نص «قصة السنين الغابرة» كيف كان ذلك فالاتصال كان معاهدة حول تقسيم مجال النفوذ وليس البلدان المحتلة وإنما تلك التي ستحتل ولهذا السبب حذفت المعلومات عن وجود الخاقانية الروسية المستقلة المرشحة لأن تصبح ضحية الوحشين وفي الحقيقة كانت المئة عام التالية غنية بالأحداث كما في الغرب كذلك في الشرق.

إن تاريخ التغلغل الفاريغي في الأرض السلافية غامض لدرجة كافية.

ووفقاً للمدونات التاريخية التقليدية المكتوبة صار الملك الفاريغي روريك في عام٨٦٢م حاكماً على نوفغورود وهذه المسالة لن نبحثها لكي نستمسك بوجهة النظر المتعارف عليها وبالنسبة لنا يكفي أنه قبل ذلك بوقت طويل قام الروس حول كييف بحملات مسجلة من قبل المؤرخين الأجانب. فقبل عام ٨٤٢م اجتاح «شعب الروس السكيثي» آما سترادا (هي بفلاغونيا على شاطئ البحر الأسود) وفي عام ٨٦٠م كاد الأسطول الروسي أن يستولي على القسطنطينية وهؤلاء الروس لم يكن لهم أيّ صلة مع روريك وفاريغييه.

وفي عام ٨٦٤م تحارب الروس مع البلغار. وفي عام ٨٦٥م - مع البولوتشاكيين وفي عام ٨٦٧م - مع البتشينيغ و ٨٦٩م - مع الكريفانشيين، إلا أنه أثناء السياسة الخارجية الشديدة جداً لم يكن هناك اصطدام مع الخزريين: بعثة القديس كيريل إلى خازاريا في عام ٨٦٠م أكرر أنها حدثت في جو سلمي وهذا يتحدث لا عن حكومة خازاريا المحبة للسلم وإنما عن قدرة كييف، وعن اتحاد الروس مع المجر وصعوبة الموقف عند القزوين سنتحدث فيما بعد.

ولكن كل شيء تبدل في عام ٨٨٢م عندما استولى على السلطة في كييف الملك الفاريغي المسمى في المدونات التاريخية أوليغ (خلكي) ومنذ ذلك الوقت حتى ٩٤٤م يعني مصرع الملك المسمى إيغور (انغفار) تحملت الأرض الروسية الكثير من الأوجاع التي سببها - بحسب اعتقادنا العميق - الإخفاقات المستمرة للحكام الأجانب العديمي الكفاءة.

إن تبـديل السـلطة فـي كييـف جـر وراءه تبـديل السياسـة فأخضـع أوليـغ الـدريفليان فـي عـام ٨٨٣م والسـيفيريان فـي ٨٨٤م والراديمتشـيين فـي ٨٨٥م زد على ذلك أن الأخيرين دفعوا قبل ذلك الإتاوة للخزريين وهذا لم يمنع الحرب مع خازاريا.. والحوليات تصمت ٨٠ عاماً كاملة وهذا لا يمكن أن يكون بالمصادفة.

وتسدَّ شهادة المسعودي الفرجة بعض الشيء «إن الروس والسلاف يشكلون خدم الملك الخزري» وكما رأينا عن قرب هكذا كان.

لا! لـم يحـدث الاحـتلال الكامـل لكييـف مـن قبـل اليهـود الخـزريين فـي «نسخة كامبريدج للمؤلف المجهول» (أشرنا أنه الرهاوي السوري - المترجم) تعداد لأعداء الجماعة اليهودية الخزرية «الآسيون (آسـي - أوسيتيون) بـاب - الأبـواب (دربنـت) الزيبـوخ (الزيخيـون - الشراكسـة) المجر التيـورك اللـوزين (اللادوجـان) يعنـي فصـائل متطوعـة أوليـغ الـذين خسـروا بسـرعة الحـرب مـع اليهود الخزر ولكنهم احتفظوا بكييف لأن المجر غطوهم من جهـة السـهب، إلا أن المجـر سـرعان مـا صـارت حـالهم حرجـة لأنـه ثـار ضـدهم كـذلك فاريـاغ خازاريا اليهودية وقبائل التفيرتشيين والاوليتشيين السلافية. ولما هجم البلغـار والبتشينيغ على المجر فـي عـام ٨٩٥م وذبحـوا نسـاءهم وأطفـالهم تـرك المجـر ليفيديا ومضوا إلى بانونيا. والسهب الذي تركوه احتله البتشينيغ الظافرون ولم تستطع بيزنطة التدخل في هذه الحرب لأن قواتها كانت مقيدة مع بلغـار الملـك سيمون المتنقلين في شبه جزيرة البلقان من نصر إلى نصر، وفـي ذلـك الوقـت صـارت إمارة الفارياغ الكيفيين المعزولة تابعة لجماعة اليهود الخـزريين التـي استخدمت الروس والسلاف في الحروب مـع المسـيحيين والمسلمين - الشـيعة، وقمعت ثورة الوثنيين بأيدي المرتزقة من المسلمين السنة.

غضب الطبيعة

النظام صارم ولهذا السبب يكون راسخاً لأنه عند تكونه يكون متكيفاً مع الظروف المحلية على الوجه الأكمل ولكن عندما يتبدل المحيط تكون إعادة بناء النظام صعبة.

وعلى العكس يكون النظام غير المترابط المكون من أقسام منفصلة مرناً ولكنه لا يُمكن من التنسيق الكامل للقوى لحل المسائل السياسية الخارجية ولذلك تنتصر الأنظمة الصارمة في الظروف المستعمرة أما غير المترابطة فتبقى حية حتى بالنسبة لوسط الإقامة والمحيط الإثنوسي المتغيرين بصورة مستمرة.

خازاريا اليهودية - نموذج للأنظمة الصارمة، والإثنوسات الاوراسية (الأوروآسيوية) المحيطة بخازاريا - أنظمة غير مترابطة. وتبدل الوسط الجغرافي في القرنين ٩ و ١٠م نتيجة لانحراف طريق المنخفضات الجوية إلى الشمال إلى المنطقة الغابية الأوروآسيوية) كان يمكن أن يكون بالنسبة للأنظمة الإثنواقتصادية إما مفيداً وإما ضاراً ولكن ليس حيادياً. وبما أن مصالح اليهود والخزر في الخاقانية المتوحدة الخيالية كانت متناقضة فالتقلبات المناخية انعكست على تاريخ أوروبا الشرقية والسهب العظيم.

وما دام السهب يترطب ومستنقعات ما بين نهري الفولغا - أوكسكوم تجف بقي القزوين على حالة هادئة وتوقف عند المنسوب المطلق ناقص ٣٦م وبفضل ذلك كانت المساحات الواسعة من الأراضي الخصبة في أسافل الفولغا مزدحمة بالمزارعين وحتى بداية القرن العاشر عندما تحول الفولغا من نهر هادئ إلى تيار مندفع من تجمع مياه الأمطار الساقطة على مساحة هائلة من فلاديا إلى الأورال ارتفع مستوى القزوين حتى العلامة ناقص ٢٩م.

وبالنسبة لسكان التخوم الجنوبية لبحر قزوين لم يكن لهذا أهمية محسوسة، فالشاطئ هناك شديد الانحدار حول الجبال وارتفاع البحر أغرق القلعة الساحلية... حسناً ليكن، ولكن بالنسبة للشاطئ الشمالي الرحراح (المنحدر تدريجياً) كان لارتفاع مستوى البحر أهمية عظيمة والبساتين والكروم القائمة على أعمدة صارت تحت مياه الفولغا واستثمار الأراضي كان مستحيلاً وأصبح الناس يستوطنون على قمم تلال بائيرو منتظرين الوقت كي تذهب المياه والمياه ارتفعت كل الوقت واضطرت أن ترتد إلى السهب.

ولكن لم يكن حتى في التضاريس الطبيعية نجاة للخزر فالسهب المحروم من المطر تحول إلى شبه صحراء والأخيرة إلى صحراء لا يمكن أن يعيش فيها

حتى الرحل، وفي القرن العاشر هجر الكارلوك شاطئ البلخاش لكي يستوطنوا في واحات آسيا الوسطى، وذهب البتشينيغ من شواطئ بحر أورال إلى الأسود أما الغُزّ فانتقلوا إلى الأورال وإمبي، فقط الكومان (البولوفيون) القاطنون عند السفوح الغربية لجبال ألطاي والنطاق الجنوبي لسيبيريا الغربية حيث قامت في ذلك الوقت الغابات الصنوبرية، لم يعانوا من الجفاف فقد أنقذتهم الأنهار الغزيرة المياه المحيطة من الشرق وغرب سهب بارابينسكي.

وكان الأسهل عند الأطراف الغربية للسهب العظيم عند ضفاف أنهار الدنيبر والدونيتس والدون لأن التيارات الاستوائية في الغلاف الجوي ساعدت على الترطب الطبيعي لهذا الإقليم ولهذا السبب استعاد البتشينيغ المتوغلون في مناطق الدنيبر تعداد قطعانهم بما فيها الخيول وبالأخص القدرة العسكرية، وبفضل ذلك استطاعوا الاحتفاظ باستقلالهم، وبما أن السهوب الشرقية بدت غير مضيافة للغاية توجه الخزر إلى الشمال الغربي وبدءاً من النصف الثاني للقرن التاسع غمروا مدرجات الدون الأسفل حيث حملوا معهم زراعة العنب من التيريك وتنتهي مدرجات الدون الأربعة على نحو متدرج خفيف وبنعومة نحو خطوط توزع الأمطار السهبية ولكن عند المدرج الثاني ظهرت الملامح اللا مناطقية (أي الملامح الطبيعية غير المألوفة في مثل هذه المنطقة الجغرافية) كالغابات الشوكية وأجمات الصفصاف.. الخ الأمر الذي وضع شروطاً لحياة الآلان والخزر والقوزاق. وقد نجح المؤلف (يقصد نفسه غوميليوف - المترجم) في عام ١٩٦٥م بالعثور على قرية غير كبيرة عند الدون الأوسط احتوت على فخار من جميع العهود من القرن العاشر إلى الثاني عشر مما يدل على تتابع الاستيطان الحضاري لوادي الدون بغض النظر عن إقحام عناصر إثنوسية غير متجانسة فيه.

بالطبع هذا الفرع من الخزر ساعده الحظ مقارنة بالآخرين، ففي عام ٨٦٠م اعتنقوا الأرثوذكسية على يد القديس كيريل وبفضل ذلك دخل في قوام الجماعة المسيحية ونتيجة لذلك أنشؤوا صداقة مع غوث القرم واليونان والآلان، والآخرون استمروا بتحمل أثقال الإتاوات التي لم تستطع الحكومة الخزرية تخفيضها حتى ولو أنها أرادت ذلك.

ولكن لم يعان الخزر - اليهود إطلاقاً من الجفاف والفيضانات، فقد عاشوا في المدن في بيوت خشبية مريحة دافئة شتاءً باردة صيفاً واشتروا الأقوات من البازارات، ودفع رجال القوافل المارون عبر إيتيل ودفعوا من أجل كل شيء دون أن يساوموا لأنهم أضافوا المصاريف الزائدة على المشترين في الصين وفي بروفانس ولذلك لم يكن للظواهر الطبيعية أي تأثير على العلاقات الاجتماعية داخل الجماعة اليهودية وتأثيرها القائم خففه الإثنوس الخزري الذي اختلطت فيه الجماعة.

وكان الرحل، الضعفاء الذين نفقت قطعانهم من نقص الأعلاف تحت رحمة اليهود فاللحم كان يمكن شراؤه بثمن بخس والعدو الضعيف غير خطر ولذلك لم تضعف فاعلية الحكومة الخزرية في القرن العاشر وإنما تزايدت وبالتالي كان يجب أن تبدأ الحروب القاسية وبالفعل اندلعت في الجنوب والغرب.

ولكن ليس في الشمال لأن تحول ممرات المنخفضات الجوية إلى المنطقة الغابية كان مصحوباً بسقوط الثلوج الغزيرة والأمطار الصيفية والخريفية المتواصلة ووفقاً لذلك استنقعت الحقول الغابية وذلك يعني أكثر المناطق الواعدة للزراعة البدائية وتقوض اقتصاد إثنوسات ما بين نهري الفولغا - أوكسكوم، وهذا يعني أن قدرتهم على مقاومة المحتلين الأجانب قد ضعفت ولو اتفق اليهود - الخزر في منتصف القرن التاسع مع النورمان على اقتسام أوروبا الشرقية فإنهم قبيل بداية القرن كانوا قد استولوا عليها كلها تقريباً. ودخل في قوام خازاريا كل من البورتاسيين (عند الفولغا الأوسط) والبلغار[1] (عند الكامي الأسفل) والسوفاز (تشوفاشيو الفولغا الأعلى) والاريس (موردوف - أرزيا) والتشيرميس (ماري - وراء الفولغا والفياتشيين (عند نهر أوكي) والسيفيريان (عند الديسنا) والسلاف «الذين يقصد بهم القبائل السلافية الأخرى».

إن الحد الفاصل بين القرنين التاسع والعاشر - هو بلوغ القدرة اليهودية الخزرية إلى الذروة والكارثة للسكان الأصليين لشرق أوروبا الذين كان أمامهم الخيار إما العبودية وإما الموت.

حول بحر قزوين

كانت الطرق التجارية هي الأعصاب الحية لخازاريا اليهودية، وبما أن بحر قزوين من النادر جداً أن يكون هادئاً، ومجاري دلتا الفولغا عند المصبات تصبح ضحلة وغير صالحة لمرور السفن البحرية الضخمة والشاطئ الشرقي قاحل ومقفر فلهذا السبب لم تقتنِ الحكومة أسطولاً خاصاً مفضلة على ذلك استخدام طرق القوافل من حول بحر قزوين.

وكان الطريق الأكثر ملاءمة هو من بغداد عبر القفقاس حيث يمر من دربنت ويصل التجار مباشرة إلى خازاريا ومن هناك إلى البلغار وبيرم العظمى. والطريق الثاني امتد عبر ميرف وبخارى وخوارزم مع ضفة

١- كان ابن القائد البلغاري رهينة لدى الخزر، وقد كان يطالب أن تكون بنات الملك الخزري ضمن حريمه.

آموداريا عبر هضبة أوستيورت - بوابة بلاد الترك ثم يقطع أنهار أمبي ويايك وسقمور ثم يمتد مع الضفة اليسرى للفولغا إلى البلغار وكان العيب في هذا الطريق هو أنه امتد عبر بلاد الغُزّ والبتشينيغ والباشكير الرحل زد على ذلك أن الأخيرين يعتبرون قتلة مرعبين. وابن فضلان الذي كان أول من مر في أرضهم قرروا - الباشكير - هل ينصِّفون - (أي يقطعون الشخص إلى نصفين وهذه عادة معروفة عند معظم رحل آسيا الوسطى - راجع كتاب - د. سعيد عبد الفتاح عاشور الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى - المترجم) رسل الخليفة أم يجردونهم من ملابسهم ويعيدونهم أو يسلمونهم للخزر بدلاً من ذويهم الموجودين عندهم بالأسر. ولكنهم سمحوا فيما بعد لابن فضلان بالعبور.

والطريق الآخر من بلاد مسلمي آسيا الوسطى مر عبر إمبي الأسفل وأسافل الياييك مباشرة إلى الفولغا إلى إيتيل. وكان هذا الطريق مجهزاً بالخانات (محطات القوافل) الفخمة المبنية من الحجر المنحوت والآبار المكسوة بالحجر على مسافات الواحد عن الآخر نحو ٢٥كم (المرحلة العادية للقافلة) ولكن بغض النظر عن جميع التدابير المتخذة كان الطريق الشرقي طويلاً وأصعب من الغربي والقفقاسي واستخدم فقط عندما لم يكن هناك مخرج آخر.

ولكن البحر لم يبق خالياً أيضاً ففيه مخرت سفن الروس من إيتيل إلى جرجان حيث يعاد تحميل البضائع على الجمال لإرسالها إلى بغداد وبالطبع كان هذا الطريق تحت إشراف الملك الخزري الذي كان مهماً بصورة حيوية لكي يمر التجار بهذه الطرق بلا عرقلة ولكي ترد الأرباح إلى خزينته بانتظام.

وحتى انهيار الخلافة لم يعق العمليات التجارية لما توقف الأمراء عن الخضوع للخليفة واحتفظوا بالضرائب المحصلة لأنفسهم وفي عام ٨٦٦م استولى المرتزقة الأتراك على بغداد وبدلوا الخليفة بصنيعته وكان ذلك نهاية سيادة العرب في الدولة التي أنشأها أسلافهم.

وتناول التغيير القفقاس أيضاً ففي عام ٨٥٩م استعيد الغانج حيث تحصن الحكام العرب من قبيلة شيبان وفي عام ٨٦٩م وصل إلى السلطة في دربنت الهاشميون العرب من قبيلة سليم ولكن أولئك وهؤلاء كانوا سنيين متشددين لم يقطعوا الصلة مع بغداد وولاة أذربيجان الساجديين كذلك. ولهذا السبب لم يكن هناك باعث على القلق عند الملك الخزري.

ولكنه اضطر للتفاعل كلياً بطريقة أخرى مع الحركة الشيعية بين شعوب إيران العائشين على الشاطئ الجنوبي لبحر قزوين ففي عام ٨٦٧م انفصل جبليو طبرستان الذين قاموا بثورة تحت راية العلويين عن الخلافة.

وكانت أقاليم جنوبي القزوين المحمية من الشمال بالبحر ومن الجنوب بسلسلة جبال البورصة العظيمة ملجأ أميناً للإثنوسات القديمة التي حافظت بالفعل على الاستقلال أيام السلوقيين وحتى أثناء الساسانيين والفاتح العربي لم يُخِل أيضاً

بمجرى حياة جبليي البورصة وكذلك جبليي استوريا وبسقونيا وكيلكية ومع ذلك أثار الكراهية للعرب وتأثير الإسلام الذي تم اعتناقه فقط في عام ٨٤٢م كان ضئيلاً. ولذلك وجدت الدعاية الشيعية في الديلم وطبرستان تربة ملائمة وهؤلاء الجبليون مضوا عن طيب خاطر للقتال ليس من أجل العلويين وإنما ضد العباسيين وكلما ضعفت الخلافة البغدادية أصبحت قوة الديالمة مخيفة، وتلك الكيانات لم تفقد قواها كالعرب والفرس. وكان العدو الجدير بالاعتبار فقط هو جيش الحاكم من سنيي الأتراك السهبيين الوحيد القادر على الحرب.

وكانت الجرجان «بلاد الذئاب» الواقعة إلى الجنوب الشرقي من بحر قزوين هي الإقليم الذي ورد المرتزقة للملوك الخزريين والمحاربين سكان هذه الأرض الفقيرة استحقوا عن جدارة لقبهم «ذئاب» وباعوا جرأتهم لمن دفع من أجلها، وخضع الجرجان رسمياً لوالي خراسان حيث حكم الطاهريون أحفاد الأرستقراطيين الفرس السنة المؤمنين.

وفي عام ٨٧٢م اقتحم حسن قائد الثوار الشيعة جرجان واستولى عليها ثم استولى على الري (تيغيران) مدينة القزوين الغنية وللحال حرم اليهود - الخزر من طريق القوافل المريح، وتوقف المرتزقة الشجعان عن القدوم إلى إيتيل وانتهى عهد المحبة للسلام وأصبحت الحرب مع الشيعة بالنسبة لليهود - الخزر ضرورة ملحة.

وللحرب مع المسلمين كانوا بحاجة لمقاتلين - وثنيين يعني الفارياغ السكندنافيين فاستدعى الملك الخزري متطوعة خلكي (أوليغ) واعداً الفارياغيين باقتسام أوروبا الشرقية والدعم من أجل تدمير الخاقانية الروسية وأسكولد.

واستولى أوليغ في عام ٨٨٢م على سمولنسك وكييف وقبيل عام ٨٨٥م أخضع السيفيريان والراديمتشيين الذين كانوا قبل ذلك من دافعي الإتاوة لخازاريا.

ويدل صمت مسجل الحوادث التاريخية نسطر على أن أوليغ لم ينتصر في السنوات التالية وحتى في بداية القرن العاشر كان الأسطول الروسي في بحر قزوين يعمل ضد أعداء الملك الخزري، ومن الواضح أن فارياغيي كييف صاروا من دافعي «إتاوة الدم» للملك الخزري فقد أرسلوا إليه المرؤوسين السلاف - الروس ليموتوا من أجل الطرق التجارية للراهدونيت.

وتشكل الواقع الملائم للملك الخزري في آسيا الوسطى حيث وقعت السلطة بأيدي السامانيين المتنورين حماة المدن وبالأخص التجارة العالمية في عام ٩٠٠م سحق إسماعيل السامانى دولة العلويين الشيعة في جنوب القزوين ولكن سكان جيليانا والديلم ومازندران لم يخضعوا أبداً للغرباء لائذين بالحصون الجبلية، وكانت سلطة السامانيين في طبرستان وهمية ما دام الديالمة محتمين من الجنوب بجبال البورصة ومن الشمال ببحر قزوين فقد استطاعوا الصمود لأن «لا السامانيون ولا الخزر كان عندهم أسطول».

ولكن في عام ٩٠٩م ظهرت قوارب الروس في البحر واجتاحوا جزيرة اباسكون وفي العام التالي هجم الروس على مازندران ولكنهم تكبدوا الهزيمة وانصرفوا وفي عام ٩١٣م دخل أسطول هائل - ٥٠٠ سفينة - بإذن من الملك بنيامين في بحر قزوين وتعرضت للنهب شواطئ جيليان وطبرستان وشيروان ومن البديهي أن يفترض أن الملك بنيامين ببساطة دعا الروس للتنكيل بقطاع الطرق - الجبليين وتحارب الروس مع الجبليانيين والديالمة وعلى ما يبدو من دون نجاحات كبيرة ثم هاجموا شيروان وباكو حيث أقام الساجيديون السنة الولاة المعنيون من قبل الخليفة وبالتالي أصدقاء الخزر وهنا انتشروا بالوحشية المميزة لقادتهم السكندنافيين.

بعد جمعهم الكثير من الغنائم، عاد الروس إلى إيتيل وأرسلوا للملك الخزري حصته المشروطة وتوقفوا للراحة. عندئذ طلب المسلمون في الحرس الملكي السماح لهم بالانتقام من الروس والثأر لدماء المسلمين ولأسر النساء والأطفال. فسمح لهم الملك بذلك، وفي معركة امتدت لثلاثة أيام تكبد الروس المرهقون من الحملة الهزيمة وبلغ عدد القتلى ٣٠ ألف شخص ولم يأخذوا أحداً في الأسر وهرب بقية الروس في الفولغا إلى الشمال ولكنهم أبيدوا من قبل البورتاسيين والبلغاريين ومن الواضح أن المبادرة الفارياغية غير المناسبة هي التي سببت التنكيل من قبل المسلمين الخزريين وبالأخص لأن سحق الأعداء الديالمة سهل للغاية وضع الشيعة بحيث إنهم تحرروا في عام ٩١٣ من سلطة السامانيين وطردوا الأخيرين من جيليانا وطبرستان.

وخلال النصف الأول كله من القرن العاشر طور الديالمة النجاح فتحرك قسم منهم إلى الجنوب واستولى على فارس وكرمان وخوزستان وفي النهاية في عام ٩٤٥م بغداد حيث وضع قادتهم خلال ١١٠ سنوات الخلفاء تحت وصايتهم والقسم الآخر أخضع في عام ٩١٤م أذربيجان ووصل إلى دربنت وأصبحت تجارة قزوين تحت إشراف خصوم خازاريا بالضبط أعداء التجارة الخزرية.

وكانت الخسارة كبيرة ولكن من الممكن تعويضها لأنه تبقى طريق القوافل شرقي القزوين وفي عام ٩١٣م سحق الخزر بالاتحاد مع الغُزّ البتشينيغ الشرقيين المترحلين ما بين الفولغا واليابيك وهذا عوض جزئياً عن خسارتهم لحلفائهم في ما وراء القفقاس - الساجيديين ولكن سيادة الأجلاف الديالمة القساة في إيران وأذربيجان نغصت حياة اليهود - الخزر.

والأكثر إزعاجاً هو أنه عدم إمكانية إرسال المرتزقة السنة الأوفياء من الجرجان ضدهم لأن أمير المؤمنين - الخليفة البغدادي أعطى أمراً بواسطة الأمراء الديالمة الذين لم يسلموا بأنه أمر بقتل أخوتهم بأيدي المسلمين وبالتالي كان يجب إثارة الروس ثانية للحرب من أجل المصالح التجارية للجماعة اليهودية. أما الروس بعد خيانة عام ٩١٣م فلم يحاولوا تكرار الحملة على القزوين.

بالطبع كان من الممكن تعبئة الخزر أنفسهم ولولا ذلك القسم الذي تحول إلى الأرثوذكسية في القرن الثامن. غير أن الحكومة لم تضطر لذلك، ويجب التفكير أنه ليس من دون أساس أن الخزر لم يكن لهم أيّ فوائد من التجارة ولم يكن لهم أي سبب أو باعث أن يحاربوا من أجله ولذلك سارت الأحداث في مجرى آخر.

أعداء خازاريا المتجددة

كان من المعروف دوماً أن الحرب هي - أمر خطير ومكروه ولكن هناك أشياء أسوأ من الحرب: الاستبعاد، إهانة المقدسات الموقرة نهب الممتلكات وأخيراً الاحتقار المهين.

كل هذا كان من نصيب شعوب أوروبا الشرقية منذ أن وقعوا في مجال نفوذ خازاريا اليهودية.

ولكن الاختلافات الإثنوسية بينهم لم تعطهم إمكانية الاتحاد ومقابل ذلك استطاعت الحكومة الإيتيلية بسهولة تحريض بعضهم على بعض مستفيدة من الحسابات القبلية القديمة ولكن غير المنسية وما زال الملك بنيامين في القرن التاسع يخوض الحرب ضد الآسي (الاوسيتيين) و «التيورك» (المجر) والباينيلوف (البتشينيغ) والمقدونيين (البيزنطيين) وانتصر بنيامين على تحالف الأعداء بمساعدة الآلانيين ثم انتصر الملك آهرون على الآلان بواسطة الأتراك (الغُزّ) في بداية القرن العاشر.

ويؤرخ م. إ. ارتامونوف هذا الحدث بعام ٩٣٢م ويربط به اضطهاد المسيحية الذي أجبر به آهرون الآلانيين على الارتداد عنها.

وفي عام ٩٢٢م اعتنق رئيس بلغار الكامسك الإسلام وفصل دولته عن خازاريا معتمداً على مساعدة خليفة بغداد الذي حرم على المرتزقة المسلمين القتال ضد الذين من دينهم نفسه وعلاوة على ذلك طلب من الخليفة المال لبناء قلعة ضد «اليهود الذين استعبدوه».

وأمر الخليفة ببيع العقارات المصادرة للوزير الذي تم إعدامه وسلم الأموال للسفير ابن فضلان، ولكن المشتري «لم يستطع» اللحاق بقافلة السفارة والقلعة في بلغاريا لم تبنَ. والخوارزميون لم يعيروا الاهتمام بعد في القرن العاشر لخلفاء بغداد الضعفاء طالما لم يتطرقوا للأمور الروحية وإنما الدنيوية.

والارتداد عن الدين لم يعزز البلغار وإنما أضعفهم ورفضت واحدة من القبائل البلغارية الثلاث - السوفار (أجداد التشوفاشيين) قبول الإسلام وتحصنت

بالغابات وراء الفولغا ولم تستطع الدولة البلغارية المنشقة المنافسة مع خازاريا اليهودية.

وكان الوضع مشابهاً عند الغُزّ ففي عام ٩٢١م كان أحد زعمائهم قد اعتنق الإسلام ولكن أفراد قبيلته اقترحوا عليه إنما التخلي عن الدين الجديد أو السلطة وعاد الغُزّ إلى الآلهة القديمة.

وهكذا بدت محاولات التحرر من اليهود بمساعدة المسلمين محكوماً عليها بالإخفاق. وهذا علم الروس والسلاف (البوليان) المعينين من قبل المحتلين الفارياغ بوضع غير ملائم قطعاً الأمر الذي اجتهد مسجل الحوادث التاريخية نسطر أن يطمسه باجتهاد ولحسن الحظ عندنا إمكانية استكمال المعلومات التي أغفلها.

ولم يكن للخزر عملتهم الخاصة فقد استخدموا الدراهم العربية وتبقى جزء من تلك العملة بطبيعة الحال مع أتباع الملك الخزري، ووصل مجال الدراهم ذات الكتابة الكوفية من الأعوام ٨٨٣-٩٠٠م إلى الحدود الشرقية للأرض الروسية، وهذا يدل على استخدامها من قبل السيفيريان الموجودين في مجال نفوذ خازاريا وبعد عام ٩٠٠م ظهرت الدراهم العربية في كنوز الأرض الروسية مما يدل على دخولها في نظام خازاريا الاقتصادي وهذه الدراهم ليست غنائم حربية لأن الانتصارات تكون معكوسة دوماً في الحوليات، بل كانت أجوراً لقاء الخدمة في بحر قزوين في الأعوام ٩٠٩-٩١٠م يعني من أجل دماء الأبطال السلاف - الروس التي سفكت في سبيل المصالح الأجنبية من أجل قمع الدريفليان في عام ٩١٤م ومن أجل الحرب مع البتشينيغيين في ٩٢٠م ومن أجل الخيانة التي فعلها الملك بنيامين في عام ٩١٣م والتي بقيت من دون عقاب ومن أجل الكثير مثلها التي سعى المعاصرون أن لا يشيروا إليها والأحفاد نسوها وليس هناك حجج لتمجيد أوليغ النبوي.

من المفهوم بحد ذاته أن الحكومة الفارياغية لم تستطع أن تكون ذات شعبية بين السكان السلاف المحليين عند الدنيبر وهذا ما انتبه إليه س. م. سولوفييف بالرغم من أنه لم يكن في حوزته المعلومات التي دخلت في ترسانة العلم في هذه الأيام، فهو لم يُعدّ أوليغ محارباً شجاعاً بل سياسياً داهية وجابي إتاوات من القبائل السلافية غير المحمية وبالفعل هكذا كان هو.

ولو اعتمدنا على الحوليات التي لم تذكر منذ عام ٩٢٠ إلى عام ٩٤١م ولا حدثاً واحداً من التاريخ الوطني لكان يجب الاعتراف بأن الروس جبناء وضيقو التفكير غير قادرين لا على الانتقام للمواطنين المخلصين ولا قتلى الدفاع عن ممتلكاتهم من جامعي الإتاوة الذين أرسلوا الممتلكات المنهوبة إلى إيتيل. ولكن لا يجب الوثوق بالحوليات وإنما بجملة الأخبار، وتدل هذه الأخيرة على أن اليهود - الخزر اضطروا في كل الأوقات إلى قمع الحركة الشعبية. وكلفهم الروس ليس القليل من العناء وعلاوة على ذلك غيروا الوضع الدولي ولم يؤثر ذلك على

مصير اليهود الخزريين فقط وإنما على الجيران أيضاً وهذا بدوره أثر على السياسة الخارجية لخازاريا.

وكان في مقدور اليهود أن لا يخشوا المسلمين المنتمين إلى أحزاب وسلطنات ولكن كان عليهم أن يحسبوا حساباً لتعاظم نفوذ بيزنطة حيث وصلت إلى السلطة السلالة المقدونية، وكان كل المسيحيين الأرثوذكس حلفاء محتملين لبيزنطة (هذا رأي المؤلف - المترجم) وتنامى عددهم بفضل نشاط كيريل وميتودي وجرت في عام ٨٦٧م المعمودية الأولى لروسيا، ومن المستبعد أن يكون من الخطأ التسليم بأن الاحتلال الفارياغي قد عطل انضمام روسيا إلى الأرثوذكسية ولكن على يد من كان ذلك؟ فقط اليهود - الخزر.

وبالطبع، عندما لا يمكن أن يبتهج اليونان بهذا السبب وبالأخص لأن التجارة الخزرية أمدت بغداد، وحرضت الدبلوماسية الخزرية البلغار على القسطنطينية ومن ناحية أخرى لم يبد اليهود البيزنطيون تعلقاً بالدول التي فيها آذوهم وما أحبوهم ولهذا السبب «انضم إليه (الملك الخزري) جملة اليهود من الدول الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية» ووفقاً للمسعودي «إن السبب في ذلك هو أن الإمبراطور الحاكم الآن (في ٩٤٣م) والذي يحمل اسم أرمانوس (رومان) قد حول يهود بلاده بالقوة إلى المسيحية ولم يحبهم... وهرب القسم الكبير من اليهود من روما إلى بلاد الخزر».

من الواضح تماماً أن العلاقة بين المسيحيين واليهود تأزمت و..... سالت الدماء.

مآثر القائد بيساخ

إن النزاع اليوناني - الخزري الذي انعكست فيه المنافسة[1] الأرمنية - اليهودية لا يمكن أن يمر بشكل غير ملحوظ من روسيا. وكان يجب أن يلوح الأمل في كييف بالتخلص من الاتحاد المتعب مع خازاريا بواسطة الاتحاد مع بيزنطة البعيدة لذلك استطاع رسل رومانوس الصغير «تحريض» أمير كييف على الاشتراك في حرب بيزنطة ضد خازاريا التي نشبت في عام ٩٣٩م.

وأطلقت الحرب يد الملك الخزري يوسف الذي جندل الكثير من القلف (غير المختونين) يعني قتل الكثير من المسيحيين ومع الأسف سكت المصدر عن أين حدثت تلك الإعدامات بالجملة ولكن كما يبدو عانى المسيحيون داخل خازاريا لأنه ليس هناك ذكر عن الحملة، واعتبرت تلك الإعدامات كرد على اضطهاد

١- كان باسيليوس المقدوني أرمنياً هاجر إلى مقدونيا وكان عهد السلالة المقدونية زمن سيطرة الأرمن في حاشية القصر والحكومة.

اليهود في بيزنطة ولكن لا يجوز عدم الإشارة إلى أن المسيحيين الخزر ليس لهم ذنب عن أعمال الإمبراطور البيزنطي.

ثم ظهر الروس الذين سمي قائدهم في المصادر خ - ل - غو (خلكو - يعني أوليغ) مع أنه حكم في هذا الوقت وفقاً لـ «قصة السنين الغابرة» إيغور الشيخ وإذا كان خلكو - الاسم الأصلي فذلك يعني أنه سمّي أوليغ النبوي ولكن على الأصح هذا لقب القائد الاسكندنافي يعني كناية عن إيغور نفسه لأن خلكو هو لقب «ملوك روسيا».

وفي عام ٩٣٩م (أو في بداية ٩٤٠م) استولى خلكو في هجوم ليلي مفاجئ على مدينة س - م - ك - راي (سامكريتس على شاطئ مضيق كيرتشينسكي) «لأنه لم يكن هناك الرئيس الحاخام حشمونيا» وعلى ما يبدو أن هجوم الروس كان مفاجأة للملك الخزري.

وفي الوقت ذاته أخضعت عساكر روسية أخرى يقودها الفويفود[1] قبائل الأوليتشيين الساكنين في أسافل الدينستر والبوغ وحارب الأوليتشيون في الماضي في عام ٨٨٥م ضد الأمراء الكييفيين وبالطبع كانوا متحدين مع الخزريين ونجحوا في ذلك الوقت بالدفاع عن استقلالهم عن كييف. وفي النهاية بعد الحصار الذي دام ثلاث سنوات وانتهى في عام ٩٤٠م استولت قوات الروس على حصن الأوليتشيين - مدينة بيريستشن وفرضوا عليهم الإتاوة لصالح الفويفود سفينيلد.

من هنا يتبين أن الحرب قد جرت على أرض واسعة وبتفكير عميق وهادف للغاية. وهذا قطعاً لا يشبه حادث حدود عرضياً (بالمصادفة) أو غارة نهب من قبل فصائل المتطوعين الفارياغيين.

ورد الملك الخزري على الضربة بضربة فحرر القائد «بيساخ المكرم» سامكريتس وقذف بالروس عن شواطئ بحر آزوف وتوغل في القرم واستولى هناك على ثلاث مدن يونانية حيث قتل الرجال والنساء ولكنه توقف عند أسوار خيرسون حيث نجا السالمون المسيحيون من سكان القرم.

ثم جاء بيساخ إلى خلكو يعني اقترب من كييف واكتسح البلاد وأجبر خلكو رغماً عن إرادته أن يتحارب مع البيزنطيين حلفائه السابقين وذلك من أجل انتصار الجماعة التجارية اليهودية في إيتيل.

وكل هذه الأحداث مغفلة في الحوليات الروسية باستثناء الحملة التي تلتها على بيزنطة وهذا مفهوم: لأنه من المحزن أن يكتب المرء عن هزيمة بلاده ولكن هذه الهزيمة أكدتها المعطيات الجديدة غير المباشرة.

١- ضمّت روسيا بالمعنى الضيق ثلاث مدن كييف تشيرنوغوف وبيرياسلافل.

ونحو عام ٩٤٠م سقطت إمارة كييف الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر (في النهاية اضطر السفيريان والراديمتشيين إلى الخضوع ثانية).

وسلم الروس للمنتصر - السيوف أفضل أسلحتهم وعلى ما يبدو تعهدوا بدفع الإتاوة المجمعة من قبائل الضفة اليمنى وهذا يعني من الدريفليان (انظر أدناه) ووقعت أراضي الأوليتشيين والتفيرتسيين المحتلة - في أسافل الدينستر والدانوب في أيدي البتشينيغ وتحرر الكريفتشيون وشكلوا إمارة بولوتسك المستقلة وتحولت شظايا روسيا الفارياغية من حليف غير متساوٍ في الحقوق مع الخاقانية الخزرية إلى تابع مجبر على دفع دم أبطاله إتاوة.

إن الروس قطعاً كانوا لا يتحاربون مع اليونان من دون سبب، فنسطر لم يقدر أن يجد مخرجاً للأسباب الملائمة للحملة واقتصر فقط على الحقائق المثبتة العارية ومقابل ذلك كشف العبري المجهول عن الأسباب التي أدت إلى المأساة ونسبها دون افتخار إلى ضغط «بيساخ المكرم» على الأمير الروسي خلكو (اسم إيغور لم يكن معروفاً عند اليونان بعد) الذي «حارب ضد القسطنطينية في البحر أربعة أشهر وسقط هناك أبطاله لأن المقدونيين تغلبوا عليه بالنار وهرب هو وخجل أن يعود إلى بلاده ومضى بحراً إلى فارس وسقط هناك هو وجميع معسكره وفي ذلك الوقت أصبح الروس خاضعين لسلطة الخزر» وجرت هذه الحرب في عام ٩٤١م وكانت عواقبها المرعبة بالنسبة للأبطال الروس موصوفة في «قصة السنين الغابرة» وبغض النظر عن اجتهاد مسجل الحوادث التاريخية أن يصور الأحداث باعتناء أكبر: عشرة آلاف سفينة أنزلت قوات الإنزال على الشاطئ الشمالي لآسيا الصغرى. وبدأت تلك الفظائع التي لم تكن مألوفة حتى في تلك الأيام. لقد صلب («(SIC» تعني أن الكلمة هنا منقولة كما وردت - المترجم) وأعدموهم رمياً بالأقواس ودقوا المسامير في الجماجم وحرقوا الأديرة والكنائس رغم أن الكثير من الروس كانوا قد اعتنقوا الأرثوذكسية منذ عام ٨٦٧م وكل هذا يشير إلى حرب من طبيعة مختلفة كلياً عن حروب القرن العاشر الأخرى وعلى ما يبدو أن المحاربين الروس تمتعوا بخبرات المدربين المتنفذين وليس بخبرة السكندنافيين فقط.

ودفع اليونان بالقوى إلى الأمام وقذفوا بالإنزال إلى البحر وحرقوا القوارب الروسية بالنار اليونانية فمن الروس من احترق ومنهم من غرق وتخلص اليهود - الخزر من كلا العدوين المحتملين.

ووفقاً لـ «قصة السنين الغابرة» تكررت الحملة على بيزنطة في عام ٩٤٤م ولكن أ. أ. شاخماتوف يعتبر أن القصة عن هذه الحملة مختلقة وعلى ما يبدو أنه غير محق[١].

١- يعرض د. س. ليخاتشيف هذا الرأي معتمداً على الاتفاقية المعقودة في عام ٩٤٥م لصالح الروس، إلا أنه بحسب تدقيقه هو كان إيغور قد قتل في خريف ٩٤٤م وبالتالي كانت الاتفاقية معقودة سابقاً مع حكومة أولغا بعد الانقلاب المفاجئ بالتوجه السياسي.

وفي عام ٩٤٣-٩٤٤م رمى اليهود - الخزر بالمحاربين الروس الناجين إلى أذربيجان حيث سكن الديالمة الشيعة.

وحطم الروس أثناء الإنزال قوات حاكم أذربيجان المرزبان ابن - محمد واستولوا على مدينة بيردا على شاطئ كوزي وحاصر المرزبان القلعة وتكبد كلا الجانبين في الاشتباكات المستمرة خسائر كبيرة ولكن ظهر أن الدوسنتاريا كانت أرهب من سهام الديالمة وسيوفهم، وانتشر الوباء في معسكر الروس وبعد ذلك ما إن قتل قائد الروس في أحد الاشتباكات حتى شقوا طريقهم إلى الشاطئ وأبحروا عائدين إلى خازاريا.

وهكذا خلال ثلاث سنوات من التحالف مع الملك يوسف تكبد الروس هزيمتين قاسيتين وفقدوا الكثير من المحاربين الشجعان ولكن حتى لو انتصروا فالنصر ما كان ليعطيهم شيئاً لأن التمسك بآسيا الصغرى أو ما وراء القفقاس كان مستحيلاً وزد على ذلك غير ضروري ونفذت كلتا الحربين لصالح الجماعة التجارية في إيتيل ليس غير وظهر أن على الروس - السلاف أن يتقاسموا المصير مع التيورك - الخزر.

من المذنب؟

قد يبدو أن العدوان لصالح الجماعة التجارية اليهودية الحاكمة كان من عمل أيدي المرتزقة الخوارزميين والمحاربين الروس. لقد كان ثمرة الإرادة الشريرة للملوك الخزريين بنيامين وآهرون ويوسف المتجاهلين الخاقانات الخزريين الذين لم يحفظ التاريخ أسماءهم، وفي الواقع سفك الكثير من الدم ومات من غير ذنب سكان شواطئ البحر الأسود وبحر قزوين واستشهد الأبطال الروس من أجل شأن الغريب، وكان الخزر مستلبين مهانين وفقد الآلان مقدساتهم المسيحية ودفع السلاف الإتاوة عن كل بيت ومدخنة، فقط لم يمسوا البتشينيغ والغُزّ لم يغمضوا عيونهم قائمين على حراسة خيمهم من الهجوم المفاجئ، هذه الفظاعة الدائمة كانت قاسية على جميع الشعوب ما عدا زعامة إيتيل التجارية والمرتزقة الذين خدموها، ولكن هؤلاء الأخيرين دفعوا دماءهم من أجل رواتبهم المعتبرة.

ولكن لو حاولنا الحكم على الموقف الذي شكلته الجماعة اليهودية الخزرية فعلى النور يبرز السؤال وماذا كنتم تنتظرون؟ لقد وصل اليهود إلى خازاريا نتيجة للاضطهاد الذي تعرضوا له في إيران لقربهم من المزدكيين وفي بيزنطة لتنكيلهم باليونان في زمن الاحتلال الفارسي لسوريا وفلسطين والمنافسة التجارية التي سببوها مع اليونان والأرمن وكان هؤلاء لا يقلون براعة عن اليهود في العمليات التجارية فضلاً على ذلك لم يستفيدوا من دعم حكومتهم، ولكي يتخلصوا من المنافسين استفادوا من دعم الحكومة الغربية العربية ولكن الخليفة طلب منهم

المساعدة في العمليات الحربية كتسليم القلاع المسيحية على سبيل المثال الأمر الذي أدى إلى بيع جميع المسيحيين الذين لم يقتلوا أثناء الاستيلاء على المدن عبيداً وتدنيس المقدسات المسيحية ومن البديهي أن أقرباء القتلى والذين من الدين نفسه لم يكونوا مبتهجين.

بالضبط تماماً كما تصرف الوثنيون حلفاء الخزر مع المدن الإسلامية باستثناء وحيد هو أن الديالمة الشيعة - الجبليين الذين لم يعرفوا التجارة راحوا ضحية اليهودية - الخزرية. ولكن في عام ٩٤٥م دخل قائد الديالمة إلى بغداد وصار يحكم باسم الخليفة متخذاً لقب «أمير الأمراء» (القائد الأعلى) ودل هذا على أن اليهود - الخزر قد خسروا الحرب من أجل احتلال أوروبا الشرقية.

وحصلت الجماعة اليهودية الخزرية على القوة العسكرية الضرورية من آسيا الوسطى ودفعت لها إتاوة أوروبا الشرقية ولكن هل استطاعت أن تتصرف بخلاف ذلك؟

ولكن بخروج السلطة من يدها فقدت الثروة المكدسة والسيطرة على تجارة الترانزيت (المرور) وكل مقومات الحياة بالتالي، والمواطنون والتجار لم يستطيعوا العودة إلى الزراعة وتربية الماشية لأنه لم تكن عندهم الخبرات الضرورية لهذه الأعمال وبفقدانهم السلطة فقدوا الثروة بعد ذلك الحياة، لهذا السبب كان عليهم الصمود والانتصار.

ولكن الانتصار وتوسيع الدولة لا يؤديان دوماً إلى الازدهار والثبات والاستقرار، فإخضاع الإثنوس القوي يكلف أحياناً غالياً أكثر من الإيرادات التي يمكن الحصول عليها وهذا ما أظهره البلغار الكامسك الأوائل الذين تحرروا من السيادة الخزرية وبعد البلغار وفي ظروف غامضة حقق الغُزّ والبتشينيغ الاستقلال وصاروا جميعهم أعداء لليهود - الخزر.

وسمحت انتصارات بياسخ للملك اليهودي بممارسة الظلم على سكان منطقة الدنيبر الروس لأن الملوك الفارياغ كانوا جاهزين لدفع إتاوة الخضوع المحصلة من السلافيين الأقل تنظيماً وبالتالي الأقل خطورة ومن هنا نشأت الأحداث التالية (التي تلت).

وهكذا لو طبقنا المعايير الإنسانية الأخلاقية على العملية التاريخية حينئذٍ يمكن أن يكون المتهم في مصائب الأرض الروسية هم الفارياغ. بالطبع لا لأنهم استولوا عن طريق الخدعة على كييف. لأن الخدعة في الحرب ليست خيانة ترتكب ولا لأنهم نهبوا القبائل السلافية الخاضعة لأن أولئك لم يدافعوا عن الحرية مفضلين دفع الإتاوة وإنما لأن الذين ترأسوا قبائل البوليان المدعوون في ذلك الوقت روساً هؤلاء الملوك «خسروا ببراعة» جميع الحروب: مع اليونان والبتشينيغ والديالمة واليهود والخزر، ومن الشنيع أنهم بانتزاعهم المبادرة من الروس أوصلوا البلاد إلى الانهيار التام وحولوها إلى تابع للملوك الخزريين ولكن الأسوأ هو أنهم سلموا اليهود - الخزر السيوف كإتاوة وهذا يعني في حقيقة الأمر

أنهم جردوا قواتهم من السلاح وهؤلاء المغتصبون زجوا بأبطالهم إلى أعداء مسلحين بالنار اليونانية أو بسيوف محنية قليلاً وجسد هذا عدم الشعور بالمسؤولية كله، وهذا الاحتقار لواجبات الحاكم ليس له مبرر لائق لأي سبب كان.

إلا أن فصائل المتطوعة الفارياغية القليلة العدد ما استطاعت أن تصمد في بلاد غريبة من دون دعم من مجموعات ما من السكان المحليين أولئك الموالين للفارياغ «العطوفين على الأجانب» هم على الأرجح مذنبون أكثر من الآخرين لأنهم ضحوا بوطنهم وأراوح أبناء قبائلهم من أجل مطامعهم المغرضة وكانت مقاومة الفارياغ موجودة حتى في نوفغورود نفسها بالرغم من أن الأخبار عنها بقيت فقط في حوليات نيقونوفسكي المتأخرة[١].

ولكن إلى جانب الصلة العاطفية بالحقائق التي ماتت منذ زمن بعيد فلا مفر من تحليلها موضوعياً. لقد أراد أصدقاء الفارياغ بطريقة أو أخرى تمهيد السبيل لإدخال الأرض الروسية في السوق العالمية التي كانت في ذلك الوقت تحت إشراف (هنا تتحكم بها - المترجم) خازاريا اليهودية فروسيا وردت للسوق الدولية الفرو والقصدير والعبيد ولكنها لم تستلم بالمقابل أي شيء وذلك لأنها وردت هذه البضائع كإتاوة.

وهذا هو السبب الذي كان لأجله الأمير إيغور الشيخ أثناء جمعه الإتاوة في بلاد الديفليان مضطراً لأن يسرح قسماً من فصائل متطوعته وعلى إثر ذلك قتله الدريفليان[٢] فالمتطوعة كان يجب تسديدهم تلك الإتاوة المحصلة ولكن منها كان يجب إرسال الإتاوة إلى خازاريا لكي لا يكرر القائد بيساخ الحملة، لقد خاف إيغور الخزر أكثر فقرر جمع المبلغ المطلوب بأقل النفقات ولذلك صار يقتصد «بعتاد الأمان» ولم يقتل وحده وإنما أنصاره أيضاً ولكن لا يستحق الدعاء له وبفضل هفوة إيغور استعادت روسيا حريتها ومجدها.

١- «...النوفغورديون المهانون كما لو كانوا عبيداً عانوا الأنواع المختلفة من الشر من روريك الذي من أجله قتل في تلك السنة فاديم الشجاع والكثيرون غيره من الحكماء المتنورين النوغفورديين...» إلا أنه استحق ثقة «الموالي للغرب» وليس من دون سبب ألف نسطر «النظرية النورمانية» عن أصل الروس. وصمت عن المرحلة القديمة الحرة المجيدة من تاريخ الخاقانية الروسية ولا موجب لإقناع أولئك الذين ارتابوا بالقصص حول حملات الملوك الفارياغ فمثل هؤلاء كان في روسيا القديمة على ما يبدو الكثير.

١- وفقاً لأخبار نسطر الجافة «قتل الدريفليان إيغور ومتطوعته» ويخبر ليف دياكون أن إيغور وقع في الأسر «وقد ربط إلى شجرتين ومزق إلى نصفين» وخلط مسجل الحوادث التاريخية بسنة مصرع إيغور فبدلاً من ٩٤٥م يجب أن تكون ٩٤٤م.

انقلاب في كييف

ما دامت الحكومة الخزرية قد أخضعت لها شعوب كثيرة العدد مثل البلغار السود ومثقفة كالآلان وشجاعة كالبتشينيغ ومحبة للحرية كالغُزّ وسيطرت عليهم ببراعة لأنه كان من الممكن على الدوام رشوة الزعماء أو استئجار المقدامين من الشعب أو إغراء أصحاب النفوذ بالنساء أو تجنيد الخونة. والشيء المهم أن رد الفعل الإثنوسي النفسي كان يمكن أخذه بالحسبان لأن العناصر الخلاقة في النفسية كانت في ذلك الوقت مضغوطة بالتعاليم التقليدية الاستسلامية. ولكن السلاف - الروس القدماء في القرن العاشر كانوا خلافاً للشعوب المعدودة (المذكورة) إثنوساً عاطفياً لقد حمل الإرهاق - يعني الانتقال من طور الذروة إلى طور الجمود المرتبط بالاغتصاب الفارياغي - الكثير من الضحايا وجلب الكثير من العار ولكنه لم يدمر الرصيد الإثنوسي العاطفي في البلاد.

في الأديم الخيِّر المعطاء وفي الحياة المستقرة التي لم تخل بها لا التطورات التقنية ولا طرق التربية الأوروبية عرف الأيتام - الفارهو القامة الذين شبوا على الطوق أبناء الأبطال الذين قتلوا في البحر الأسود بالنار اليونانية وفي بحر قزوين من الوباء - من أرسل آباؤهم إلى الموت بعد نزع السيوف العزيزة منهم مسبقاً، لقد رأوا إلى أين ذهبت الجلود الناصعة البياض وفرو السنسار. ولأي سبب تجمدت أمهاتهم وأخواتهم، لقد سمعوا هتافاً من كييف حيث تربع الأمير المحمي بقوة عن الشعب باتحاده مع الملك الخزري الذي كانت قواته على أهبة الاستعداد دوماً.

وفي هذا الجو ترعرع أتراب الأمير سفياتوسلاف.

وبحسب المصدر الموثوق - الحوليات - ولد الأمير سفياتوسلاف في سنة ٩٤٢م ووالده الرسمي إيغور في عام ٨٧٩م وكان «قد عمرّ» كثيراً وحتى في هذه الحالة كان عمره في عام ٩٤٢م أكثر من ٦٦ عاماً وزوجته أولغا ٤٩-٥٠ سنة وكان سفياتوسلاف بكرهم وهو في الحقيقة كان ابن أولغا أما فيما يتعلق بإيغور روريكوفيتش فذلك على ذمة مؤلف المصدر الموثوق، وكذلك كان عمر أولغا التي قامت بالكثير من النشاط حتى وفاتها في عام ٩٦٩م أكثر مما تستطيعه عجوز في السادسة والسبعين[١] ومن المهم أن أولغا مع الابن عاشا في كييف أما في فيشغورد

١- أخطأ نسطر بحق الحقيقة في عام ٩٤٦م خطب الأمير مَالْ أولغا التي كانت في الرابعة والخمسين» يا لها من سخافة، غير أن هذا ليس وصفاً لزواج ملكي وإنما عبارة عن قصة تهذيبية مقحمة. وفي عام ٩٥٥م عند استقبالها قسطنطين الأرجواني كانت وفقاً لـ نسطر «جميلة الوجه» ما الذي حبَّب الملك... بعجوز عمرها ٦٢ عاماً؟ واحد من اثنين غير صحيح: إما عمر أولغا أو كل شيء.

فكان «معيل» سفياتوسلاف يعني معلمه شخص اسمه أسمود وقائد جيش والده سفينيلد.

واستطاع سفينيلد إعالة متطوعته من إتاوة الدريفليان والاوليتشيين واعتبرت متطوعة إيغور ذلك رفاهية زائدة بالنسبة له، واضطر إيغور أن يدفع الإتاوة للخزر وإعالة متطوعته وفي الأعوام ٩٤١ و ٩٤٣م افتدى الأمير الكييفي نفسه من الملك الخزري بالاشتراك في حملاته ولكن في عام ٩٤٤م «إيغور المدفوع من قبل المتطوعة ذهب بحملة إلى أرض الدريفليان (لكي يجمع لنفسه الإتاوة المستحقة لسفينيلد ومتطوعته) ولكن سفينيلد لم يتخل عن الحقوق المعطاة له - وحدث اصطدام متطوعة إيغور مع متطوعة سفينيلد والدريفليان الخاضعين لسفينيلد وفي هذا الصدام قتل إيغور مستسلاف ليوتا ابن سفينيلد».

تستعيد رواية أ. أ. شاخماتوف واحدة من روايات نسطر السخيفة التي بموجبها: كان إيغور طماعاً محباً للمال والكسب فيه رعونة وطيش، وفي الواقع كيف سرح المتطوعة وبقي في بلاد منهوبة؟ والأمر الآخر لو أن إيغور ومستشاريه كانوا واثقين بالدريفليان الضعفاء وسقطوا ضحية مؤامرة مدبرة في فيسغورد يبقى من غير الواضح لماذا المتطوعة الكييفية لم تنتقم لـ مستسلاف ليوتا بسبب الخيانة وموت حتى ولو ليس الأمير وإنما زملاؤه؟ وكيف أقدموا على هذا في فيشغورد في الوقت الذي فيه قوات كييف تفوق قوتهم بمرتين؟ وفي النهاية لماذا المؤامرة نجحت والانتقام لـ مستسلاف ليوتا تم فقط في عام ٩٧٥م عندما قتله أوليغ سفياتوسلافيتش وبالضبط حاشيته؟

في كلتا الروايتين هناك شيء ما ناقص وفي رأينا لم يؤخذ بالحسبان تأثير (نفوذ) الملك الخزري يوسف.

بعد حملة بيساخ صار الأمير الكييفي تابعاً للملك الخزري وبالتالي كان واثقاً بدعمه ولهذا السبب كف عن الأخذ بالحسبان بالمواثيق والاتفاقات التي عقدها مع تابعيه مفترضاً أنهم يقدرون حياته أكثر من ممتلكاتهم. هذه هي صيغة المسألة اليهودية التقليدية حيث لا تؤخذ بالحسبان الانفعالات الغريبة واستولى الاستياء على سفينيلد ومتطوعته: لقد قبلوا حرمانهم من حصة الإتاوة التي من دونها كان من الممكن تماماً تلافي الاستخفاف المهين الذي ردوا عليه بقتل الأمير. ولكن لأن إيغور والفارياغ المحيطين به بعد هزيمتين قاسيتين صاروا عديمي الشعبية في روسيا، فالمتآمرون دعمتهم جماهير الدريفليان الواسعة التي بفضلها نجح الانقلاب لأن المتطوعة الأميرية صارت في عزلة.

ثم بدأت بين الأمراء حرب قصيرة صار بعدها الحدث سفياتوسلاف أميراً تحت وصاية - أمه البسكوفية أولغا ورئيس الحكومة الفويفود (قائد الجيش) سفينيلد والدمتسسلاف ليوتا وقوام الحكومة الجديدة يتحدث عن نفسه وكذلك أسماء

الصغار الأبناء الصغار السلافية، بالاختصار تجمعت كل السلطة الفعلية في أيدي السلاف وإما في أيدي الروس المتأسلفين.

ومن غير الواضح، وربما لم تحل فقط مسألة واحدة: هل كان سفياتوسلاف ابن إيغور؟ الحوليات لا تشكك في هذا[١]، ونحن ليس عندنا ثقة بذلك[٢] ولكن في المخطط الأنثروبيولوجي هذا ليس له أهمية أبداً واستعادت أولغا وسفينيلد التقليد السلافي - الروسي وأعادت روسيا إلى ذلك الطريق الذي سارت عليه قبل الاغتصاب الغارياغي وظهرت النتيجة أكثر ملاءمة للأرض الروسية وقاسية جداً للجماعة اليهودية في خازاريا.

وانتصر العنصر السلافي على النورماني وعلى الروسومون المحافظين من الأخير على التسمية نفسها «البوليان المدعوون الآن روساً» وسمح تغيير الدين في عام ٩١٨م بالتخلص من تقاليد ما وراء البحار الشمالية ودخلت روسيا في مرحلة جمود الإثنوجينيز التي عندها تكون جميع المقدرات الثقافية مثالية.

وجهاً لوجه

استعادت روسيا التي تخلصت من القيادة الفاريغية إعمارها بسرعة رغم بعض الصعوبات.

ففي عام ٩٤٦م هدد سفينيلد الدريفليان وفرض عليهم «إتاوة باهظة» ذهب ثلثاها إلى كييف والباقي - إلى فيشفورد إلى أوليغ.

وفي عام ٩٤٧م سافرت أولغا إلى الشمال وفرضت إتاوة على كل الزرع والضرع (بالتفصيل هنا تعني على جميع الممتلكات حتى أراضي وبيوت الأوقاف ورؤوس الماشية - المترجم) ولكن الضفة اليسرى لنهر الدنيبر بقيت مستقلة عن كييف[٣] وعلى ما يبدو باتحاد مع الحكومة الخزرية.

ومن المشكوك فيه أن الملك الخزري يوسف كان مسروراً من انتقال السلطة في كييف من أيدي الملوك الفارياغ إلى الأمير الروسي ولكنه لم يكرر حملة بيساخ وبعد مرور خمس سنوات تعقد الموقف الخارجي لجماعة إيتيل اليهودية فتوقف

١- انظر نصوص المجموعة الكييفية لعام ١٠٣٩ ومجموعة نوفغورد لعام ١٠٥٠م التي راجعها أ. أ. شاخماتوف.

٢- سلسلة النسب المختلقة ظاهرة كثيرة الحدوث لاكتساب أهمية أكبر مثلاً: الاسم الأصلي للملك الروسي بافل الأول هو غوتورب.

٣- يبدو من هذا أن الراديمتشيين خضعوا من جديد للقائد فلاديمير ذيل الذئب في عام ٩٨٤م.

ليس فقط التجارة مع بغداد نتيجة لانتصار الـ Bund of وإنما التجارة مع الصين تكبدت الخسارة أيضاً. وفي عام ٩٤٦م استولى الكيدانيون على كابي - فين عاصمة الصين وعقدوا تجارة القوافل ثم سلموها إلى الأتراك - الشاتو وهؤلاء وجدوا أنفسهم بحالة عداء مع الكيدانيين ومع الصينيين، وعانت التجارة من تلك الاضطرابات بشدة أما في فرنسا فقد شبت أيضاً حرب عنيفة بين آخر الكارولنجين ودوقيات إيل - دو - فرانس وكما قيل سابقاً قدم الكارولنجيون الحماية لليهود مقابل المال ولذلك كانت هزيمتهم وسقوط الإمبراطورية الغربية المحتم لا يبشرا اليهود بأي شيء حسن.

وانطلاقاً من هذه الظروف التي أخذها الملك الخزري بالحسبان من أجل المصلحة قرر الامتناع عن القيام بحملة على روسيا ولكن التأجيل لم يكن لصالحه، فقد سافرت أولغا إلى القسطنطينية في ٩ أيلول عام ٩٥٧م ونالت هناك المعمودية مما دل على عقد اتحاد وثيق مع بيزنطة العدو الطبيعي لخازاريا اليهودية، ومحاولة جذب أولغا إلى الكاثوليكية وهذا يعني لناحية ألمانيا التي دبرها الأسقف أدالبرت بتكليف من الإمبراطور أوتو الأول (الكبير ٩٣٦-٩٧٣م - المترجم) الذي حضر إلى كييف في عام ٩٦١م لم تلق النجاح ومنذ ذلك الوقت فقد الملك يوسف الأمل بالسلام مع روسيا وكان ذلك شيئاً طبيعياً، والحرب بدأت على ما يبدو بعد عماد أولغا.

وفيما يتعلق ببدء حرب خازاريا مع روسيا في الخمسينيات من القرن العاشر فقد حددها كتاب الملك يوسف إلى حسداي ابن شفروتو وزير عبد الرحمن الثالث - الخليفة الأموي في أسبانيا والذي كتب قبل عام ٩٦٠م «أنا أعيش عند مدخل النهر ولا أسمح للروس القادمين بالسفن بالتوغل إليهم (المسلمين) وكذلك بالضبط لا أسمح لجميع أعدائهم القادمين براً بالتغلغل في بلادهم وأنا أخوض معهم (أعداء المسلمين - ل. غ) حرباً قاسية ولو تركتهم (بسلام ل. غ) لكانوا دمروا جميع بلاد الإسماعيليين حتى بغداد».

بالطبع هذه مبالغة فالبويهيون أمسكوا بشدة بإيران وبغداد وأذربيجان وعلى ما يبدو أن يوسف أراد استمالة خليفة أسبانيا إليه لكي يحاول إنشاء حلف مضاد لبيزنطة في البحر الأبيض المتوسط حيث استعاد اليونان بمساعدة الروس بالضبط في ذلك الوقت كريت قاعدة القراصنة العرب - الأسبان وفي عام ٩٦٠م انتصر نقفور فوقا (فوكاس) وتحطمت آمال الملك يوسف بالحصول على مساعدة المسلمين الغربيين.

غير أن بيزنطة لم تتمكن من مساعدة روسيا المتجددة لأن قوى اليونان كانت مقيدة بالهجوم على كيليكية وسوريا وفي الفترة الفاصلة بين عامي ٩٦٥-٩٦٦م استولى نقفور فوكاس على المصيصة وتارس واحتل قبرص ووصل حتى أسوار «مدينة الله العظمى» إنطاكية.

وكلف هذا النصر غالياً لأن الجوع ساد في عام ٩٦٥-٩٦٦م في القسطنطينية وارتفع سعر الخبز ٨ مرات وسقطت شعبية الحكومة.

إلا أن الصداقة مع روسيا كفلها اتحاد روسيا مع البتشينيغ المهمين في الحرب مع خازاريا. ووجد البتشينيغ أنفسهم مع وصولهم إلى الأطراف الغربية للسهب في موقف معقد للغاية: بين اليونان والبلغار والروس ولكي لا يسحقوا عقدوا معاهدات اتحاد مع الروس واليونان وأمنوا سلامة التجارة بين كييف وخراسان وأمدوا الروس بالسيوف الضالعة مقابل السيوف الثقيلة. واستمر هذا الاتحاد حتى عام ٩٦٨م وهذا يعني حتى النزاع الروسي - البيزنطي المتتالي ولكن في اللحظة الحاسمة في الحرب مع خازاريا كان البتشينيغ إلى جانب الأمير الكييفي.

وكان أنصار الملك الخزري في ذلك الوقت الآسي (الاوسيتيين) والكاسوغ (الشركس) الذين شغلوا في القرن العاشر سهوب شمال القفقاس إلا أن ولاءهم للحكومة اليهودية كان مشكوكاً فيه وحميّتهم اقتربت إلى الصفر وظهروا أثناء الحرب بفتور شديد وكذلك امتنع الفياتشيون - دافعو الإتاوة للخزر - تقريباً أما البلغار فتخلوا نهائياً عن الخزريين بالمساعدة (فامتنعوا نهائياً عن مساعدة الخزريين) وتصادقوا مع الغُزّ أعداء الملك الخزري واستطاع هذا الأخير أن يعتمد فقط على مساعدة مسلمي آسيا الوسطى.

إخلاص ومنفعة

يبدو من البديهي أن حليف خازاريا اليهودية في الشرق كان دولة السامانيين الطاجيكية المعروفة بفضل التجارة الخارجية النشيطة والثقافة الساطعة إلا أن وضع هذه الدولة كان معقداً لأنه خلال ١٥٠ عاماً من سيادة العباسيين أحفاد العرب في آسيا الوسطى وإيران استطاع الفرس والصغد وقسم من بارثيا أن يتكيفوا مع الظروف الجديدة وقبل بداية القرن العاشر اندمجوا في إثنوس طاجيكي متلاحم وترأست الطاجيك بالذات سلالة السامانيين المحلية والحضارة التي أقاموها سطعت كالألماس بالنسبة للآخرين الواقعين في إطارها.

وهنا لا توجد إمكانية في نبذة مختصرة لوصف هذا العصر الغني ولكن البلورات تظهر عند همود المغما فخلال مئة عام فقط استطاع الدخكان (الفلاحون القرويون الطاجيك - المترجم) الذين أعلوا عرش إسماعيل الساماني الذوبان في سحر الحدائق وصخب الأسواق البهيجة وفخامة الجوامع السنية. فأحفاد المحاربين صاروا مسلين والسذج مثقفين.

وسرعان ما أخذ السامانيون يشترون العبيد الأتراك (الغلمان) ويشكلون منهم القوات لكي يحافظوا على دولتهم. وأصبح هؤلاء عبيداً شرعيين استطاعوا أن يترقوا بالمناصب (دوخوا الرؤوس في بعض الأحيان - حتى وصلوا إلى ولاة للأقاليم)، وبما أن الغلمان كانوا في الحقيقة أقوى بكثير من الدخكان الأحرار والعبيد لأن السيوف كانت في أيديهم وكانوا جميعاً محاربين محترفين فبهذا الشكل لم تكن أيّ قوات شعبية مخيفة.

ومن خلف الحدود كان التيورك الذين صاروا مسلمين وكذلك الكارلوك الذين اعتنقوا الإسلام في عام ٩٦٠م ومن بعدهم المحاربون التشيغيد والياغما الشجعان وقد اكسبهم هذا عطف الجماعة السنية القديرة التي خشيت السامانيين الأحرار الفكر. وبدا الشيعة للمؤسسة الدينية المسلمة العدو الأكثر عداوة من غيره.

وقبيل عام ٩٩٩م غدر الجميع حرفياً بالسامانيين: المرتزقة الأتراك ورجال الدين ومواطنو بخارى ولكن قبل هذا لم يستطيعوا مساعدة اليهود - الخزر أيضاً وكانت واحة خوارزم الوحيدة غير البعيدة عن بحر أورال في وضع مختلف.

كانت خوارزم مثل جزيرة خضراء وسط الصحراء الصفراء وسكانها القدماء - الخراسانيين أو الخفاليس - قد هربوا من المذبحة العربية، وأعادوا تنظيم

مدن الصغد وخضع خوارزم شاه للعرب في عام ٧١٢م بالموافقة على دفع الجزية والتعهد بتقديم المساعدة الحربية وبذلك أنقذ شعبه الذي شاخ وتعب[١].

وفي القرن العاشر كان في الواحة الخوارزمية دولتان: - السكان القدماء في كيات وحكمها خوارزم شاه. والأتراك المستوطنون في أورغينيتش وحكمهم أمير ثم توحدتا في عام ٩٩١م وفي ذلك الوقت صارت خوارزم تشكيلاً إثنوسياً متحضراً ناطقاً بالتركية.

وحافظ على هذا التقليد الذي لا غنى عنه أحفاد الخراسانيين أما الباسيونارية فقد أقحمها الأتراك وبعد القرن العاشر وبفضل الظروف الاستثنائية الملائمة تحول التكامل والمعايشة إلى توحد نظامي - إثنوس متفوق.

ويمكن التفكير من أين ظهرت الباسيونارية عند رحل منطقة أورال فهؤلاء أحفاد السرماثيين الذين يجب أن يكونوا قد أضاعوها (أي الباسيونارية - المترجم). بوقت واحد مع الخراسانيين والصغديين والبارثيين. أجل هكذا، ولكن في القرنين السادس والسابع في عهد الخاقانية التركية - الغربية من ضفاف أرخون جاء انسياق إثنوسي نشر تلك السمة على أطراف مساحة الإسكان[٢].

وإذا قلنا ببساطة إن الأبطال السهبيين أثناء الحملات إلى الغرب أهدوا الحسناوات المحليات عطفهم والأحفاد الذين ظهروا ورثوا باسيونارية آبائهم.

ووصَفَ المعاصرون الخراسانيين هكذا «قاتلوا الغُزّ بشجاعة وكانوا بعيدي المنال بالنسبة لهم (هنا استعصوا عليهم - المترجم) الاسخريوطي «إنهم أناس مضيافون محبون للأكل. شجعان وأشداء في القتال» المقدسي «ناسها (مدينة كايات) مجاهدون في سبيل العقيدة ومحاربون» «سكانها (أورغينيتش) اشتهروا بالحرب والقتال ورمي السهام» (حدود العالم) «كل خريف مع حلول البرد يقوم ملك الخزر بحملة ضد الغُزّ» البيروني.

وبما أن الغُزّ أصبحوا في القرن العاشر أعداء للمملكة الخزرية إذن كان للملك يوسف كل الأسباب للاعتماد على مساعدة الخوارزميين لأن الرفاهية الاقتصادية لكل من أورغينيتش وكايات كانت في النصف الأول من القرن العاشر قائمة على التجارة مع خازاريا المارة عبر استيورت ومانغشلاك بالالتفاف حول الغُزّ، وسواء أكان الملك يوسف أو أي حاكم آخر يهودياً كان على اورغينيتش

١- الخراسانيون - الأقرباء القريبون للبارثيين وبالتالي التاريخ الموجود لإثنوجينيز الخراسانيين هو من القرن ٤-٣ق.م ولكن سبقته فترة حضانة من الصعب تحديد امتدادها يعني نحو القرن العاشر ق.م اجتاز الباسيوناريين جميع أطوار الإثنوجينيز وكانوا في مرحلة الاتزان مما سمح لهم بتقبل التيورك الباسيوناريين في وسطهم دون مقاومة، ساعين إلى المواءمة معهم وهذا كون إمكانية التمثل التام على أساس سلمي.

٢- أثبت ن. إي. فافيلوف أن التحولات الكامنة تتراجع تدريجياً إلى أطراف نطاقات التغير النوعي والجنسي. (من رسالته إلى الأكاديمي ف. ي. فيرنادسكي).

مساعدة الجماعة اليهودية الخزرية لأن ذلك فقط لصالحها وإنما لبلادها أيضاً، ولكن في اورغينيتش حكم الأتراك الذين من أجل العقيدة مضوا للاتحاد الأقل فائدة مع البلغار الذين تحرروا من الخزر وسمح الغُزّ المتحاربون مع الخوارزميين للتجار بالمرور عبر أرضهم مقابل الحصول على الرسوم وتلك التجارة كانت أقل ربحاً للخوارزميين ومقابل هذا كانت ذمة الأتراك صافية.

إن مفهوم «الربح» عند مختلف الإثنوسات وفي مختلف العهود مختلف وبالنسبة لأمير اورغينيتش عنت النقود الكثير ولكن ليس كل شيء فهو لم يستطع أن يشتري بها عطف الملالي (مفردها ملا) والأوليموف (؟؟) ولا حماسة فرسانهم الرماة ولا ود الجيران الرحل حتى ولا حب نسائهم. في آسيا ليس كل شيء يباع والكثير يعطى مجاناً من أجل الود الصادق الذي يجب أن يمتلكه الأمير إذا لم يرد أن يبدل العرش بالقبر (لكي يحتفظ بعرشه) وبما أن الرأي العام للخوارزميين في القرن العاشر تشكل في الحرب الدائمة من أجل العقيدة. إذن كان على قائدهم أن يتصرف بانسجام مع السلوك المقولب المقرر، وهكذا هو فعل.

ويخبر المقدسي «كان حاكم جرجان يستولي في بعض الأحيان على مدن خازاريا» وفي مكان آخر «سمعت أن المأمون غزاهم (عن الخزر) من جرجان وانتصر عليهم وأدخلهم بالإسلام، ثم سمعت أن القبيلة التي تسمى الروس من روما غزتهم واستولت على بلادهم» وابن مسكويه وابن الأثير يخبران عن الهجوم في عام ٩٦٥ على خاقانية خازاريا التي شعبها من الأتراك. قدمت خوارزم لهم المساعدة بشرط دخول الخزر في الإسلام وبعد ذلك «اعتنق الخاقان الإسلام بنفسه» فلنقارن هذه الأخبار مع الذي عرفناه.

في عام ٩٤٣م كانت خازاريا اليهودية والخوارزميون بشهادة المسعودي متحدين وفي عام ٩٦٥ سقطت الدولة الخزرية، وبالتالي حدث تغير في سياسة خوارزم في الفترة بين هذين التاريخيين، ومن المنطقي أن نفكر أن حظوظ الملك يوسف قد سقطت بعد سفر أولغا إلى القسطنطينية في عام ٩٧٥م يعني في تلك السنوات (٩٥٧-٩٦٤م) حَوَّل الخوارزميون بحجة حماية الخزر من الغُزّ والروس سكان دلتا الفولغا الوثنيين إلى الإسلام وهؤلاء أقدموا على ذلك عن طيب

خاطر لأنهم لم يروا من حكومتهم أي شيء حسن وبهذا الشكل كان سفياتوسلاف قد فتح الطريق إلى إيتيل وأنهى الاستعداد للحرب[١].

الفصل الخامس من المأساة

في عام ٩٦٤م وجد سفياتوسلاف نفسه عند نهر أوكي في أرض الفياتشيين وكانت حرب الروس مع اليهود الخزر في معمعانها الكامل، ولكن الأمير الكييفي لم يقرر القيام بالهجوم عبر سهب الدون الذي كان تحت سيطرة الفرسان الخزريين[٢] فقوة الروس في القرن العاشر كانت بالقوارب والفولغا عريض وبنى الروس وأصلحوا القوارب من دون اصطدامات مع الفياتشيين. وفي ربيع عام ٩٦٥م انحدروا في نهر أوكي والفولغا إلى إيتيل إلى مؤخرة القوات النظامية الخزرية المتوقعة (المنتظرة) العدو بين الدون والدنيبر[٣].

وكانت الحملة مدروسة بتمعن لا عيب فيه وباختيار الروس للخطة المناسبة نزلوا إلى الشاطئ مستكملين بالاحتياطات والمؤن غير آنفين من السلب وعادوا إلى قواربهم وانساقوا مع التيار في الفولغا غير خائفين من هجوم البلغار أو البورتاس والخزر المفاجئ وما حدث فيما بعد يمكن فقط التخمين به.

وعند مصب نهر ساريس يشكل الفولغا مجريين: الغربي منهما هو - الفولغا الأصلي والشرقي هو الآختوب وفيما بينهما تقع جزيرة خضراء قامت عليها إيتيل قلب خازاريا اليهودية والضفة اليمنى للفولغا - هي سهل غضاري رملي يمكن أن يقترب منه البتشينيغ إلى هناك والضفة اليسرى لنهر الآختوب هي عبارة عن - كثبان رملية حيث كان الغُزّ فيها أسياداً. فإذا انطلق قسم من القوارب الخزرية في الفولغا والآختوب إلى الأسفل من إيتيل فستتحول عاصمة خازاريا إلى مصيدة للمدافعين دون أمل بالنجاة.

وتحرّك الروس إلى الأسفل في الفولغا بالعوم الذاتي ولذلك كان بطيئاً للغاية بحيث توفر الوقت للسكان المحليين (الخزر) للهرب إلى أجمات الدلتا التي يصعب

١- يفترض س. ب. تولستوف خلافاً للمقدسي أن احتلال الروس لخازاريا سبقه هجوم الخوارزميين عليها فهو يحاول مقارنة اقتحام الروس بحملة فلاديمير على البلغار في عام ٩٨٥م ومثل هذا الرأي لا أساس له.

٢- هذا رد على شك أ. أ. شاخماتوف.

١- يفترض س. ب. تولستوف أن الروس تلاقوا مع الغُزّ عند مضيق الدون الأعلى مع الفولغا وتحركوا صعداً في نهر الفولغا. إلا أن التيار في الفولغا شديد للغاية بحيث إن الصعود عكس التيار ممكن فقط بمساعدة النواخذة، وهذا خطير للغاية في ظروف الحرب ولذلك يجب الأخذ بالحسبان أن الروس نزلوا في نهر أوكي والفولغا بطريقة العوم الذاتي الذي لا يتعب به المحاربون ويكونون جاهزين للمعركة مع العدو.

اجتيازها ولا يمكن أن يعثروا عليهم فيها حتى لو فكروا بالبحث عنهم. ولكن أحفاد اليهود الأتراك أبدوا الشجاعة القديمة، وترأس المقاومة ضد الروس الخاقان غير المسمى وليس الملك يوسف، وذكر مسجل الحوادث التاريخية بشكل مقتضب «في الحرب الماضية استطاع سفياتوسلاف أن يستولي على معسكرهم ومدينتهم[1]» وهيهات لو بقي واحد من المغلوبين على قيد الحياة وإلى أين هرب الملك اليهودي وأنصاره - المقربون - غير معروف.

وهذا النصر قرر مصير الحرب ومصير خازاريا وزال مركز النظام المعقد، وتفكك النظام ولم يعد الخزر الكثيرون يضعون رؤوسهم تحت السيوف الروسية، فلم يعد ذلك ضرورياً لهم وقد عرفوا أن الروس ليس لهم أن يقوموا بشيء في دلتا الفولغا. وبالتالي فقد سرهم أن الروس خلصوهم من السلطة الظالمة، ولهذا السبب سارت حملة سفياتوسلاف التالية - على الطريق المسلوكة أثناء الترحلات السنوية للخاقان التركي - الخزري عبر «الأرض السوداء» إلى التيريك الأوسط يعني إلى سيمندير ثم عبر سهب الكوبان إلى الدون وبعد الاستيلاء على ساركيل إلى كييف. بغير عوائق.

ونهبت العساكر الروسية التي جاءت خلال الانتقال الطويل في شبه الصحراء البساتين النضرة والكروم حول سيمندير وتمكن سكان تلك القرى غير المحمية من التواري في الغابة الكثيفة على ضفة التيريك، ومن المرجح أن سكان ساركيل قد هربوا مسبقاً لأنه لم يبق سبب للقتال من أجل أي شيء. وإن فناء الجماعة اليهودية في إيتيل أعطى الحرية للخزر ولجميع الشعوب المجاورة واستوى المتعرج وسار التاريخ في المجرى الطبيعي.

وانتشر اليهود الخزر الذين سلموا في عام ٩٦٥م عند أطراف دولتهم السابقة واستوطن بعضهم في داغستان (اليهود الجبليون) وآخرون في القرم (القرميون) وتحولت هذه الإثنوسات الصغيرة بفقدها الاتصال بالجماعة القائدة إلى بقايا متلائمة مع الجيران الكثيرين وجلب تفكك الوهم اليهودي - الخزري لهم وللخزر الطمأنينة.

عبدة العالم المأسور

لقد وصفنا المأساة الخزرية ولكننا لم نفسرها فما زالت أسبابها غير واضحة، ولماذا سيطرت الجماعة اليهودية الكثيرة العدد المحرومة من الأصدقاء المخلصين والمكروهة من الجيران وغير المدعومة من الأتباع مدة ١٥٠ عاماً

٢- هناك قيل «ومدينتهم وبيليا فيجا استولى عليها» يعني «المدينة» ليست بيليافيجا.

على التجارة العالمية وتزعمت على النصف الطيب من الجماعات اليهودية المشتتة، فمن دون رفقاء طريق وحلفاء مخلصين لا يمكن تحقيق مثل هذا الأمر، وهذا يعني أن خازاريا اليهودية كان عندها مثل هؤلاء الحلفاء.

«عدو عدوك - صديقك» هكذا يقول المثل القديم وحتى لو كانوا لا يحبوننا ولا ينالون منا أي شيء فهم يتصارعون فيما بينهم وبهذا عينه أعداؤنا يساعدوننا. ففي القرون ٩-١١م كان أتباع تعاليم الداعية والفيلسوف ماني الذي أعدم في إيران في عام ٢٧٦م غير مسالمين للمسيحية والإسلام والبوذية، انتشرت تعاليمه إلى الشرق حتى البحر الأصفر (بحر الصين - المترجم) وإلى الغرب حتى خليج بسكاي (بسقونيا - المترجم) ولكنها لم تتثبت في أي مكان بسبب عدم مسالمتها، وقبيل القرن التاسع زالت الجماعة المانوية من ذاتها بذاتها ولكنها أعطت البداية لكثير من التعاليم والمصادمات التي ولدت عدة حركات قوية معادية بشدة للمسيحية والإسلام ففي كل مكان حيث ظهر الدعاة وجدوا أنصاراً مخلصين وفي كل مكان سالت الدماء بتلك المقاييس التي هزت حتى الكثير من أناس القرون الوسطى المبكرة المعتادين على ذلك، وفي الحقيقة لماذا كان ضرورياً من أجل وجهات نظر ونزعات شاعرية إلى العالم التضحية بالنفس وقتل الآخرين؟ ولكن مع ذلك تذابحوا!.

لقد صدم الدعاة المانويون في فرنسا الجنوبية وحتى في إيطاليا الجماهير حتى أن البابا في بعض الأحيان خاف مغادرة الحصن الحصين لكي لا يتعرض في شوارع المدن للإهانة من الجموع المضطربة التي كان حتى الفرسان من بينها ولا سيما أن الدعاية التي تناولت الإقطاعيين منعتهم من تهدئتهم.

وعمت التعاليم المانوية في النصف الثاني من القرن الحادي عشر لومبارديا حيث أثارت نقائص الإكليروس الأعلى الاستياء المشروع بين العلمانيين وفي عام ١٠٦٢م خطب الكاهن أريالد في ميلان (ميلانو) ضد زواج الكهنة ولكنه لاقى مقاومة رئيس الأساقفة كفيديو وقتل واستمر الصراع وزد على ذلك دعم رئيس الأساقفة وخليفته الإمبراطور هنري الرابع - الشيطاني السري، أما الإصلاحيون الباباوات الكسندر الثاني وجيورجي السابع على ما يبدو لم يهتموا لا هم ولا الإمبراطور بجوهر المشكلة وإنما ببساطة بحثوا عن أنصارهم، ومن أجل تنافس الزعماء دفع الثمن سكان ميلان التي احترقت أثناء قتال الشوارع في عام ١٠٥٧م وانتشرت المانوية (المغاوية) المسماة في إيطاليا الأباتية في القرن الثاني عشر في كل المدن بالضبط حتى في روما وعند ذلك كان الفلاحون هم الأقل نزوعاً إلى الهرطقة أما الهراطقة الأكثر نشاطاً فكانوا - النبلاء والكهنة وهذا يعني القسم الأكثر ولعاً «باسيونارية» من السكان.

وفي لانفيدوك الموجودة تحت الوصاية (الرعاية) الوهمية لملوك ألمانيا صارت مدينة آلبي (أو كما تسمى الآن أوليه - المترجم) مركزاً للمانوية وبسبب

ذلك صار المانويون الفرنسيون يسمون البينيين إلى جانب تسميتهم اليونانية كاتاري (التطهيريون) وانقسمت جماعتهم إلى «الكاملين» و «المؤمنين» و «السامعين» (العلمانيين) وعاش الكاملون في عزوبية وصيام (التقشف) معلمين المؤمنين ومرشدين المحتضرين الذين على فراش الموت لاعتناق الهداية «الكاملة» لكي يتخلصوا من أدران العالم المادي، وترجم العلمانيون المتعاطفون مع المؤمنين أسفار العهد القديم إلى اللغة العامية كقصص بطولية مما غير تدريجياً المثل العليا للفروسية وبالذات السلوك المقولب لقرائها وهذه الأخيرة أفعمت البروفانسيين (سكان منطقة البروفانس - المترجم) كراهية إلى الفرنسيين كما لو أنهم إثنوس غريب عدواني وحتى عام ١١٧٦م صار القسم الأكبر من طبقة نبلاء وإكليروس لانغيدوك تطهيريون والقسم الأصغر الذي يشكله الفلاحون فضل الصمت وعدم الاحتجاج.

إن العقائد الدينية والاختلافات بينها ليست هي بذاتها الدافع إلى الخصومات والحروب المدمرة ولكنها كثيراً ما تبدو كمؤشر للأسباب العميقة التي ولدت ظواهر تاريخية عظيمة، وإن الرأي الشائع بأن الاندفاع إلى الدين في القرون الوسطى هو الذي أنجب التعصب الكاثوليكي الذي منه اشتعلت نيران أولى محاكم التفتيش - خاطئ تماماً. فقبيل نهاية القرن الحادي عشر وجد (كان) المجتمع الأوروبي الروحي والدنيوي في حالة انحطاط أخلاقي كامل والكثير من الكهنة كانوا أميين والأحبار نالوا التعيين بفضل صلات القربى والفكر اللاهوتي كان مقموعاً بالتفسيرات الحرفية للكتاب المقدس المناسبة لمستوى اللاهوتيين الجهلة، أما الحياة الروحية فكانت مقيدة بأنظمة الرهبان التي حلت وبإصرار محل الفكر الحر لحسني السلوك. وفي ذلك العصر انقسمت كل الطبائع القوية إما إلى متصوفة أو داعرة أما الناس الباسيوناريّون في ذلك الوقت فكانوا أكثر بكثير مما هو مطلوب للحياة العادية ولهذا السبب سعوا إلى الخلاص في فلسطين لتحرير قبر السيد من المسلمين بأمل أن لا يعودوا.

ولكن لم يمضِ الجميع إلى الشرق وبحث الكثيرون عن حلول لظروف الحياة دون أن يغادروا المدن الأصل - حيث عاشوا - وذلك لأن حكمة الشرق نفسها جرت إلى الغرب وحملت الجواب على المشكلة اللاهوتية الأكثر إلحاحاً. إن الله خلق العالم والخير فمن أين نشأ الشر والشيطان؟.

إن التفسير المتبنى في الكاثوليكية عن عصيان (تمرد) الملاك الذي تملكه الغرور لم يقنع العقول الثاقبة المحبة للاستطلاع فالله كلي العلم وكلي القدرة! يعني أنه كان عليه أن يستدرك هذا العصيان ويقمعه وطالما لم يقم ذلك إذن هو معترف بذنبه عن كل النتائج وبالتالي يعتبر مصدر الشر.

بالنسبة للأغلبية الساحقة الداخلة في قوام إثنوسات القرون الوسطى المسيحية كانت المشكلات اللاهوتية غير مفهومة وغير ضرورية لا حاجة إليها إلاّ أن الضرورة المحدودة للعقيدة اللاهوتية غير المتناقضة كانت موجودة عند

جميع المسيحيين تقريباً حتى عند أولئك الذين ما آمنوا عملياً في اليقينيات الدينية ولم يفكروا فيها على كل حال أيضاً.

إن طبيعة ونظام العقيدة الدينية كان لهما فائدة عملية هي - فصل الخير عن الشر وإيضاح بأن هناك شراً.

وبالنسبة لإنسان القرون الوسطى الساذج حلت هذه المشكلة ببساطة - مواجهة الله لأبليس وذلك يعني بواسطة الثنوية الأولية البسيطة ولكن قامت ضد ذلك تعاليم اللاهوتية الأحدية التي أثبتت أن الله كلي الوجود، ولكن إذا كان ذلك فإن الله حاضر في إبليس وهذا يعني أنه يتحمل المسؤولية الأخلاقية عن كل حيل إبليس.

وعلى هذا اعترض الناس المفكرون - ماذا لو أن الله - مصدر الشر والإثم ولو من خلال واسطة إبليس إذن لا معنى لعبادته وهؤلاء ترجموا نصوص العهد الجديد حيث السيد المسيح رفض أن يدخل في حل وسط مع الشيطان الذي جربه.

وعلى هذا اعترض أنصار الأحدية على النظرية التي بموجبها كان الشيطان ملاكاً طاهراً ولكنه تمرد وصار يخلق الشر بإباحية وعجرفة، ولكن هذا التصور مناقض لمبدأ الإله الكلي العلم الذي كان عليه أن يستدرك الفوارق الدقيقة لسلوك مخلوقه والكلي القدرة لأن في وسعه إبطال (إيقاف) فواحش إبليس وهو لم يفعل ذلك ولهذا السبب قدم اللاهوتيون تصوراً جديداً: الشيطان ضروري وينفذ المهمة المسندة إليه. وهذا في جوهر الأمر دل على حل وسط بين الله إبليس وماذا بالنسبة للناس العاديين؟ كان ذلك التصور ملائماً لغير المبالين بالدين أما للمؤمنون المخلصون - فقد كان غير مقبول به وعندئذٍ بدأت الأبحاث عن حل جديد وهذا يعني الهرطقات.

في عام ٨٤٧م خرج الراهب العالم غوتشالك بتعليم مطور عن تصور القديس أوغسطين حول القضاء والقدر - بعض الناس للخلاص في الجنة والبعض الآخر - لدينونة في جهنم وذلك بغض النظر عن أفعالهم وإنما بقضاء الله بحكم كونه الكلي العلم وكان هذا الرأي منطقياً تماماً ولكنه بلا معنى (سخيف) لأنه عند ذلك زالت ضرورة أن يفعل الإنسان أي شيء من أجل خلاصه وبالعكس كان من الممكن فعل أي جرم تذرعاً بأنه من قضاء الله عند خلق العالم، هذا وقد أحدثت دعاية غوتشالك استياء شديداً ونشأت على ما يبدو بسببها في عام ٨٤٩م مجادلة اشترك فيها يوحنا سكوت أيريجن الذي أعلن أن الشر غير موجود في العالم على الإطلاق. ما هو الشر - إنه عدم الكينونة، وبالتالي أزيحت مشكلة الخير والشر عموماً من اللاهوت وأبطلت بالذات ليس فقط الأخلاقيات النظرية وإنما العملية أيضاً.

وأدينت آراء أيريجن في مجمع محلي في فالنسيا في عام ٨٥٥م وأدلى المجمع برأيه لصالح تعاليم غوتشالك مع رفض مستهين بـ «خبيصة شوتلاند» وهذا يعني تعاليم أيريجن التي وصفت كأطروحة الشيطان لا كاعتقاد صحيح

ولكن لأن الشر في كلا الحالين سواء كميتافيزيقي - ما ورائي - (الشيطان) أو عملي (الجريمة) قدر اعتباره. واعتبر غوتشالك أن مصدر الشر بصيرة إلهية أما أيريجن فقد اقترح اعتبار الشر الواضح هو مقابل الخير لأن «الله لم يخلق الشر».

وهكذا وقعت مشكلة الخير والشر النظرية في مأزق وعادت الكنيسة الرومانية إلى تعاليم بيلاجيا حول الخلاص عن طريق القيام بأعمال الخير ومثل هذا الحل لم يكن قطعاً انحرافاً عمدياً عن آراء المغبوط أوغسطين بل على الأصح استيعاب عفوي حدسي (وحداني) أدى إلى نتائج عملية للأخلاق الفطرية، ولكن إن أجابت البيلاجية عن استفسارات الجماهير فإنها لم تلغ السؤال عن طبيعة وأصل الشر والشيطان المذكور في العهد الجديد أكثر من مرة، وشغل الغموض عقول الشباب المحبة للاستطلاع عند كل الشعوب وكل الطبقات.

لا لأنهم بحثوا في الفلسفة واللاهوت عن أسلوب الإثراء أو إعادة التنظيم الاجتماعي كلا، بل لأنهم احتاجوا إلى العقيدة غير المتناقضة التي كانت ستوحد الخبرة الحياتية مع التقاليد ومستوى المعرفة في ذلك الزمان.

وبالفعل هل وافق ذلك أناس القرن التاسع الميلادي الموهوبين بمخيلة متوقدة بالنسبة للاستيعاب الموضوعي الذي ألفوه، إن وصف الله «المتعذر فهمه» الذي لا يعرف ماذا يكون بالنسبة لموضوعات العالم - يبرز كعدم الكيان أو كالجوهر الفرد الذي ليس فيه أي تباين ولا تناقض بالنسبة للكينونة المثالية الذي هو علة الأشياء ذات الهيئة الذي لا يدرك كنهه «كغيهب إلهي».

وكيف استطاع الرهبان ساكنو مالمسبرغ حيث كان أيريجن رئيس الدير الصلاة لـ «الغيهب» الذي لم يقدروا أن يسمعوا عنه شيئاً؟ فهم لم يستطيعوا أن لا يروا في تعاليم رئيسهم التجديف وفي عام ٩٨٠م وبحسب روايات مشكوك فيها كلياً ولكنها مميزة للغاية أنهم قتلوه بمحبرته الخاصة. ولكن بعد تلك المشكلات الملحة لم تكن هناك أيّ تنحيات (عن الوظائف) وخاب أملهم في إمكانات السكولاستيين[1] التي عانت في القرن العاشر من انحطاط متتال وفتش الباحثون عن الله عن حلول للمشكلات لا في المدارس وتلقوا الردود من القادمين من

١- السكولاستية (Scholastica هي كلمة لاتينية تعني الحديث العلمي): الفلسفة النصرانية السائدة في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة، وقد بُنِيَت على منطق أرسطو ومفهومه لما وراء الطبيعة ولكنها اتسمت في أوروبا الغربية خاصة، بإخضاع الفلسفة للاهوت ومن أبرز رجالها ابن ميمون، وابن رشد، وتوما الأكويني الذي حاول أن يقيم صلة عقلانية بين العقل والدين. وقد استخدمت الكنيسة الكاثوليكية هذه الفلسفة ضد حركة الإصلاح.

الشرق (من شبه جزيرة البلقان) من المانويين أو كما سموهم التطهيريون[1] - فالشر أبدي أنه هيولي روح ناشط ولكنه محجوب بذاته، عالم الشر هو الروح المعذبة بأحابيل الهيولي وبالتالي كل ما هو مادي - هو مصدر للشر وما دام ذلك فالشر هو أي شيء بما في ذلك المعابد والأيقونات والصلبان وأجساد الناس وكل ذلك خاضع للفناء، وكان المخرج الأبسط الأسهل للمانويين هو الانتحار ولكنهم أدخلوا في عقيدتهم التعليم عن هجرة الأرواح وهذا يعني أن الانتحار يؤدي بالمنتحر إلى ولادة جديدة مع كل ما ينتج عن ذلك من ورطات (أذيات) ولهذا السبب من أجل خلاص الروح قُدِّم اقتراح آخر وهو إنهاك الأجساد إما بالتقشف وإما بالفجور العنيف وبعد ذلك على الهيولي التي أنهكت أن تطلق الروح من براثنها وهذا الهدف فقط نال اعتراف المانويين أما فيما يتعلق بالأجساد الأرضية فالأخلاقيات بطبيعة الحال تبطل. ولكن لو أن الهيولي - شر لكان إذن أي إهلاك لها هو - خير ولو كان القتل والكذب والخيانة وكل شيء لم يكن له أي معنى أي اعتبار وكل شيء مسموح بالنسبة لأشياء العالم المادي.

وفي التعاليم حول القدر وهذا يعني مسؤولية الإنسان عن آثامه كان الأكثر إلحاحاً بالنسبة لذلك الزمن هو أن الأطهار جمعوا بين أوغسطينية (نسبة لأوغسطين المغبوط) غوتشالك وعلم كونيّات أيريجن فهم أنكروا حرية الإرادة عند الإنسان وقسموا الناس إلى: مخلوقات آلهة الخير وآلهة الشر والأولون يمكن أن يفعلوا الشر فقط ضد الإرادة وبالتالي لا ينسب الإثم إليهم كذنب وإنما فقط يمكن أن يطيل «عودتهم إلى البيت» وبالنسبة لهذا فإنهم سلموا ببقاء الروح وبهذه (العودة) ينضمون إلى «علم كونيات» أيريجن مع هذا الاختلاف ليس غير لأن الأخير نفى بداية الشر ومقابل ذلك سمى الله «الغيهب - الديجور الإلهي» بحيث

١- تنافست المانوية الغربية مع المسيحية منذ نهاية القرن الثالث الميلادي وتعرضت لاضطهاد مماثل في عهد ذيوكليسانوس الإمبراطور وتابع الأباطرة المسيحيون هذه الملاحقة وحكم ثيودوسيوس بالإعدام على الانتماء للمانوية، ووصف أونوريوس عبادة المانوية كخيانة عظمى، وأباد الملك الوندالي هونريخ المانويين في شمال أفريقيا ونجا فقط أولئك الذين نجحوا بالفرار إلى إيطاليا وأصبحت رافنيا مركز المانوية في القرن السادس الميلادي لأن سكان لومبارديا الآريين المجبرين على الصراع ضد روما قدموا لهم الملجأ، وفي القرن العاشر انتشرت المانوية في لانفيدوك وانطبقت مع التعاليم البلغارية المماثلة وفي عام ١٠٢٢م أحرق في أورليان عشرة من التطهيريين وكان من بينهم معرِّف الملك روبرت الأول إيتيان والسكولاستي (انظر أعلاه) ليزو وكاهن القصر هربرت وخلافاً للكثيرين من التقليديين القدماء وحركات الدهماء المناهضة للكنيسة كان الانقياء شكلاً آخر مختلفاً مما ساعد على نجاح تعاليمهم.

يكون من غير الواضح لمن هو يتعبد: الله أم إبليس؟ ومن وجهة نظر تلامذته - رأوا في الحل الثاني أكثر منطقية لأن «الغيهب الإلهي» (خالق وغير مخلوق) قد جمع بذاته أقنوماً غير أقنومه وهذا يعني فكرة (خالق وغير مخلوق) والأشياء غير المنظورة مالئة العالم أما أرواح الموتى غير المستديمة (الهائمة) فهي (غير مخلوقة وغير خالقة) وهذا يعني ببساطة «مهملة» (مطلقة العنان) الهوام[1] الذين يخافهم البشر والذين لهم حضور كاذب بالرغم من الفاعلية الشريرة (بالنسبة للبشر). وبترجمة هذا البرهان المنطقي /المعضلة/ بلغة المفاهيم المعاصرة يمكن القول إن إبليس قد لعب دور الفراغ في مجموعة الأفكار التي ظهرت وكما هو معروف إن التصادمات مع المادة تكون شديدة للغاية مع أنه من دونها يفنى الوجود. ولكن بما أن التخيل الحي لذلك الزمن تطلب تشخيص بداية الخير والشر فالأطهار وحّدوا إله الشر مع إله العهد القديم - يهوه المتقلب، القاسي، الـ... خالق العالم المادي لإهانة البشر.

ولكن مسيحي القرون الوسطى طرح للحال (فوراً) السؤال: إذن كيف المسيح الذي كان إنساناً أيضاً؟ ورداً على ذلك أعد جوابين الأول واضح وهو للمنضمين حديثاً والثاني سري للمطلعين، وتكلموا علناً «أن للمسيح جسداً سماوياً أثيرياً عندما حل في مريم العذراء وخرج منها خالياً من المادة بتلك الدرجة كما كان في السابق ولم يكن له حاجة لأي شيء أرضي وإذ شوهد يأكل ويشرب فهو فعل ذلك من أجل البشر لكي لا يرتابوا بأنهم أمام الشيطان الذي فتش عن فرصة لإهلاك «المخلص» أما بالنسبة «للمؤمنين» (هكذا سموا أعضاء الجماعة) فقد قدموا تفسيراً آخر «المسيح - مخلوق... جاء إلى العالم لكي يخدع الناس ويحول دون خلاصهم والمسيح الحقيقي لم يأت وإنما عاش في عالم خاص، في أورشليم السماوية».

لا توجد تفصيلات كافية ولا يمكن الشك بأن المانوية (أحياناً ترد باسم مغاوية المترجم) في بروفانس ولومبارديا لم تكن هرطقة وإنما ببساطة ضد المسيحية وأنها أبعد عن المسيحية من الإسلام وحتى البوذية التوحيدية، إلا أنه لو انتقلنا من علم اللاهوت إلى تاريخ الثقافة فالنتيجة تكون مغايرة فالله والشيطان ظلا (بقيا) في التصور المغاوي (المانوي) ولكن تبادلا الأماكن، ولهذا السبب بالضبط حظيت الديانة الجديدة في القرن الثاني عشر بمثل هذا النجاح الهائل فالتصور نفسه كان غريباً أما تفصيلاته فهي مألوفة عادية وظهر تبديل إشارة الزائد بإشارة الناقص ليكون أسهل لفهم الباحثين عن الله وبالتالي بتبديل الإشارة يمكن إيجاد التعبير عن أي احتجاج وأي واقع مكروه بشع جداً بالفعل وعلاوة على

١- مفردها هامة: جثة يعتقد أنها تفارق القبر ليلاً لتمتص دماء النائمين - المترجم.

ذلك انقسمت التعاليم المانوية إلى العديد من الاتجاهات والمواقف والاستشرافات (وجهات النظر) ودرجات التركيز التي ساعدت عاطفة المنضمين حديثاً بحدود متفاوتة مكنتهم من أن لا يخافوا المحارق وتبرير الكذب الذي بواسطته لم يتمكنوا من إنقاذ أنفسهم فحسب في بعض الأحيان وإنما من إنزال الضربات القاتلة بأعدائهم.

وفي سبيل إنجاح دعايتهم بدل الأطهار اللباس مراراً متغلغلين في المدن والقرى كالحجاج مرة وطوراً كالتجار ولكن في أكثر الأحيان كحائكين محترفين لأنه كان من السهل على الحائك أن يجد عملاً ويعقد الاتصالات الضرورية مبقياً نفسه غير ملحوظ. ومن هنا يتبين أن هذا الأمر لم يكن حركة جماهيرية طبقية مناهضة للإقطاع وإنما غطاء وتمويه لأعضاء منظمة متحدة تحت سلطة «بابا» عاش كما قلنا في بلغاريا.

ولكن لماذا لم تستطع تعاليم المانوية إزاحة المسيحية وبخاصة لما تحارب الباباوات مع الأباطرة وأهدر السكولاستيون (اللاهوتيون المدرسيون) القوى في المجادلات العقيمة بين بعضهم بعضاً؟ ربما لأن المانوية قاومت العقيدة غير المدركة التي نحاول صياغتها هنا. الله خلق الأرض ولكن الشيطان أمير دنياها على الأرض الشيطان أقوى من الله ولهذا السبب بالذات كان على الفرسان النبلاء والرهبان المتحمسين القيام لحماية الضعيف والصراع مع العدو القوي حتى آخر قطرة من الدماء، لكن هل بغير قوة الله وحقه - الأرض مخلوقة بصورة رائعة، والشر جاء من الخارج من بطلان وكذب الجحيم والأسهل والأنسب إدخاله إليه بالعكس.

كان هذا التصور غير متناقض وسهل الفهم وتلاءم إن لم يكن مع أخلاق ذلك الزمان فمع مثله العليا، وبما أن المثال - هو تنبؤ بعيد يفهم بطريقة حدسية فقد تحقق ولو أن المأساة التي رافقت تحقيقه داهمت أوروبا وآسيا فقط في القرن الثالث عشر الميلادي وهذا يعني خارج الأطر المرتبة زمنياً لموضوعنا ولذلك نلتفت لفترة ما إلى بيزنطة التي عانت من تعاليم مشابهة ليس أقل من فرنسا.

ورثة المعرفة الباطنية

كما تم الحديث سابقاً وباختصار فقد فقس الإثنوس البيزنطي المتفوق من بيضة الجماعات المسيحية التي كان قد وضع في إطارها التنظيم الكنسي غير أن تلك البيضة كان فيها جنين آخر /ثانوي/ سمي الغنوصية وصار العرفانيون حالمين باحثين عن الله خياليين تقريباً ساعين مثل الفلاسفة القدماء، فابتكروا تصوراً مترابطاً غير متناقض للكون بما فيه الخير والشر. إن الغنوصية - هي ليست معرفة الكون وإنما هي المفهوم الشاعري الذي احتل فيه الواقع الكريه (المكروه) المكان الرئيس والمشترك بين العديد من المدارس والاتجاهات

الغنوصية، فكانت التعاليم عن الديميورغ وهذا يعني الإله العادل العامل في العهد القديم وهذا يعني صانع العالم المخلوق وقد اعتبروا يهوه العهد القديم اليهودي هو الديميورغ الذي به واجهوا الإله الحقيقي خالق الروح وليس المادة وإلى جانب ذلك اعترفوا جميعهم بالمسيح ولكنهم اعتبروه مظهراً خيالياً وهذا يعني غير مادي، وكانت التعاليم الأكثر انتشاراً هي تعاليم الأوفيتيين.

وهذا يعني عبدة الأفعى التي علمت آدم وحواء الحكمة.

وحسب مجموعات المنطق - القديم هذه هناك في أساس الكون يوجد الكون الإلهي وحكمته أما الشر والشيطان العديم المواهب الذي يسميه اليهود يهوه فقد جبل آدم وحواء ولكنه شاء أن يبقيا جاهلين غير مدركين الفرق بين الخير والشر وبفضل مساعدة الحية الكريمة فقط رسولة الحكمة الإلهية طرح البشر عنهم نير جهل جوهر (ماهية) المصدر الإلهي ولكن يهوه انتقم لتحريرهم وتصارع مع الأفعى - رمز المعرفة والحرية وأرسل الطوفان (تحت هذا الرمز يفهمون الانفعال الخسيس) ولكن الحكمة «بإرواء العالم» أنقذت نوحاً وجماعته وبعد ذلك نجح يهوه بإخضاع مجموعة من البشر لنفسه قاطعاً عهداً لإبراهيم بإعطاء أحفاده الشريعة بواسطة موسى وسمى نفسه الإله الأوحد ولكنه غش وهو في الواقع شيطان ناري من الدرجة الثانية تحدث بواسطة - بعض - الأنبياء اليهود والآخرين أيضاً تحدثوا باسم الشياطين الأخرى التي ليست شريرة للغاية وأراد يهوه قتل المسيح ولكنه فقط استطاع إعدام يسوع الشخص الذي سرعان ما اتحد فيما بعد مع المسيح الإلهي.

وخرج الانطاكي ساتورنيل والاسكندري فاسيليد ومواطنه فالنتين النازح إلى روما بأكثر الأنظمة رفعة والأكثر تعقيداً في القرن الثاني.

ولم يسع معظم الغنوصيين لنشر تعاليمهم لأنهم اعتبروها معقدة للغاية على الفهم بالنسبة للناس الجهلة ولهذا السبب انطفأت تصوراتهم معهم سوية، ولكن في أواسط القرن الثاني طور المفكر المسيحي مرقص استناداً إلى خطاب القديس بولس الرسول في أثينا عن الإله المجهول التصور الغنوصي إلى تلك الدرجة التي أصبح بها في متناول جماهير المسيحيين العريضة، وهذا التعليم لم يندثر وبواسطة عدة مئات التسليمات بقي في وطن مرقص - آسيا الصغرى وفي القرن التاسع تغير ولكنه ما زال معروفاً وأصبح دين البولسيين (من اسم القديس بولس، المترجم) ودخلوا في صراع مع بيزنطة الأرثوذكسية ولهذا السبب دخلوا في اتحاد سياسي مع المسلمين.

ولو تحدثنا عن عقيدة البولسيين الدينية فإن ما يسترعي النظر هو اختلافهم مع المغاويين (المانويين) وتماثلهم مع الغنوسطيين القدامى والموقف السلبي للغاية من المزدكية واليهودية.

ولكن التفصيلات اللاهوتية التي أقلقت عقول اللاهوتيين كانت غريبة وغير مفهومة من الجماهير الشعبية الذين كانت مهمتهم الحرب ضد بيزنطة التي كان يكفي لمواجهتها الاعتراف بالمفهوم المعروف للجميع بأن المادة ليست من خلق

الله وبالبداية الأزلية للشر، وهذه المسألة قربت بين البولسيين والمانويين والأطهار إلا أن انبثاق العقائد من رسائل مرقص الضائعة ألقى على إيديولوجياتها أثراً لا يمحى.

إن مؤلفات مرقص عن عدم توافق العهدين القديم والجديد لم تبق لأنها لم تكن مقبولة في القرن الثاني ولا مدحوضة (مفندة) فقد أحيطت بالصمت المحوط بالحذر ومن ثم النسيان فيما بعد، وهذه الطريقة من المناقشات العلمية عملت في جميع القرون بلا توقف، ولكن أعداء مرقص لم يستطيعون التنبؤ بأنه سينجح قبيل نهاية القرن التاسع عشر باستعادة محتوى (جوهر) تصوره باستخدام الأساليب غير المعروفة لهم وهي - المقارنة الواسعة للمقتطفات مع الاتجاه العام للأفكار الأصلية لدرجة كافية لإفرازها من تعداد الأفكار الأخرى، وهذا العمل قام به ديولنفر وحصل على نتيجة إن لم تكن مطابقة لنصوص مرقص فهي قريبة منها لدرجة كافية. إن الفرق بين إله العهد القديم وإله الإنجيل صاغه الأطهار والبولسيون والمسيحيون الغنوسطيون هكذا: «الأول حرم البشر من تذوق شجرة الحياة أما الثاني فقد وعد من يغلب سأعطيه «أن يأكل من شجرة الحياة»

﴿مَنْ لَهُ أُذُنٌ فَلْيَسْمَعْ مَا يَقُولُهُ الرُّوحُ لِلْكَنَائِسِ. مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ شَجَرَةِ الْحَيَاةِ الَّتِي فِي وَسَطِ فِرْدَوْسِ اللهِ﴾[1]

الأول يعظ بالعزل عن الأجناس والتكاثر حتى أطراف المسكونة والثاني يحرم حتى النظرة الأثيمة إلى المرأة. الأول يعد بالمكافأة بالأرض والثاني بالسماء. الأول يفرض الختان وقتل المغلوبين والثاني يحرم هذا وذاك الأول يلعن الأرض أما الثاني فيباركها. الأول يندم لأنه خلق الإنسان أما الثاني فلا يبدل عطفه. الأول يأمر بالانتقام والثاني بالغفران للمعترفين. الأول يطلب ذبائح حيوانية والثاني يعرض عنها. الأول يعد اليهود بسيادتهم على العالم والثاني يحرم السيادة على الآخرين. الأول يسمح لليهود بالربا (هذا يعني الرأسمالية) والثاني يحرم امتلاك المال بغير إثنوس الجبين (من غير كسب بالعمل) - (اعتبرت الغنائم الحربية في ذلك الزمن كأجر لقاء المخاطرة الجريئة) في العهد القديم سحاب مظلم وإعصار من نار في الجديد النور الذي لا يعتوره ظلام. العهد القديم يحرم لمس تابوت العهد وحتى الاقتراب منه وهذا يعني مبادئ الدين - سرية بالنسبة لجماهير المؤمنين أما في العهد الجديد فدعوة للجميع إليه. في العهد القديم - الملعون يعلق

١- الرؤيا: ٢،٧.

على خشبة وهذا يعني الإعدام. في الجديد موت المسيح على الصليب والقيامة. في العهد القديم نير الشريعة لا يحتمل في الجديد نير المسيح هين وحمله خفيف.

إن البولسيين وكذلك المانويين لا يجوز اعتبارهم مسيحيين بغض النظر عن أنهم لم يرفضوا الإنجيل فالبولسيين سموا الصليب رمز اللعنة والمسيح لم يصلب عليه ولم يتخذوا الأيقونات في الطقوس ولم يعترفوا بسر العماد والقربان وجميعهم حاربوا بشدة ضد الكنيسة والسلطة رعايا وأتباعاً واحترفوا بيع الشبان والبنات الأسرى للعرب وإلى جانب ذلك كان في عداد البولسيين الكثير من الكهنة المشلوحين (المجردين من الكهنوت - المترجم) وكذلك العسكريين المحترفين الذين قادوا مفارزهم المتماسكة المنضبطة ولم يستطع منع هذه الطوائف من ارتكاب الفظائع حتى قادتهم الروحيون وتغلبت الحياة عليهم حتى لو كان شعار الصراع هو نكران الذات. ولا يجوز اتهام مرقص الذي كان عالماً فيلولوجياً (محلل لغويات) في علم اللاهوت أظهر الاختلاف المبدئي بين العهدين القديم والجديد[1] بهذه المقاتل والفظائع. وكان من المفترض وجود مفهوم آخر في الأساس الإيديولوجي (الفكري) للنظام المضاد للإثنوس البيزنطي المتفوق كما سنعرضه الآن.

سحقت البولسية بالقوة العسكرية في عام ٨٧٢م ولم يلِ ذلك إعدام الأسرى البولسيين وإنما أنزلوا على الحدود مع بلغاريا للقيام بالخدمة الحدودية. وهكذا تسرب المذهب (المبدأ) المانوي - المركوني المختلط إلى السلاف البلقانيين وأنجب «محبي الله» التي هي شكل من الثنوية مختلف للغاية عن النموذج الأصلي للمانوية وتوطدت في تلك السنوات في مقدونيا (جماعة الدروغوفيتشيين).

وبدلاً من تضاد النور والظلام علّم «محبي الله» أن سطانائيل رئيس الملائكة الذين خلقهم الله. عصى الله بسبب الكبرياء فأسقطه الله في الماء وبما أن اليابسة لم تكن بعد فقد خلق سطانائيل اليابسة والبشر ولكنه لم يستطع أن يحييهم (لم يقدر أن يمنحهم الحياة أو يعطيهم الروح) ولذلك رجع إلى الله قاطعا عهداً بأن يصبح مطيعاً. فنفخ الله الروح في البشر. عندئذٍ خدعه سطانائيل وصنع قايين ورداً على ذلك إصدار الله يسوع الروح غير المادية لقيادة الملائكة غير الماديين أيضاً ودخل يسوع من إحدى أذني مريم وخرج من الأخرى متخذاً هيئة إنسان

١- إن نظرة مرقص إلى الكون شرحها تلميذه ابوللس (مات حوالي ١٨٠م - بداية وحيدة - إله غير مولود - خلق ملاكين رئيسين واحد «مشهور» مجيد خلق العالم والآخر «ناري» معاد لله والعالم وبالتالي العالم كمخلوق الملاك الصالح مبارك ولكنه معرض لصدمات الشرير «الناري» المتطابق (المماثل) مع يهوه العهد القديم واختلافات المرقصية عن التعاليم المنشقة عنها واضحة بالطبع.

وباقيا خالياً، ثم كتف الملائكة سطانائيل وجردوه من اللاحقة «إيل» - «الوحيد» (المقصود هو الاسم الإلهي إيل - المترجم) الذي تكمن فيه قوته الغامضة بالطبع وساقوه إلى داخل جهنم (بالضبط زربوه - المترجم) والآن هو ليس سطانائيل وإنما ساتان (شيطان) (شيطان باللاتينية ساتان Satan - المترجم)، أما يسوع فقد عاد إلى حضن الأب تاركاً العالم المادي الذي خلقه ساتانائيل والنتيجة من هذا التصور غير متوقعه وإنما هي ببساطة «اقتل البيزنطيين»!.

والآن يمكن التوقف لكي نعمل التقييم الأولي؛ إن النتيجة المبدئية هي أن التطهيريين والباتاري (الاباتيين) والبولسيين والمزدكيين والمانويين المتشددين وأنواعهم المختلفة بغض النظر عن الاختلاف الدوغمائي (العقائدي) والأصول الفلسفية المختلفة فإن لهم صفة مشتركة هي - معاداة المادية المعبر عنها بالكراهية للعالم المادي أو كما يمكن أن يقال في وقتنا إلى الوسط المحيط، واعتبر أقطاب إيديولوجياتها الوسط المحيط مع عملياته الخاصة مخلوق الله وهذا يعني خيراً، وكانوا ماديين طبيعيين بغض النظر عن وجود مبدأ الوحدانية في العقيدة وبهذا الشكل بتبني مبدأ النقد الطبيعي يمكن أن ندخل في البحث التقسيم إلى طائفتين - (موقفين) (قطعاً ليس عقيدة فلسفية أو لاهوتية) إحداهما مؤكدة للحياة - حيوية: وهذا يعني مشاركة للمحيط الحيوي للكواكب وأخرى ناكرة للحياة: واضعة إلغاء العالم المادي هدفاً ومثالاً لها. والعلاقة بين هاتين الطائفتين ليست هادئة قطعاً لذلك يمكن فقط إطلاق تسمية «النظام الضد» على التشكيلات الاجتماعية السلبية السمة بشكل اصطلاحي، ويعتبر اللا تماثل هو الشيء الحاسم هنا لأن التشكيلات السلبية توجد فقط على حساب الأنظمة الإثنوسية الإيجابية التي تآكلت من الداخل كالأورام السرطانية والتي يتصدى لها الجسم بعفوية.

ولكن يمكن أن ينشأ شك بأن الظاهرة الموصوفة قد كانت شاملة في القرون الوسطى وليست مميزة فقط للثقافة المسيحية، وفي هذه الحالة يمكن الاستغناء عن أبحاث الشرح الطبيعي للظاهرة، ولهذا السبب نتابع الشرح ونبين كيف هي الحال في الشرق الأدنى في محيط تقاليد ثقافية مغايرة وعلاقات إثنية أخرى (مختلفة) يعني الخلافة في عهد سلالة العباسيين.

المدافعون عن العالم المضاد

سمح الفقه الإسلامي - الشريعة للمسيحيين واليهود بممارسة ديانتهم باطمئنان لقاء ضريبة إضافية، وتعرض الوثنيون للدخول في الإسلام وكان ذلك بصورة مقبولة ولكن «الزنادقة» ممثلي التعاليم النهيلستية (العلامية) تهددهم موت أليم وأنشئ ضدهم ديوان تفتيش كامل وحمل رئيسه لقب «جلاد الزنادقة» وإنه لمن الطبيعي بالنسبة لتلك الظروف أن الفكر الحر كان مدفوناً في الأقبية

والسراديب وخرج منها متغيراً كل التغير في النصف الثاني من القرن التاسع، وحتى مؤسس ذلك المفهوم معروف وقد دعوه (سموه) عبد الله ابن ميمون من مواليد ميديا وكان طبيباً للعيون ومات في عام ٨٧٤-٨٧٥م.

إن عقيدة ومبادئ التعليم الجديد يمكن فقط وصفها ولكن لا صياغتها أو شرحها لأن الباطن هو الأساس في مبدئها وحتى أنصار هذه العقيدة الجديدة سموا أنفسهم في مختلف الأماكن بأسماء مختلفة، اسماعيليون، قرامطة، باطنية، راوندية (بوركانتيه..؟ لم نعثر على هذه التسمية حتى في كتاب الملل والنحل للشهرستاني - المترجم) جانبيه، سعيدية، محمره (موبانزية....؟ الملاحظة أعلاه) والتعليمية.. وكان هدفهم واحداً - هو تخريب الإسلام مهما كلف الأمر، ومن الممكن الشك بهذا الوصف انطلاقاً من فم العدو (المقصود انطلاقاً من أقوال العدو) لو أن السير الحقيقي للأحداث التاريخية لم يؤكدها.

كان الجانب الظاهري للتعليم بسيطاً: بشاعة هذا العالم يصححها المهدي يعني منقذ البشرية والقائم بالعدل ولقيت هذه الدعاية على الدوام وفي كل زمان تقريباً استجابة من جماهير الشعب وخاصة في الأوقات الصعبة. أما القرن التاسع فكان قاسياً جداً، فتن وسقوط أمراء وثورات القبائل في الأطراف والعبيد - الزنوج - في قلب البلاد وغصب قوات المرتزقة واستبداد الإدارة والهزائم في الحروب مع بيزنطة وتعاظم تعصب الملالي وكل ذلك وقع على عاتق الفلاحين وفقراء المدن بمن فيهم المثقفون أيضاً ولكن معدمي الفرس والسوريين المتّقدين حميّة كانوا بحاجة لمن يقدم لهم مشعلاً.

وكان من غير الممكن تحقيق أيّ دعاية حرة لأي فكرة في الخلافة ولهذا السبب قدم مبعوثوا الرسالة - ولنسمهم (الدعاة) أنفسهم على أنهم تقاة شيعيون وقد فسروا نصوص القرآن بطريقة ملائمة أثارت في السامعين (الجلساء) الشك بالثورية عما هي وكما هي معروفة وهكذا ثورات الشريعة الحقيقية التي تنجم عنها كل المصائب وهكذا لو استعيدت فـ.... (وهنا يصمت الداعي كما لو أنه تذكر فجأة شيئاً ما...) وهذا ما يثير بالطبع حب الفضول واهتمام الجليس للدرجة القصوى فيطلب الاستمرار ولكن الداعية يتذرع أيضاً بالقرآن ويطلب منه اليمين بالتزام الصمت وبعد ذلك كتجربة للنية الطيبة مبلغ من المال للعمل المشترك وفقاً للطرق المتداولة وبعد ذلك يأتي تدريس المنضم حديثاً التعليم عن «الأئمة الحقيقيين» أحفاد علي والأنبياء السبعة المساوين لـ محمد وباستيعاب ذلك يكف المهتدي حديثاً عن أن يكون مسلماً وذلك لأن المصادقة على أن المهدي هو النبي الأخير الأعظم تخالف العقيدة الأصلية للإسلام ثم يلي ذلك درجات أربعة من المعرفة للعامة (الجماهير) وخمس أيضاً للمختارين. فالقرآن والطقوس وفلسفة

الإسلام يؤخذ بها جميعاً وإنما بالمعنى المجازي الذي يسمح بتحريف شرحها كيفما كان وفي النهاية يتبين للمهتدي أنه حتى مجيء المهدي ونشر الحقيقة - هو معرفة مجازية وإن كل أنبياء جميع الأديان كانوا أناساً مضللين وشرائعهم غير ملزمة للمهتدي ولا إله في السماء وإنما هناك عالم ثان حيث كل شيء عكس عالمنا. فقط الإمام قدوس كإناء للروح الرب الحقيقي للإسماعيليين الذي يجب الخضوع له ودفع الذهب الذي يمكن الحصول عليه بسهولة من الهراطقة بالنهب والتجارة بالجيران المأسورين غير الداخلين في الجماعة الباطنية، كل المسلمين - أعداء مسموح الكذب والخيانة والقتل والاغتصاب تجاههم ولا عودة للداخل في «الطريق» حتى ولو كان في الدرجة الأولى إلا في حالة الموت.

إن الجماعة التي دانت وبشرت بهذا التعليم الرهيب كانت بلا شك باطنية ومضادة للدين زيادة على ذلك. واحتلت بسرعة للغاية مواقع صعبة في المناطق الأكثر اختلافاً من الخلافة المتفككة والنجاح الأكبر أحرزته جماعة البحرين القرمطية التي هدمت الكعبة في عام ٩٢٩م وقتل القرامطة الحجاج وخطفوا الحجر الأسود الذي عاد فقط في عام ٩٦١م وأنهكت غارات القرامطة المدمرة سورية والعراق حتى إنهم نجحوا بالاستيلاء على مولتان في الهند حيث قتلوا السكان بوحشية وخربوا معبد آديتي الأثر الفني الرائع.

ولم يقل أهمية عن ذلك دخول قسم من برابرة الأطلس (جبال الأطلس بالمغرب - المترجم) في الإسماعيلية واستخدمت هذه القبائل المحاربة الدعاية للإسلام الكاذب (المقصود غير الحقيقي - المترجم) لكي تنكل بالمنتصرين العرب وبويع قائد الثورة عبيد الله مؤسس سلالة الفاطميين أحفاد علي وفاطمة - ابنة محمد خليفة.

وتيسر له ذلك لأنه أعلن عن نفسه بصورة رسمية أنه شيعي مستفيداً من الشريعة الباطنية للتطهير يرجى العودة إلى المخطوط عن تكبد الهزيمة فقد ثبت الإسماعيليون في نهاية القرن الثاني عشر في إيران وسورية وصار الرجل الطموح الحسن الصباح صاحب ديوان السلطان السلجوقي ملكي شاه والمطرود بسبب الدسيسة إماماً إسماعيلياً ونجح في عام ١٠٩٠م بالاستيلاء على قلعة آلموت الجبلية في الديلم وعلى العديد من الحصون أيضاً في أماكن مختلفة من إيران وسورية وفي عام ١١٢٦م امتلك الإسماعيليون السوريون قلعة بانياس والعشرات غيرها في جبال لبنان ولبنان الداخلي.

إلا أن القلاع لم تكن هي السند الرئيس لهؤلاء المتعصبين فالقسم الأكبر من أتباع «شيخ الجبل» عاش في المدن والقرى مدعين أنهم مسلمون أو مسيحيون ولكنهم كانوا يقومون في الليالي بالاغتيالات السرية سمعاً وطاعة للأوامر المعطاة لهم أو يتجمعون في مفارز تهاجم حتى القلاع المحصنة ولم يعتبرهم المسلمون مسلمين من دينهم نفسه، ويتحدث شاعر القرن الثاني عشر أنه أثناء اقتحام قلعته حملت والدته ابنتها إلى الشرفة فوق الهاوية لكي تدفع بالبنت إلى الأسفل لكي

لا تقع في أسر الإسماعيليين وكانت محاولات سحق هذه الأخوية فاشلة لأن كل وزير أو أمير كان مضايقاً للإسماعيليين ترصد له خنجر قاتل لا يرد ضحى بحياته علناً تنفيذاً لأمر شيخه وربما كان ذلك كافياً؟.

كان للأطهار البروفانسيين والأباتيين اللومبارديين وأحباء الله البلغاريين والبولسيين الاسيصغرويين (بولسيو آسيا الصغرى) والقرامطة العرب والإسماعيليين البرابرة والإيرانيين الذين لهم الكثير من الاختلافات الإثنوغرافية والعقائدية صفة مشتركة هي: رفض الواقع مثل ظلال الأشخاص الذين لا يشبهون بعضهم بعضاً ليس من حيث المضمون الداخلي الذي هو على العموم غير موجود بالشكل وإنما فقط بالمحيطات (أي بالخطوط المحيطية للظلال - المترجم) هكذا اختلفت هذه العقائد وكان تشابهها شديد التباين بغض النظر عن أساسها كان الرفض ففي الرفض كانت قوتها وكذلك ضعفها أيضاً فالرفض ساعدها على الانتصار ولكنه لم يعطها النصر. وتلك هي خاصيتهم التي لفتت أنظار جميع الباحثين وأغرتهم لاعتبارها منشأ الصراع الطبقي الذي حدث في عصر ازدهار الإقطاعية دون ريب إلا أن هذا التبسيط المغري اصطدم عند الانتقال إلى أرض الواقع بصعوبات لا يمكن تجاوزها.

إن الصراع الطبقي ضد الإقطاعيين السائدين لم يتوقف ولا لدقيقة ولكنه سار بخطين غير مرتبطين ببعضهما بعضاً، فالأقنان استاؤوا من جور البارونات ولكن برنامجهم كان قد صيغ بدقة «لما حرث آدم الأرض وغزلت حواء الغزل - من كان وقتئذٍ هو الجنتلمان»؟ إن السؤال معقول ولكن لأن ليس له أي شيء مشترك مع التعليم حول أن كل ما هو مادي هو مظهر للشر ويجب أن يكون مسحوقاً من ذاته بذاته، فالطبيعة الطبقية للفلاحين على العكس من ذلك دفعتهم كي ينالوا الحرية والحقوق وزراعة الأرض وبناء البيوت وتربية الأطفال وجمع الثروة وليس التخلي عن كل ذلك في سبيل الأوهام حتى ولو كانت منطقية تماماً، والخط الثاني هو - صراع الجماعات المدينية (الكومونات) بالاتحاد مع السلطة الملكية ضد الدوقات والكونتونات وأيضاً البرجوازية الوليدة سعت إلى الثروة والرفاهية والسلطة وليس إلى الزهد والفقر المدقع وقد دعمت في المدن الغربية البابا مرة والأباطرة مرة أخرى وفي الشرق - الخليفة السني وفي بيزنطة كانت حصن الأرثوذكسية، لأن سعادة المواطنين المدنيين توقفت على دعم النظام في العالم وليس على سحق العالم من أجل مثل عليا غيبية غريبة وغير واضحة (مبهمة).

من المستبعد اعتبار الدعاية للفقر المنقذ منهجاً اجتماعياً لأن الرهبان المسيحيين والمرابطين والمتصوفة المسلمين دافعوا عن فقر خدمة الدين وقد انتقد عرش البابا ومعه المجامع المسيحية ترف الأساقفة، وشراء المناصب الكهنوتية وبيعها، وتوريث المناصب ومنحها للأقرباء والمعارف، ولكن الأساقفة أنكروا تهمة الهرطقة، وكثيراً ما كان يُقتَل المشهورون الذين لا يكلون

أو يتعبون غيلة أحياناً من وراء الزاوية في الطرقات أو أعدموا باتهامات ملفقة إلا أنه في تلك الأوقات الصعبة كان من السهل بغير ذلك أن يجد الإنسان نفسه على النطع (المقصود كان من السهل التخلص من أي كان بالإعدام) وبخاصة عندما لا ينتبه الشخص المتنامي الأفكار إلى أنه يقف في طريق حامل التاج، أجل في الواقع: كيف يمكن أن يعبر التعليم الغامض عن المصالح الطبقية؟ لأنه من أجل ذلك يجب أن يكون مفهوماً للجميع ولكنه سيفقد بذلك المبدأ القيادي - المعرفة السرية والطاعة العمياء.

فكيف كان إذن سلوك الهراطقة أنفسهم؟ لقد أرادوا العالم ليس أقل من أي شيء آخر، إقطاعيون كانوا بالطبع قتلوا ونكلوا بلا رحمة بالفلاحين والمدينيين جداً باغتصاب ممتلكاتهم وبيع نسائهم وأطفالهم عبيداً إن القوام الاجتماعي للجماعات المانوية والإسماعيلية كان مختلطاً للغاية فقد كان في عداءهم الكهنة المشلوحين (أي المحرومون من الكهنوت) والحرفيين المعدمين والتجار الأغنياء والفلاحين الذين من دونهم كانت الحرب الطويلة والظافرة غير ممكنة، وكان يجب أن يكون في القوات أناس قادرون على خوض الحروب بترتيب القتال (تشكيل حربي) وتحصين القلاع وتنظيم الحصار وكان ذلك في القرون ١٠-١٣م فقط في استطاعة الإقطاعيين.

ولما نجح الإسماعيليون في إحراز النصر واستولوا على البلدان كمصر على سبيل المثال فإنهم لم يغيروا قطعاً البنيان الاجتماعي فببساطة أصبح الزعماء الإسماعيليون مكان الأمراء السنيين وجمعوا كذلك الإتاوات من الفلاحين والرسوم من التجار ولما تحولوا إلى إقطاعيين صاروا يقومون بالملاحقات الدينية على نحو ليس أسوأ من السنين وفي عام ١٢١٠م حرق «شيوخ الجبال» الكتب «الهرطوقية» (حسب رأيهم) وأمر الخليفة الفاطمي الحاكم (بأمر الله) المسيحيين بحمل الصلبان على لباسهم أما اليهود فالأجراس وكان يُسمَح بالمتاجرة بالبازار فقط ليلاً أما الكلاب التي تكتشف في الطرقات فكان قد أمر بقتلها.

وحتى قرامطة البحرين الذين أسسوا جمهورية تبدو أنها حرة من المؤسسات الإقطاعية فقد جمعوا بين المساواة الاجتماعية لأعضاء جماعاتهم مع نظام الرق الحكومي وكما أشار إي. أ. بيلياييف «إن النضال الشديد الذي خاضه القرامطة ضد الخلافة والإسلام الشيء اتخذ منذ البداية شكل الحركة الطائفية ولذلك وجّه القرامطة المتعصبون أسلحتهم ليس فقط ضد الخلافة السنية وحكامها وإنما ضد كل أولئك الذين لم يقبلوا تعليمهم ولم يدخلوا في تنظيمهم أيضاً. إن غارات مفارز القرامطة المسلحة على سكان المدن والقرى المسالمين رافقتها أعمال القتل والاغتصاب.

والناجون الذين أخذهم القرامطة أسرى حولوا إلى عبيد وبيعوا في أسواقهم الناشطة على حد سواء مثل الغنائم الأخرى وكان الأساس النظري لتلك السياسة هو التعليم «الباطني» الجوهر الإلهي - «العالم العلوي» الذي انبثق

منه «العالم الساطع» وهذا بدوره أنتج المادة «العالم المظلم» الجامد الباطل المحكوم عليه بالفناء هذه المادة - عدم الوجود ولكن فيها تكمن شرارة «العالم الساطع» التي هي أرواح الأنبياء والأئمة المطلعين على الأسرار الذين بموتهم تهاجر من جسم إلى جسم والناس الآخرون كلهم غير المنتمين إلى المختارين - هم أطياف لعدم الوجود الذين يمكن التصرف بهم كيفما كان بما أن وجودهم خيالي (وهمي) وبالطبع أبعد هذا السلوك المقولب الذي تشكل على هذا الأساس الإيديولوجي عن القرامطة الطبقية الواسعة من الفلاحين والمدينيين، وحتى البدو الذين كانوا جاهزين دوماً للنهب تحت أيّ رايات اعتبروا قتل النساء والأطفال أمراً مفرطاً لا حاجة أو داعي له.

وبناء عليه أي «صراع طبقي» هنا.

وهذا كله يمكن أن يكون افتراء من أعداء «الفكر الحر» على الفكريين الذين أدانوا الحكام بسبب الاستبداد والإكليروس بسبب الجهل، ولكن لنفترض لماذا تلك «الافتراءات» لم ترد على نقد أنظمتها؟ إن الجانب السلبي للتعاليم الهرطوقية لم يناقش فيه أما الإيجابي فقد رد عليه الفرنسيون والفرس واليونان والصينيون في القرون ١١-١٣م بنفور مجمع عليه وزد على ذلك من دون اتفاق مسبق ولكن لنستمع إلى الجانب الآخر - اعتبر المفكر المشهور ناصر دي - خسروف الذي توارى عن التركمان - السنة في منطقة يومفان (إقليم في أفغانستان) وتوفي هناك حوالي عام ١٠٨٨.

إنه «إذا كان قتل الأفعى واجباً علينا باتفاق آراء الناس، فقتل الكفرة واجب علينا بأمر الله العظيم فالكافر أفعى أكثر من الأفعى». وكان الهدف الأعلى لاعتقاده هو - إدراك الناس للمعرفة الباطنية والوصول إلى «صورة الملائكة» ووسيلة الوصول هي إقامة سلطة الفاطميين التي تصورها على الشكل:

باحتلال أحفاد فاطمة لمكة قد علمنا
وبحرارة في الجسم وسعادة في القلب شعرنا
وقوات الإله بالأبيض[١] قد ارتدينا
وبانتقام الله من جموع السود[٢] قريباً أملنا

دع سيف الشمس من آل النبي[٣] يميد
ولأحفاد العباس سلالة القساة يبيد
لتصبح الأرض بيضاء - حمراء كالشمله[٤]

١- لون الفاطميين.
٢- لون العباسيين.
٣- المستنصر خليفة مصر الفاطمي ١٠٣٦-١٠٩٤م.
٤- شملة البدو - بيضاء بأشرطة حمراء.

والدين الصحيح حتى في بغداد قد حل
بمثوى النبي - وعهده الذهبي
فقط للموصى له الحق بالسلطة
لا يروعنك إذا الشمس من الغرب اعتلت أعلى[1]
فمن ظلام السراديب ترفع رأسها إلى الأعلى

إن الشعر واضح وصريح إنه دعوة للحرب الدينية التي من دونها ما كان البرنامج الاجتماعي، وبالتالي لم تكن حركة الإسماعيليين حركة طبقية مثل حركة الأطهار وأحباء الله والبولسيين على السواء واختلف الأخيرون عن الإسماعيلية فقط أنهم لم يحققوا النجاحات السياسية التي بعدها كان لا مفر من استحالتهم الدولة الإقطاعية، ولو أن البواعث الاجتماعية - السياسية كان لها أهمية إذن لأي سبب كان الحاكم (٩٩٦-١٠٢١م) خليفة مصر الفاطمي موجوداً في بلاد سنية معتمداً على القوات التيوركية السنية وقد صار مؤكداً أنه كان في عشرة دائمة مع إبليس والصلاة توجهت إلى كوكب زحل؟ ولم يكن له من ذلك أيّ فوائد مطلقاً بل على العكس فقد العرش وانقطعت أخباره. ومن المستبعد أن ذلك كان من مصالحه العملية وعلى ما يبدو أن الحاكم عمل بانسجام مع ضميره.

وعلى ضوء هذه الاعتبارات تخلى المؤرخون الرئيسون السوفييت عن تعريف الإسماعيلية كمعارضة اجتماعية. ويشير ي. أ. بيلياييف إلى أن الإسماعيليين لم يترأسوا نضال الفلاحين المعادي للإقطاع وإنما استخدموه من أجل أهدافهم. وبملاحظتهما تعقيد المسالة اعتبرها أ. يو. ياكوبوفسكي وإي. ب. بتروشفسكي حلا سابقاً لأوانه. ولكن ربما نحن (يقصد المؤلف ذاته - المترجم) حاولنا إيجاد الحلول في مكان غير الذي بحثوا فيه عنها بلا جدوى؟

وبالفعل لو أن المانويين حققوا النصر الكامل لكانوا قد اضطروا من أجل الاحتفاظ به إلى الكف عن تخريب الأجساد والمادة وهذا يعني تخطوا ذلك المبدأ نفسه الذي في سبيله سعوا إلى النصر، ولو ارتكبوا هذه الخيانة من تلقاء ذاتهم لكان قد توجب عليهم إقامة نظام تعاون مع الجيران والأديمات التي عاشوا في وسطها وهذا يعني تبني ذلك الأسلوب الإقطاعي نفسه الذي كان طبيعياً عند ذلك المستوى من التقنية والثقافة، وبالتالي كانوا قد كفوا عن أن يكونوا ذاتهم وصاروا إلى تناقض جوهري ولكن هذا الوضع في الحالة الراهنة كان تطوراً استثنائياً غير قابل للعكس متحولاً إلى موقف يلعن الحياة ومتبنياً قانون بغض العالم ولا يجوز استثناء الجسد الخاص من ذلك، ولهذا السبب كان الموت الذاتي (الحقيقي) هو النتيجة الحتمية لنفي ونكران المادة سواء حدث ذلك في المعركة مع المسيحيين أو

١- آخذاً بالحسبان انتصارات قوات المستنصر.

من التقشف أو من الفسق فالنهاية كانت واحدة وهذا التصور غريب عجيب ولكنه منطقي.

ويمكن أن يظهر رأي خاطئ وهو أن الأطهار الإشراف (الالبينيين) كانوا أفضل وأنقى وأطيب ولكنه خطأ بالمقدار عينه وعلى النقيض تماماً. كم هي المبادئ الأخلاقية التي لم يبشروا بها زد على ذلك كيف يمكن التصور أن شراء غفران الخطايا بالمال والتضحية بالحروب الصليبية هو أفضل من الدعوة إلى الصراع مع العالم المادي؟ ولهذا السبب يكون طرح السؤال عن التقييم النوعي لا معنى له ومخالفاً للعلم جداً كالسؤال عن أيهما أفضل الحمض أم القلوي؟ كلاهما يكوي الجلد؟.

ولكن إن كان الأمر هكذا فلماذا أعيرت هذه العداوة بالذات الكثير من الاهتمام عندما دارت في الوقت نفسه صدامات اجتماعية حادة بين طبقة الإقطاع والفلاحين المستعبدين. وتطورت منافسة الممالك المتنامية من أجل الأراضي والمدن التجارية - أي من أجل الأسواق؟ وبماذا تختلف شبه السرية التي اتخذناها نقطة انطلاق للدراسة؟

الطيف المهلك

لنطرح السؤال هكذا: ما المشترك بين القرامطة والمركونية البولسية وأحباء الله المانويين والألبيونية وبعض انحرافات فرسان المعبد؟ وفقاً لأصل (منشأ) الدين والعقيدة والإيمان بالأخرويات (البعث والحساب) نحو العجائب - لا شيء. ولكن هناك صفة واحدة قاربت هذه الأنظمة وهي - رفض الحياة المعبر عنه بأن الصدق والكذب لا يتقابلان وإنما يعادلان بعضهما بعضاً ومن هنا نشأ برنامج قتل الإنسان ما دامت الحياة الحقيقية غير موجودة تعتبر إما كوهم (تانتريزم) وإما كسراب في صورة منعكسة بالمرآة وإما كخليقة الشيطان (المانوية) - إذن لا أحد يشفق - لأنه ما من غرض للشفقة ولا حاجة للإشفاق - بالله لا يعترفون يعني لا يتحملون المسؤولية تجاه واحد - ولا يسمح بالأسف لأن هذا يعني إطالة الأوهام، وإنما بالمعاناة المؤلمة للمخلوقات التي هي في الحقيقة وهمية وإذا كان الأمر هكذا أي عند عدم وجود غرض الكذب المساوي للصدق، يمكنهم أن يستخدموا في سبيل أهدافهم هذا أو ذاك على السواء.

يجب إعطاء أناس القرون الوسطى ما يستحقونه لقد كانوا منطقيين ولذلك سمعت خطاياهم بصورة مقنعة جداً، فقد كان الواقع مخيفاً جداً في بعض الأحيان بحيث إن الناس كانوا جاهزين لأن يلقوا بأنفسهم في أي وهم ولا سيما إذا كان منطقياً وجاداً ورفيعاً كهذا، لأنهم صاروا بدخولهم في عالم من سلسلة من الأوهام المتعاقبة أسياداً لهذا العالم أو بصورة أدق كانوا مقتنعين بهذا الإخلاص، لأنه من أجل ذلك الشعور بالحرية والسلطان على ما يحيط بهم كان يجب الاستخفاف

بالصليب كالدوايين (فرسان الهيكل) أو تحطيم حجر الكعبة النيزكي إلى أجزاء كالقرامطة ولم يكدرهم ذلك مطلقاً والحق يقال إنهم بسلوكهم لهذه الطريق قطعاً لم يجدوا الحرية الشخصية بل على العكس فقدوا حتى تلك (الحرية) التي كانت لهم في الحدود المحدودة للغاية في هذه الأنظمة الموجبة أو تلك. فقد كان هناك قانون وعادة ضمنا لهم بعض الحقوق الموازنة للفرائض المؤداة أما هنا فلم يكن لهم أيّ حقوق وخضعوا للنظام الصارم لقائدهم الخفي الشيخ المعلم ولكن مقابل ذلك أعطاهم إمكانية العودة بالضرر الأقصى بالقريب لأنه كان يحلو له هكذا ويفرح بذلك بحيث كان يمكن التضحية بالحياة.

ولكن المبتدئين لم يجلبوا فقط المصائب والإساءات إلى الأنظمة السلبية ففي القرون الوسطى كثيراً ما عاش الناس بصورة سيئة ولكن ليس في كل مكان وليس دائماً فقد تبدلت الفترات العاصفة بالهادئة ولكن الحياة الريفية السلمية الراكدة الضيقة التفكير عملت بطريقة ديالكتيكية (منطقية) وكونت نتيجة للفروض المتناقضة، فعندما أطعموا الشاب المشبوب العاطفة حتى الشبع ولكن منعوه من القيام بأي شيء، فقد بحث عن استخدام لقواه المكتومة ووجدها في مواعظ الرفض دون أن يلفت نظره إلى أن الهدف الموضوع أمامه هو - هم؛ إن الخرافات والأساطير تولد يومياً وكانت ضدها النتائج العلمية المضبوطة والتنبؤات العلمية الحقيقية العاجزة، ففي الألف الأولى جذبوا أناس كل البلدان ما عدا روسيا وسيبيريا حيث هناك لم تتكون الأنظمة المضادة، وخلافاً للصراع من أجل السيطرة السياسية داخل النظام الكبير ذاته وحتى الصدامات بين الشموليات النظامية التامة حدثت هنا حرب مدمرة وكان المانويون الفرنسيون مشابهين جداً الفرنسيين الكاثوليك لأنهم قدروا على المواءمة في منطقة واحدة إذ تطور أولئك وهؤلاء في اتجاهات متقابلة أدى تصادمها إلى إبطال تلك المادة نفسها التي اعتبروها ليس خليقة الله وإنما الشر الكوني وهم سلكوا هكذا في كل مكان: في بيزنطة وإيران وآسيا الوسطى وحتى في الصين عديمة التعصب الديني (المتسامحة) ولذلك وقعت الاضطهادات عليهم في كل مكان وأما مقاومتهم فكثيراً ما كانت فعالة للغاية وأعطت القرون الوسطى المبكرة تلك الصبغة التي ظهرت من خلال التاريخ المنظور للدول المتصادمة وتشكل الإثنوسات وكان وجود بنيانين نفسيين متناقضين في ذلك الزمن هو ظاهرة عالمية ولهذا السبب بقي القليل من آثار الفن من تلك العهود.

وليس اختفاء المانويين غريباً من على وجه الأرض قبيل نهاية القرن الرابع عشر لأنهم في الحقيقة هم الذين سعوا إلى ذلك ونظراً لمقت العالم المادي وسعادته كان عليهم مقت الحياة نفسها وبالتالي أكدوا أنه وجب عليهم حتى عدم الموت - لأن الموت هو فقط لحظة تبدل الحالة للحياة المضادة والعالم المضاد وإلى هناك ينتقلون إخلاء للأرض من أجل عصر الانبعاث. وكان إخفاقهم فقط في

أنهم لم يستطيعوا اصطحاب كل الناس معهم لأن الأساس الحيوي للسيكولوجيا (النفسانية) الإنسانية صمد ضد ضغطهم وبفضله لم يوقف تاريخ الشعوب مجراه.

ومن هنا يتبين أن الجماعات المانوية استطاعت البقاء فقط عند وجود الثقافة الإيجابية الخلاقة وعلى حساب مقدراتها المتكون، وكيفما تطفل هذا الظلم المضاد على أجساد تلك الاثنوسات (الإثنوسات) وأينما تغلغل خربها ومات معها سوية.

استمر النظام المضاد ١٥٠ عاماً ولكن هل كان فناؤه من قبيل المصادفة. ولا أحد يعيش وحيداً ولا يستطيع النظام المضاد أن يعطل تطور الإثنوسات الطبيعية المرتبطة بأديمات بلادها أبداً إذن أمام من يسقط النظام المضاد، إنه يسقط أمام الحياة ذات الطاقة الحرة المفرزة القادرة على إنتاج العمل.

جلب الفرع اليهودي الإيراني للخزريين مبدأ المزدكية الذي بموجبه كان الشر هو اللا معقول المعلن، يعني الطبيعة العفوية بما فيها انفعالات الإنسان نفسه وظهور العقل كان اختيارياً مع أن العقل بالضبط هو خطأ طبيعي، كما جاء الفرع البيزنطي بخبرات الخروج على سلطان الدولة (الحصانة) وهذا يعني انعدام الاتصالات المباشرة مع الأديمات الطبيعية، وكلاهما أظهر التعصب بالنسبة لمحيطهما الإثنوسي الذي اعتبروه ضرورياً بالقدر الذي كان لا مفر منه عملياً وفي ذلك الوقت قام ضدهما الناس والطبيعة (البشر والحجر - المترجم).

إن مصير الطبقة الحاكمة في خازاريا الذي اتفق مع الإثنوس السائد قَسَّمَ السكان الأصليين للبلاد باستثناء أولئك الذين نجحوا بالهجرة إلى الدون أو بالتواري عند «ذرى» سلسلة جبال داغستان وراء التيريك. وبدا خزر الفولغا في أسوأ وضع لأن الأديم الذي أعالهم غاص تحت أمواج بحر قزوين، فإذا كان مستوى قزوين في القرن الثالث عند المنسوب المطلق ناقص ٣٦م فإنه وصل في نهاية القرن الثامن إلى المنسوب المطلق ناقص ١٩م وهذا يعني أنه ارتفع ١٧م. ولم يكن لذلك أهمية كبيرة بالنسبة لشواطئ القفقاس وإيران الشديدة الانحدار ولكن بالنسبة للشاطئ الشمالي الرحراح (المنحدر تدريجياً) حيث كانت خازاريا صار هذا الطغيان كارثة وتحولت خازاريا إلى «نيذرلاند» (يعني أراضي منخفضة - المترجم» إلى «أطلنطا» (القارة المفقودة - المترجم) فالبساتين المزدهرة والمراعي والقرى كلها كانت قد غُمِرت بالماء وبرز فيها فقط الذرا الجافة لتلال بائيرو حيث كانت المقابر الخزرية سابقاً.

واضطر الخزر إلى هجر البلاد التي غمرت (غرقت) ومن دون الأديم الوطني المألوف تبعثر الإثنوس متفرقاً. وهكذا انتشر الخزر في المدينة العظيمة ساراي عاصمة كل أوراسيا الغربية ولكن مقابل ذلك تخلصوا من العالم المظلم للنظام المضاد.

إلا أن الخزر لم يفقدوا فقط التوحد الإثنوسي وإنما انجرف معهم العالم المظلم إلى الهاوية بحيث بدت الذاكرة - وكأنها أمر لا يمكن إلغاؤه أو إبطاله أو على وجه التدقيق - التقليد الإثنوسي علمياً، فأحفاد الخزر نسوا أنهم كانوا خزريين وأحفاد اليهود الخزر نسوا تلك البلاد التي عاش وعمل أجدادهم فيها ومن المفهوم أن تلك الأخيرة (أي البلاد): بالنسبة ليهود أسافل الفولغا لم تكن وطناً بل ميداناً لاختبار القوى: ولهذا السبب لم يكن لذكرى الإخفاق المأساوي عندهم معنى علمي وهكذا - لتلك الأسباب صارت خازاريا بلاداً من دون مصادر تاريخية: مكتوبة أو مادية أو إثنوغرافية وهذا يعني مسجلة في الطقوس والعقائد، وبما أن أي تاريخ حتى القرن العشرين اعتمد على جمع المصادر ونقدها فإن تاريخ خازاريا لم يقدر له أن يكتب.

وتميز عصرنا بتطور شديد في مجالات الأساليب العلمية، فقد ظهرت التقربات المنتظمة التي ينتقل معها انتباه الباحث من عناصر البحث إلى الروابط فيما بينها، وسمح هذا الأسلوب بإشراك المعطيات التي بدت وكأنها بعيدة عن موضوع الدراسة، وهي نفسها التي ملأت فجوات تاريخ أوروبا الشرقية وبفضل الأسلوب المنهجي ظهرت إمكانية التخلص من خلق الأساطير - أمراض العلوم التي ظهرت بسبب عدم كفاية المعلومات والأخبار عن الموضوع عندما تملأ الفصول غير المدروسة باختلاقات المؤرخ والتاريخ الخزري مرض لهم يفطن له ولا مرة لذلك استمر مداهماً.

صدر منذ زمن قريب كتاب سمي فيه الخزر «السبط الثالث عشر لإسرائيل» تاريخ عجيب للغاية تقرب مؤلفه الفذ هكذا على النحو الذي سنقدم فيه الشروحات المناسبة أثناء عرض محتويات الكتاب بشكل حواشٍ.

يفترض مؤلف الكتاب المذكور أنه من القرن السابع إلى الثاني عشر الميلادي تقريباً امتدت من البحر الأسود حتى الأورال ومن القفقاس إلى مكان اقتراب الدون من الفولغا إمبراطورية رحلية أقام فيها الخزر - الذين هم شعب من أصل تيوركي[1].

ليعلم المؤلف: إن اليهود القدماء الإثنوس الذي تكون فيما بعد هم عبارة عن تنوع أنثروبيولوجي تحدروا من أور الكلدانيين لهم الطابع السومري: قصيرو

١- إن مصطلح «تيورك» له ثلاثة معان بالنسبة للقرون ٦-٨م فقد كانوا إثنوساً صغيراً (تيوركيوت) ترأس اتحاداً هائلاً في السهب العظيم («إيل» - السلالة الايلخانية - المترجم) وباد في منتصف القرن الثامن وهؤلاء التيورك كانوا مغوليين ومنهم نشأت السلالة الخانية الخزرية. إلا أن الخزر أنفسهم كانوا أوروبيي الشكل من الطراز الداغستاني. وبالنسبة للقرون ٩-١٢م كان التيورك تسمية عامة للشعوب الشمالية المحاربة بما فيهم المجر والروس والسلاف وهذا معنى ثقافي - تاريخي للمصطلح لا يمت للمنشأ بصلة، وبالنسبة للمستشرقين المعاصرين فإن «التيورك» مجموعة لغوية، وتتكلم باللغات التيوركية إثنوسات مختلفة المنشأ. وبالتالي تعريف المؤلف يمكن أن يعود فقط إلى التيورك القدماء وكما بينا - ذلك خطأ.

القامة عريضو المنكبين شعورهم شقراء رقيقو الشفاه، وأعطي وجودهم في مصر الشوائب الزنجية التي فيهم والساميون - طوال رشيقون بأنوف مستقيمة ووجوه ضيقة - وهذه شوائب من العرب القدماء - الكلدانيين ومعظم اليهود الأرمني الطابع اكتسبوا ذلك من كنعان وسوريا وآسيا الصغرى، وبخاصة أولئك الذين يعتبرون الآن يهوداً، وهذا التنوع الإثنوسي يدل فقط على تعقد عملية الإثنوجينيز اليهودي ولكن لا علاقة له بعلم التشخيص الإثنوسي لأن الإثنوس والجنس مسميات علمية لمنظومات نقد مختلفة.

وباحتلالهم الممر الحيوي المهم بين البحرين الأسود والقزوين فقد لعبوا دوراً مهماً في الأحداث الدموية للإمبراطورية الرومانية - الشرقية[١]، لقد كانوا عبارة عن مخفف صدمة ما بين قطاع الطرق السهبيين وبيزنطة[٢].

وصدوا العرب وبذلك أوقفوهم عن احتلال أوروبا الشرقية وحاولوا إيقاف اقتحام الفايكنج من روسيا الجنوبية على الحدود البيزنطية[٣].

وفي وقت ما نحو عام ٧٤٠م[٤]. دخلت الحاشية الملكية والطبقة الحاكمة العسكرية في اليهودية وأسباب هذا الحدث غير العادي غير معروفة[٥] ومن المحتمل أن ذلك أعطى الأفضلية للمناورة بين «العالمين»[٦] المتنافسين المسيحي والإسلامي (وهذا يعني الكيانات الثقافية - السياسية) وقبيل القرن العاشر ظهر عدو جديد: الفايكنج الذين سرعان ما أصبحوا يعرفون كـ روس[٧] وكان حصن ساركيل الخزري قد دمر في عام ٩٦٥م ولكن بقيت خازاريا المركزية سالمة[٨] إلا أن دولة الخزر قد أشرفت على السقوط[٩].

٢- كان يحد خازاريا في القرن السابع الميلادي من جهة القفقاس الخلافة العربية وليس بيزنطة.

٣- تحارب الآفار والبلغار والمجر مع بيزنطة عند الدانوب حيث لم يصل الخزر إلى هناك مطلقاً في أي وقت من الأوقات.

٤- تقدم الفايكنج إلى روسيا بنهر الدنيبر الذي كان خارج سيطرة الخزر.

١- التاريخ مأخوذ من الأسفار المنحولة وهو خطأ والمؤلف العليم والمطلع المسعودي يشير إلى أن هذا حدث في عهد خلافة هارون الرشيد وبالضبط في القرن التاسع.

٢- في تعداد المراجع المستخدمة يشير أ. كوستليور إلى كتاب م. إ. ارتامونوف ولكن من النص واضح إنه لم يقرأه إلا أنه نفسه يقدم شهادة مؤلف القرن الحادي عشر الميلادي القرمي يافت ابن علي الذي يسمي الخزر اليهوديو الدين أولاد غير شرعيين (هجين) مشيراً بالأخص إلى أيّ طريقة انتشر هذا الدين بها في خازاريا.

- عند حدود وجود السير الطبيعي للتهجين لا داعيَ للبحث عن الأسباب السياسية الطابع فالهجناء ينشؤون لا بحسب تعليمات الحكومة.

٣- أيّ أفضلية يمكن أن تعطيها عبادة دين ممقوت من كل من المتنافسين؟ ومن الغريب أن مؤلف التقليد والعقدية الطبيعية يراهن بناء على متطلبات حالة الأسواق السياسية، ولماذا يجب افتراض مثل هذه اللا مبدئية عند الخزر؟

٤- إن النظرية النورمانية عن منشأ الروس قد اندثرت (أكل الدهر عليها وشرب) منذ بداية القرن العشرين.

٥- إن خازاريا المركزية - أو على الأدق الفولغوية احتلت أولاً من قبل الخوارزميين ثم من قبل الغُزّ.

٦- أجل لو أنها ظلت موجودة لكانت قد بقيت المواثيق والأخبار عن سياستها ولكن لم يبق شيء!

وبتعداد ١٢ خطأ مبدئياً لا جدال فيه بل بالأصح الأخطاء المتعمدة يمكن التوقف عن متابعة الشرح التالي لمحتويات الكتاب، أجل بالتأكيد ليست أسرار علم تدوين تاريخ الأزمان الغامضة والبعيدة هي التي اهتم بها المؤلف والأهم هو ارتباط تاريخ الخزر بالمصير التالي لليهودية.

obeikandl.com

ذكريات بابل

إن جلساءنا في هذه المحادثة كل من ليف نيقولايتفيتش غوميليوف الدكتور في العلوم التاريخية وليف فاسيليفييتش فلورنسكي الدكتور في العلوم الجيولوجية والتعدين جمع بينهم طريق نيقولاييفسكايا السابق الواصل بين العاصمتين الروسيتين وبين إحساسين تجاه نظام الدولة الروسي والقومية الروسية والصداقة الطويلة والحب لآسيا والإخلاص لأفكار ف. فيرنادسكي. وبرج بابل هو محور الحديث الذي أجرته الصحافية تاتيانا شوتوفا.

شوتوفا: لماذا انهار برج بابل؟ فحسب التقليد بناه سكان ما بين النهرين القدماء محاولين بتكبرهم مجاراة الله. ولكنهم لم ينجحوا بإيجاد لغة مشتركة فيما بينهم وأصبحوا تحت أنقاض المنشأة التي انهارت.

فلورنسكي: ليست الرواية عن سبب فناء حضارة الشرق القديمة بأنها لم تستطع إيجاد لغة مشتركة مع الطبيعة كانت بلا أساس لأن أخبار الغابات أرعبت القطعان فالري هو الذي رفع الحضارة الأولية ثم ارتفاع المياه الجوفية والتملح واستنقاع الأراضي، والرياح المالحة ضربت الدول بالغبار وأفقرت الشعوب.

غوميليوف: تحولت القصة عن برج بابل في أيامنا هذه من رمز إلى أسطورة فأمام الإنسانية المعاصرة التي صارت في عصر الانتقال إلى النووسفيرا[1] للحضارة

١- النووسفيرا: (مركبة من الكلمة الإغريقية noos وهي الوعي والإدراك ومن سفيرا وهي تعني المجال أو الكرة): إنها المجال المتبادل للتأثير بين الطبيعة والمجتمع في الحدود التي يصبح فيها النشاط العقلاني الإنساني هو العامل المحدد للتطور. ومفهوم النووسفيرا كمجال مثالي للوعي والتفكير يلف الكرة الأرضية وحيث يرتبط تشكيله بظهور وتطور - الوعي البشري وقد ظهر إلى الاستعمال في بداية القرن العشرين على يد تيار دي شاردين وي ليروا. وقد اضاف فرنادسكي إلى هذا المفهوم معنى مادياً: النووسفيرا - هي مرحلة جديدة عليا من البيوسفيرا ترتبط بظهور وتطور البشرية فيها. التي أصبحت بعد معرفتها لقوانين الطبيعة وتطويرها للتكنيك، أضخم القوى، حيث تعادل في مقاييسها القوى الجيولوجية والتي أخذت تفرض تأثيرات محددة على مجرى سير العمليات الجارية في مجال الأرض وتغيره بعملها.

الأرضية من النواحي كافة تنتصب قضيتان: إيجاد لغة مشتركة بين الشعوب والدول، ولغة مشتركة مع الطبيعة، إنها قضايا معلقة - فناء: في الحالة الأولى كناية عن حرب ذرية خاطفة، والثانية نتيجة لكارثة بيئية شاملة بطيئة ومؤلمة، ولهذا السبب لتأمين سلامة الشعوب السياسية والاقتصادية والبيئية يجب كما كتب فيرنادسكي «توحيد الجهود الدولية للإنسانية كلها» بالمشاركة الأوسع لجميع الناس في قضية إنشاء النووسفيرا الإنسانية الواقفة على أرضية (منصة) الوطنية العالمية والبديل عن ذلك هو الطريق إلى الهاوية - النيكروسفير - عالم الموت.

شوتوفا: ولكن ألا يعني هذا أنه القوة الموجهة التي يتقدم بها التطور كما نعتبر الحضارة بالطبع والأرض كلها؟ «tout passé, tout casse, tout lasse» «كل شيء يمضي كل شيء يشيخ، كل شيء ينهار» هكذا يترجمون قول الكاهن الفرنسي المشهور فبماذا يتفكر الجيولوجي والمؤرخ بموضوعات علمهما؟.

فلورنسكي: كانت الأرض هي الموضوع الأولي للجيولوجي، ولكن ما إن خرجت الإنسانية من مهدها وانطلقت إلى خارج حدود الكون، والآن تتطور الجيولوجيا العالمية بشكل عاصف (هنا المقصود الجيولوجيا خارج نطاق الأرض في مجال الكواكب - المترجم) وفيما يتعلق بالأرض فقد كان لها بداية وولدت منذ مليارات السنين ويمكن تشبيه تطورها بحياة الكائن الحي، وعندئذٍ يظهر أن الطبيعة العامة للمراحل العمرية متشابهة وعلماء الفيزياء الفلكية يعتبرون أن النظام الشمسي في منتصف تطوره (نموه) ومليار سنة من حياة الكواكب يمكن مساواتها بعشر سنوات من حياة الإنسان وهكذا الأرض - هي إنسان بعمر ٤٥ سنة.

«بدايتها ونهايتها» لهما أديمهما ووفقاً لنظرية كليمنتس في التعاقب «النظرية التعاقبية Succession» فالكواكب تولد و «تنمو» وتُكَوِّن نماذج ثم تبدأ مرحلة «الأوج» ذروة هذا الأديم أو ذاك، ففي المتحف المحلي في دوشنبه لوحة «عبور الاسكندر المقدوني لنهر آمودريا» حيث يعبر جيش القائد المشهور عبر التيار المتلاطم على الأرماث (أي الأطواف - العوامات) ومن الغريب أن ترى الأرماث مربوطة من جذوع أشجار بقطر ٤٠سم جرها الجيش الذي لا يقهر خلفه من على بعد آلاف الكيلومترات!

شوتوفا: أيحتمل أن تكون الجذوع محلية؟ بالرغم من أن استدارتها لا يمكن أن تصل إلى مثل هذه الثخانة فضلاً عن أن الجذوع تتعفن مع تقدمها بالعمر.

فلورنسكي: قدم علماء النبات رأياً بأن ذلك يمكن أن يكون دلباً أو كاراغاش ولكن أيّ أرماث تلك المصنوعة من جذوع ثقيلة؟ فعلماء النباتات القديمة بناء على تحليل غبار الطلع يوافقون على أنه لم تنمُ هناك في أي وقت من الأوقات غابة من نوع الأشجار العريضة الأوراق، يعني أن الأديم تغير منذ ٢٥٠٠ عام كل التغير وإن نهر آمودار يا يمكن عبوره من المخاضة.

غوميليوف: وصب أيضاً لا في بحر الخزر كما سمي قزوين سابقاً وإنما في الأورال فهو بدل سريره أكثر من مرة على مر التاريخ وفي زمن المقدوني لم تكن خازاريا بعد في البال (لم تكن قد وجدت بعد).

فلورنسكي: والآن حتى آمودار يا لا يصب في الأورال الذي يشرف على الموت وإنما في مرسى الحوض المائي التاخياتاشي تاخياتشسكي الذي يقع قبل الأخير وأخيه سردار يا لا يمتد حتى يصل إلى الأورال بل يتوزع على العدد الكبير من مآخذ المياه على مزارع القطن ويضيع في الحقول. والأورال نفسه ينكمش مثل الجلد المحبب (الشغران) وذلك واضح عند مقارنة عدد من الصور الفضائية في السنوات العشر الأخيرة إنه يتلاشى بتأثير ضغط النشاط البشري المرتبط بأديم الأرض مثل التوغاي[1] في أحواض الأنهار الآسيوية والتي بقيت فقط بسبب توحيد (نهري) الوحش وبيانجا في محمية «وادي النمر» التي لم يعد يظهر فيها الـ إيولبارس(النمر الطوراني) أبداً.

غوميليوف: إن الأديم التاريخي يتغير أيضاً فالباكتريون والصغديون ليسوا بعد في الوجود وأحفاد الأخيرين عاشوا في ذيول سلاسل جبال غيسار وسرعان ما طردوا بعد الحرب ورموهم «من أجل القطن» في السهول حيث انتهى الشعب من الوجود واختفاء الشعوب الأخرى أفاد ذلك الأديم وتفكك إمبراطورية الهيلينيين وحتى وطن الاسكندر المقدوني نفسه تقطنه شعوب أخرى.

شوتوفا: يتبدل الوجه الجيولوجي للأرض ولكل من المناطق شبابها ونضجها و «منحدر حياتها» والخريطة التاريخية تتغير، أليس الإنسان كذلك؟ أليس مع ظهور الإنسان الكرومانيوني Homosapiesn قد تشكل بصورة نهائية وكمظهر بيولوجي استقر تماماً.

١- التوغاي: تسمية للغابات التي تزرع في الوديان النهرية الصحراوية وشبه الصحراوية في مناطق آسيا الوسطى - المترجم.

غوميليوف: إن نظام بقاء المظهر دائم نسبياً فالإنسان كالكائنات الحية الأخرى يتبادل مع الوسط المادي والطاقة ولكنه يختلف عنها بكونه يحصل تقريباً على كل ما هو ضروري للبقاء (رزقه) بالعمل وهذا يعني يتعاون مع الطبيعة ليس ككائن حي فقط ولكن قبل كل شيء ككائن اجتماعي. إن سنة التطور الاجتماعية الإنسانية لا تلغي تأثير السنن البيولوجية ولكي تكون واضحة صار من الضروري دراسة أطر آلية تعاون الإنسان مع الطبيعة.

شوتوفا: إذن في نهاية الأمر بدأنا بالتنبؤ الاقتصادي - البيئي - الديموغرافي لبقاء الحضارة الأرضية كما تنبأ فيرنادسكي، وهذا يعد عنصراً أساسياً في التفكير الجديد - عالم الإدراك.

فلورنسكي: أوضح لنا فيرنادسكي العظيم - أن الإنسانية هي أيضاً قوة موجهة جيولوجية مثل البراكين والأنهار والبحر، فالناس يجرفون التربة بقدر ما تجرفها جميع براكين الكواكب، ومدخنو العالم كله «ينفثون» في الجو كادميوم أكثر من جميع براكين العالم خلال السنوات العدة الأخيرة، والسيدات الفاتنات اللواتي يستخدمن العطور (البارفانات) والبرادات قد ألحقن ما يعتبر أضراراً جسيمة بغلاف الأرض الأوزوني. إن تغير التكوين الاقتصادي - التقني للإنسانية صار قديراً بحيث أصبح ما كان ملعوناً في الماضي القديم «لكي تجري أنهاركم للوراء» قد صار الآن ليس ممكناً فحسب بل ويُصنَع فالقوة موجودة عندنا أما العقل؟ أما الحكمة؟ فقط بعد السنوات العشر الأخيرة أعاد الإنسان البناء إذا لم نقل خرب كل الكواكب بخلقه وضعاً إيكولوجيا (بيئياً) متأزماً على نحو جارف.

شوتوفا: لو أردنا تقسيم مراحل تطور المناطق الطويلة الأمد ونتائج نشاط الجنس البشري لعرفنا أين العمليات الطويلة الأمد وأين هي الجيولوجية الفجائية.

فلورنسكي: إن ثوران البركان من وجهة نظر الجيولوجيين هو حدث قليل الأهمية فالزمن يسوي جميع العمليات ولكن حتى القطرات خلال مليون عام تفعل الكثير.

غوميليوف: عَمِلت الصحارى المقفرة على ارتفاع درجة حرارة المناخ، والقطعان الهائلة من الحيوانات الداجنة تكاثرت قبل ذلك، فكيف تنتج الآن الصحارى في الكاليمك كذلك قطعان فائقة بالمقارنة مع مناطق الفولغا - تشوغراي.

شوتوفا: هل مأساة المحيط الجوي متعلقة بالتطور الاجتماعي؟ ويعجل بها التقدم التقني؟ أم أن ذلك هو الإرادة الشريرة لبعض الناس؟

غوميليوف: لو أن عمليات تدمير المناطق لا تقطعها مراحل إعادة الإنشاء لصارت الأرض أيضاً في العصر النيوليتي (الحجري الحديث - المترجم) صحارى، ولكن ذلك لم يحدث، إن تخريب النباتات والحيوانات الخاصة بمنطقة ما يلاحظ على السواء في المجتمع البدائي، فالماوريون (شعب الماوري - المترجم) أبادوا طائر الموه (طائر نيوزيلندي منقرض - المترجم)

وفي العهد الإقطاعي جاء الأسبان بالماعز إلى المجر وتلك أكلت نباتات الجزر، والصينيون في الألف الأولى قبل الميلاد دمروا الغابات في شمال شان - سي وشن - سي وفتحوا منفذا للرياح الصحراوية الحاملة للرمال إلى داخل الصين، والصيادون البدائيون أبادوا الماموث، وكذلك الفرس القدماء أبادوا الأسود في إيران، إن تخريب الإنسان للنباتات ما زال أكثر شدة، وبالنسبة لتربية الماشية عند الحضريين أدى إلى إفقار الغطاء النباتي والماعز ساعدت الهيلينين القدماء والرومان على تدمير غابات البلوط والسنديان الصلبة المورقة والصنوبر في مناطق البحر المتوسط حلت محلها أدغال الماكفيس (Mokbus - اسم هذا النبات لم نعثر له على مقابل بالعربية).

فلورنسكي: على كل حال الإنسانية ليست هكذا قادرة على كل شيء في محاسنها وليست هكذا متهورة في مبادراتها الشريرة، وللأرض أيضاً طابعها، كل يعرف نهر أوزوب سرير آموداريا الذي استدار عند قرية سلطانوفايس (سلطان إيزداك) نحو الجنوب الغربي عابراً قره - قوم وصب في بحر قزوين ثم جف. لكن من الذي لا يتهم حتى المناخ وذوبان الثلاجات في تيان - شان.

غوميليوف: عندما جاءت إلى الأتراك سفارة من بطرس الأكبر برئاسة الأمير بيكوفيتش - تشيركاسكي اشتكى الأتراك من الخوارزميين الذين زعموا أنهم سدوا مجرى نهر الاوزوب وكان أساس الحلف المقصود هو المساعدة العسكرية للتركمان ضد الخيفنيين والمياه في الاوزوب وهذا القسم من الاتفاقية نفذ فقط في أيامنا هذه بقناة قره - قوم المسماة لينين ولم تُنْشَأ بجهود المحاربين بل بالعمل المشترك لشعوب البلاد.

شوتوفا: إذن من الذي «سرق» مياه الاوزوب؟

فلورنسكي: على ما يبدو هذا من أوروبا الغربية فعبر الدونباس واستراخان ومانغشلاك إلى سلطانوفايس وبالتالي إلى بخارى يمر خط انهدام هائل، وعلاوة على ذلك إن منطقة هذا الانهدام - هي مستودع أحافير مفيدة، وفي هذا الانهدام تتحرك كتل قشرة الأرض مثل مفاتيح البيانو وهكذا ارتفعت سلطانوفايس سابقاً أسرع من الآن وآموداريا لم يستطع أن يشق طريقه إلى الأورال، أما الآن فهذا الارتفاع تباطأ وكل المياه ذهبت من دون أيّ موانع إلى الشمال، ولعل انتصارات جنكيز خان صارت انتصارات لأنها توافقت مع الظرف الجيولوجي الملائم لها.

شوتوفا: إليكم التاريخ والجغرافيا إن الطبيعة أبدعت ما لا نقدر نحن البشر على إبداعه: الأنهار والجبال والبحار والكائنات الحية والناس يستطيعون تخريبها ولكنهم أيضاً يستطيعون البناء واختراع الآلات ورسم اللوحات.

فلورنسكي: أي أن عناصر الطبيعة تنسجم مع بعضها بعضاً، الطبيعة تحيا ممتلئة بتلك الطاقة التي تتلقاها من الشمس ونجوم المجرات والانشطار النووي في

أعماق كواكبنا. والمحيط الحيوي للأرض يتغلب على الانتروبيا الكونية بواسطة الانتقال النشوئي الإحيائي (البيوجيني) للذرات.

غوميليوف: إن الأشياء التي خلقها الإنسان يمكن: إما أن تبقي وإما أن تتخرب. فالأهرام تقف منذ زمن طويل وبرج إيفل لا يمكن أن يظل واقفاً بمثل هذا المقدار ولكن لا ذاك ولا هذا مخلد.

شوتوفا: ولكن أين حدود المحيط الحيوي والمحيط التقني إذا كان الإنسان نفسه - جزءاً من الطبيعة؟ من الواضح أن حد المحيطات الاجتماعية التقنية والحيوية يمر ليس فقط من ما وراء حدود الأجسام البشرية وإنما من داخلها، يعني حيثما نستطيع أن نتلمس حالاً اللحظة الحقيقية لتفاعل الاجتماعي مع البيولوجي، فعلى أي مستوى من التنظيم يتفاعل الإنسان مع الطبيعة؟

غوميليوف: من وجهة نظر المؤرخ لا يجوز النظر للإنسانية كوحدة تامة وإنما يجب أخذ وحدة أخرى - على مستوى الإثنوس: فالإثنوسات - هي ظاهرة تعود إلى المحيط الحيوي والمحيط الاجتماعي ويجب أن ينظر إلى الإثنوس لا كدالة على التقدم الاجتماعي وإنما كظاهرة مستقلة، فالإثنوسات مرتبطة دوماً بالظروف الطبيعية وبالأديمات (المناطق) - لأنها هي أيضاً متنوعة مثل الأديمات ما دام ما من مكان على الأرض لم تطأه قدم الإنسان فالمنطقة تحدد إمكانية الجماعة الإثنوسية عند نشوئها، أما الإثنوس المولود حديثاً فإنه يغير المنطقة تطبيقاً لمتطلباته ثم يبدأ بالاعتياد على الموقف المتشكل الذي يصبح حميمياً ومحبوباً للأحفاد. والارتباط بالمنطقة يبقى باللا وعي بالأرواح فالروس الذين عمروا سيبيريا فضلوا الاستقرار عند ضفاف الأنهار الغابية والأوكرانيون فضلوا المناطق السهبية.

شوتوفا: مثل كل إنسان كل جماعة معرضة للتأثيرات الاجتماعية والنظام الطبيعي لتحرك المادة وتتطور أثناء الزمن فهل هذا تاريخ في الفضاء هذا - جغرافيا.

غوميليوف: شاهدنا في المسح الأول التنظيم الاجتماعي: للقبائل المتحدة والدولة والأحزاب السياسية والمدارس الفلسفية وفي الثاني الإثنوسات: جماعات الناس التي نشأت وانتشرت خلال الزمن التاريخي المنظور ولكن كان لها في كل حالة بنيانها الأصلي ونوع السلوك الذي لا شبيه له وإيقاع التطور الفريد في نوعه.

فلورنسكي: يعني عِرقكم - أديمنا كما قال الخطاب في الزمن القديم الطيب والمحيط الحيوي يتكون في الأديمات (المناطق) والناس - في الإثنوسات وهاتان الظاهرتان موجودتان ولهما ذلك المخرج (المقام) المشترك الذي يسمح للعالم في العلوم الطبيعية والعالم في العلوم الإنسانية أن يتباحث أحدهم مع الآخر بصورة صحيحة دون إدخال مفاهيم أحد العلوم وإن كانت قريبة في الآخر. فطغيان وانحسار بحر قزوين بالنسبة للجيولوجي هو تقلب مستوى مياهه وبالنسبة للمؤرخ - هو موت خازاريا وسحق السلاف والأتراك لها،

وبالنسبة لمعاصرنا هذا اختلاس للموارد المائية بتحويل مياه الأنهار الشمالية إلى قزوين الذي ارتفع مستواه هكذا، ودع بعضهم يَقُلْ: «أديم - منطقة» وآخرون «إثنوس» مقياساً للامتداد بالزمن وحجم المادة ومساحة الكواكب فذلك بالنسبة للعالم في العلوم الطبيعية وعالم العلوم الإنسانية الشيء ذاته.

وبهذا الشكل فإن تاريخ أصل الأديمات وتطورها هو تاريخ تعاون التقانة والطبيعة عبر آلية الإثنوس وعلاقة الناس بالوسط المحيط وفقاً لمراحل الإثنوجينيز. إذا كانت عمليات الإثنوجينيز نشوئية - تطورية أي طبيعية من تلقاء ذاتها فبالتالي يجب أن لا تخلق تغيرات غير قابلة للعكس في المحيط الحيوي وإذا خلقتها فذلك يعني هنا وجود عامل ما وهذا يخص على سبيل المثال التغيرات التاريخية فيما بين نهري دجلة والفرات، وعندكم على ما يبدو رواية أخرى هي «Chercher la Fame» «فتش عن المرأة».

غوميليوف: باب - إيلي «بوابة الإله» بابل، أسسها العموريون في القرن التاسع عشر قبل الميلاد واحتلها الآشوريون في القرن السابع قبل الميلاد وحطم الكلدانيون آشور في عام ٦١٢ق.م. وأصبحوا سادة بابل التي وصل عدد سكانها إلى المليون واعتمد سادة بابل على نظام الري بين نهري الدجلة والفرات عند ذلك رموا بالمياه الزائدة إلى البحر عبر الدجلة وكان ذلك معقولاً لأن الأنهار أثناء الفيضان تحمل الكثير من المواد العالقة (الطمي) أما توسيخ التربة بالحصى والرمل فلا فائدة منه.

ولكن في عام ٥٨٢ق.م وطد نبوخذنصر سلماً مع مصر بزواجه من ابنة الملك الأميرة نيتوكريس وجلبت معها إلى بابل حاشيتها من المصريين المتعلمين واقترحت نيتوكريس على زوجها وليس من دون مشورة مع مقربيها إنشاء قناة جديدة وزيادة المساحة المروية وقبل الملك الكلداني اقتراح الملكة - المصرية وأنشئت قناة بالوكات التي تبدأ إلى الأعلى من بابل، ورويت مساحات زراعية هائلة خارج حدود الأحواض النهرية.

شوتوفا: وماذا حصل من جراء ذلك؟

غوميليوف: صار الفرات يجري ببطء وترسب الطمي في قنوات الري وضاعف ذلك تكاليف العمل للمحافظة على شبكة قنوات الري وأدت المياه من قناة بالوكات المارة في منطقة جافة إلى تملح التربة وتوقفت الزراعة عن أن تكون اقتصادية وأقفرت بابل وفي عام ١٢٩ق.م صارت غنيمة للبارثيين وبقي منها حتى بداية الميلاد فقط قرية صغيرة ولكن سرعان ما زالت هي أيضاً.

شوتوفا: هل صحيح أن هوى الملكة استطاع أن يدمر بلاداً مزدهرة؟ ربما لم يكن دورها حاسماً على كل حال.

غوميليوف: لو أن الملكة كانت من السكان المحليين لكانت فهمت أيّ عواقب مهلكة يحملها إصلاح زراعي لا تأمل فيه أو تشاورت مع مواطنيها ولعثرت من بينهم على أناس أذكياء. ولكن الملك كان كلدانياً والقوات مكونة من

العرب، والمستشارين كانوا من اليهود، والمهندسون أيضاً مصريون أول تكنوقراطي في التاريخ حملت معها أساليبها في الإصلاح الزراعي إلى الفرات عفوياً، والنيل يحمل أيضاً الطمي الخصيب لكن رمال الصحراء تصرف أيّ كمية من المياه ولذلك لا توجد خطورة تملح التربة في مصر.

شوفوتا: هل كانت هناك محاولات لإصلاح «الإصلاح الزراعي البابلي»؟

غوميليوف: في القرون ٧-٩م حاول العرب أن يقوموا بذلك فقد امتلكوا مصادر هائلة رخيصة من القوى العاملة حصلوا عليها من العبيد - السود من زنجبار فقد حملوهم على جمع بلورات الملح من حول أنقاض بابل، وجمعوها بالقفف ونقلوها، والفكرة حسنت التربة بشكل غير محسوس لأن البلورات الدقيقة لا ترى بالعين المجردة أما العمل فكان رهيباً مرعباً! تحت أشعة الشمس الحارقة بالأيدي المنخورة بالملح وبلا أمل بالراحة، وقام الزنوج البائسون بثورة استمرت نحو ربع قرن وفي نهاية الأمر أدت إلى هلاك الخلافة البغدادية وهكذا كان ثمن المحاولة الثانية للإصلاح الزراعي التي كانت بلا تبصر للغاية مثل الأولى.

شوتوفا: على ما يبدو لا يجب الأخذ بالحسبان أن أي إصلاح زراعي للتربة هو مدمر فهو يصبح كذلك عندما لا يأخذون بالحسبان كما تحدثنا الآن العواقب الإيكولوجية (البيئية).

غوميليوف: حدث هذا في القديم لما استخدموا من أجل العمل الناس الغرباء، الدخلاء، الذين لم يتعلموا في حين من الأحيان وإنما كان عليهم أن يعملوا وهذه هي النتيجة! والأكثر مأساة هو أن المهاجرين دخلوا مع السكان الأصليين بعلاقة عكسية، فقد علموهم وأدخلوا تحسينات تقنية ملائمة للمناطق الأصلية للمهاجرين وليس لتلك الأماكن التي حملوهم إليها تلقائياً، وفي بعض الأحيان تصبح التأثيرات المدمرة غير قابلة للعكس، ولكن أحياناً يؤتى من أجل العمل بإثنوس يشكل جزءاً من المنطقة المستوعبة فيعمل بانسجام مع العمليات الطبيعية ويكون (بيوتسينوزا Biotsenoza) ثابتاً يكون فيه للنبات والإحياء والناس معتزل (موضع) بيئي ملائم.

شوتوفا: شكراً لكم ليف نيقولاييفتش على وجهة النظر «الاثنوبيولوجية» للقصة عن برج بابل فهي لا تناقض وإنما تكشف تأويلها المثيولوجي والبيئي. ومن المهم لنا معرفة العمليات البيئية كما هو مهم دراسة الجفاف والفيضانات والتسونامي (الأمواج المدية) التي ليس في مقدورنا تلافيها أو منعها ولكن يمكننا التنبؤ بها ونحسب حسابها، ووردت في ذاكراتي أمثولة شرقية عن حتمية القدر: رأى الوزير في بغداد شخصاً مبشراً بالموت من عزرائيل ويطلب من الملك جواداً ليختبئ في سامراء هرباً منه ولكن عزرائيل نفسه تعجب من ملاقاته - لأنه خلال عدة ساعات كان عنده معلومات من الوزير في سامراء.

فلورنسكي: لا داعي للإغراق في التشاؤم الكوني ففيما يتعلق بكوكبنا إنه ما زال في ريعان الشباب إذا نحن، البشرية - أقوى قوة جيولوجية - لم نعجل نحن بأنفسنا في دماره. يحبون البحث عن أسباب اختفاء الديناصورات من الكون. في الماضي تذرعوا بالله و «الله - هو الله، هو ذاته لا يمكن أن يكون شراً» «إنه مصدر الخير» الأديمات هي نفسها تبيد والإثنوسات تشيخ فهل هذا رديء أم حسن؟ بالنسبة لي الديناصورات تستحق العطف ولكننا في نهاية الأمر أقدمنا على تبديلها فعندنا الآن «ديناصوراتنا» المخاوف من التقنية الوراثية، والحفارات المتقدمة، والأديمات التي لا معنى لها - «عصر البناء» وهناك أيضاً (الأديمات) التي ألحقنا الضرر بها، آذيناها، والجور على الطبيعة والوسط الإثني أنزل خسائر لا تعوض بأديمات الأرض، ففي الفترة من عام ١٩٢٧م إلى عام ١٩٣٧م تضاعف قطع الأخشاب بجزر سولوفتسكي أكثر بخمسين مرة وبعد ذلك صار معسكر سولوفتسكي معزولاً بقناة البحر الأبيض - بحر البلطيق (القناة الواصلة بين البحر الأبيض الشمالي وبحر البلطيق). وفي فرع تنظيم إدارة الموارد المائية في مفوضية الشعب للشؤون الداخلية حيث كان مدير المؤسسة في وقتها ومديرو الفروع المدعوون رؤساء غطوا في تلك السنوات خريطة البلاد بالمنشآت المائية الهائلة التي تم تأمين اليد العاملة بسخاء للمسؤول عنها بلا مقابل (مجاناً) وكانت مساحة الأحواض المائية السهلية تعادل عشر مرات مساحة لبنان ومن رفعها لدرجة الحرارة قليلاً دمرت مساحة مساوية لدول أوروبا الوسطى. وباد حوض الفولغا الذي أطعم في وقت من الأوقات ثلث قطعان روسيا الأوروبية، وأنزلت ضربة لا تعوض بروسيا القديمة مع مؤسساتها الأصلية القائمة بذاتها وبكل مسيرة التطور التي أعدت للاشتراكية. ودولاب الموازنة (الدولاب المعدل لعزم الدوران (ميكانيك) - المترجم) الذي دار لا يمكن أن يقف بحال من الأحوال، ووزارات - احتكاريو: الطاقة والثروة المعدنية، والموارد المائية، بإهمالهم الاحتياجات الاقتصادية الحقيقية يستمرون بالاتجاه إلى إقامة المنشآت الهيدروتكنيكية على الأنهار وشق القنوات في مناطق الفولغا وآسيا الوسطى واستعيض عن عمل قوة العبيد المجانية بأموال الميزانيات التي دفنت بالأرض، كما جعل الناس الأرض في غابر الأزمان ماحلة.

شوتوفا: هذا هو أيضاً درس تاريخ مع جغرافيا مع أنهم يقولون إن درس التاريخ الرئيس - هو ذاك الدرس الذي لا يعلم شيئاً.

فلورنسكي: وأسفاه تُسمَع هذه النكتة مراراً كثيرة وكأنها حقيقة. فهل هي هكذا؟ إن التاريخ - هو من أسس الحضارة، الشعب المقدس الأصلي - أساسه الماضي والأسلاف، كانت قبور الأجداد عند المزارعين القدماء دوماً على مقربة في المقابر، أما عند الرحل؟ ألا يمكن هناك الموافقة على ما قيل في القرن ١٩م من: أن حضارة الرحل هي أكثر بدائية من حضارة الفلاحين مع أن هذا ليس

كذلك تماماً، فعند الكازاخيين المعاصرين لوائح بالأجداد (شجرات أنساب - المترجم) فكل مثقف كازاخي (ومن وجهة نظر الثقافة الوطنية هذا يعني كل الكازاخيين) يعرف سلسلة نسبه بالضبط حتى آدم أجل - أجل لقد رأيت مثل تلك السلاسل على صفائح من الورق وأقمشة اليورتات (مفردها يورتا بيت الرحل في آسيا الوسطى - المترجم) وأي كازاخي يعرف تاريخ قبيلته ويجد بسرعة درجة القرابة مع الكازاخي الآخر، وأسماء الأجداد هي تاريخ وبوشكين فهم التاريخ بواسطة أجدادهم - أليست هذه حضارة؟

غوميليوف: تتناسب حضارة الإنسان طرداً مع معرفة الماضي لقد كتبت بحثاً علمياً في موضوع واحد عن فناء الصين القديمة «الهونّو - في الصين» في ذلك الوقت ماتت هذه وغيرها، وكتبت عن فناء القبيلة الذهبية وروسيا القديمة التي ظهرت في مكانها روسيا العظيمة الجديدة. التاريخ هو الدورة المستمرة للحياة عبر عتبة الموت.

شوتوفا: ليف نيقولاييفيتش في أي مرحلة من الإثنوجينيز يوجد الآن الإثنوس الذي ينتمي إليه المشاركون في الحديث؟

غوميليوف: بالتفاؤلية نفسها انظري بنفسك وتذكري معركة كوليكوفسكي. تكتل الإثنوس حول موسكو. التاريخ مع الجغرافيا - هذا مفيد جداً.

شوتوفا: وعلى هذا النحو على خط انقسام التاريخ مع الجغرافيا تستند نظرية الإثنوجينيز (Ethnogeny) وعلى خط انقسام (توزع) المعارف يتلاقون مستقبلاً في عقيدة واحدة، شكراً للمحدثين حيث أناروا الطريق إلى معبد عالم العقل.

obeikandl.com

روسيا القديمة وجيرانها في منظومة التجارة العالمية والتبادل العيني

تحتاج وجهات النظر التاريخية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية إلى التدقيق، وهكذا كانت التجارة في روسيا القديمة كما مقايضة التبادل كذلك العالمية (بين الشعوب) ولكن معناهما ومضمونهما يختلفان للغاية عن ما هو مألوف عندنا.

إن تجارة المقايضة بالتبادل بين الغابيين (سكان الغابات) السلافيين والسهبيين (سكان السهوب) مع رعاة المواشي القريبين منهم تمت على الدوام بالأسلوب الأكثر وداً، وهكذا جرت تجارة الغزولات في مجاري انهار الأورال وسيبيريا وهذا لا ينفي الحروب المستمرة التي جرت مع ذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر بين البولوفيين والبتشينيغيين أو بين الراديمتشيين والسيفيريان وهذا يعني أن رحلاً تحاربوا مع رحل ومزارعين مع مزارعين، والنظر في أسباب هذه الحروب «الإقطاعية» لا يدخل في مهمتنا اليوم.

إن التجارة العالمية التي ازدهرت على طرق القوافل من الصين حتى أسبانيا تشابهت على نحو قليل جداً مع الصراع في الوقت الحالي على الأسواق، فقد تاجروا بالمواد الكمالية للغاية: الحرير، والفراء، والشمع والعبيد. والمشترون كانوا فقط الحكام الأغنياء وفي هذه الأيام يسمون مثل هذه التجارة «العمليات النقدية».

وهؤلاء التجار لم يتعاطوا المشاركة في الحروب بل على العكس استفادوا بدفع الرسوم من حماية جميع الملوك والسلاطين والخانات والأمراء، والحروب من أجل الأسواق ظهرت مؤخراً كظاهرة خاصة بالرأسمالية.

ولكن سرعان ما ظهرت نتيجة وهي أن تجارة القرون الوسطى لم يكن لها أهمية للتحكم الجغرافي بالشعوب ولذلك لم تهمنا وهذا غير صحيح أصلاً! لقد أثرت بقوة للغاية على الاتصالات بين الإثنوسات ولكن ليس ببساطة وإنما بتعقيد، فأحياناً أدت هذه التجارة إلى فناء الشعوب وأحياناً - إلى ازدهارها المؤقت وأحياناً إلى الأزمات الاقتصادية، وفي هذا المنهج حدث الموقف الأمثل في السهوب الواقعة عند البحر الأسود في العهد ما قبل المغولي المرتبط مباشرة بمصير وطننا

(وطن المؤلف روسيا - المترجم) وشعوبه، وبهذه المعلومات النموذجية يصبح حل المسألة المطروحة عن دور التجارة أسهل نسبياً.

إن الاهتمام الزائد بالاصطدامات الروسية - البولوفية ولد الكثير من المفاهيم الخاصة الذكية جداً والمتضاربة دوماً والتي يقودنا تحليلها من الإثنولوجيا (علم الإثنوسات البشرية - المترجم) إلى مجال الجغرافيا التاريخية ولكن ذلك يعطي حجماً. لا لتوصيف السلافي والتيوركي وإنما للمختصين بالعلوم السلافية والتيوركية الأمر الذي لا يدخل في مهمة بحثنا ولذلك يمكن الاكتفاء بتحليل مفهومين: السياسي المنطقي والاقتصادي، والأول صاغه أ. ي. بيرسنياكوف وبالأخص نظرية «الاستدعاء والرد» الحدسية لـ أ. توينبي. والثاني أ. ن. روجكوف الذي بتتبع وجهات نظره ظهرت نظرية «رأس المال التجاري» والصراع من أجل الطرق التجارية لـ م. ن. بوكروفسكي. وهذا الجانب من آراء م. ن. بوكروفسكي غير مرتبط عضوياً بتصريحاته بالرغم من هذه وتلك كانت قد نبذت أثناء الأبحاث التي تلتها فيما بعد.

وعند شرح الظواهر التاريخية المهمة كنشوء أو فناء هذه أو تلك من «الحضارات» على سبيل المثال - يبرز دوماً السؤال «لماذا»؟

فارنولد توينبي يرفض كل التأثيرات الطبيعية - البيولوجية والجغرافية - ويعرض تصوره الأصلي «الإنسان يصل إلى الحضارة ليس نتيجة للمواهب البيولوجية العالية (الوراثية) أو المحيط (البيئة) الجغرافية (الموجودة بظروف سهلة للحياة) وإنما كرد على التحدي في الموقف الصعب للغاية الذي يلهمه للقيام بجهد لا سابق له» ولهذا السبب يحمل أحد فصول عمله اسم «فضيلة البؤس».

وما هي هذه التحديات. هل هي الظروف الطبيعية السيئة أحياناً كالمستنقعات حول النيل والغابة المدارية في يوكاتان والبحر حول هيلاديا أم الثلج والصقيع في روسيا وهل يمكن أن يكون سبب ازدهار بريطانيا - الضباب اللندني؟. عن هذا يصمت المؤلف. والمجموعة الثانية من التحديات - اعتداءات الغرباء التي برأي أ. توينبي تحفز تطور الحضارة لأنه يجب صدها ويذكر مثلاً على ذلك النمسا التي لو لم تسبقها بافاريا وسكسونيا لوقع عليها إذن عدوان الأتراك لأنه كما هو معروف اعتدى الأتراك في البداية على بلغاريا وصربيا وهنغاريا وبيزنطة التي رد عليها هؤلاء بالاستسلام، أما فيينا فقد طردت قوات يان سوبيسي العسكرية عنها الأتراك الذين في تلك اللحظة عينها لم يتحداهم الأتراك فيها. وهذا المثال لا يؤكد المفهوم وإنما يتناقض معه.

هذا التراجع الطويل دعا أ. ي. بريسنياكوف بغض النظر عن أ. توينبي وقبله (١٩٠٧-١٩٠٨) لإعطاء تفسير مماثل أيضاً عن ازدهار إمارة كييف: لقد أدى تهديد الرحل من السهوب الجنوبية إلى تشكيل «منظمة الحرس - الأميري»

ولكن لقاء خدمة عملها لحضارة كييف الأوروبية «كوفئت بإضناء قواها مبكراً» وهذا شكل آخر لنظرية «الصراع الأبدي للغابة مع السهب».

ولكن هناك الكثير من الغموض في تفسير أ. ي. برسينياكوف إذا لم يكن كله. فكيف لم يستول عليها البتشينيغ وإنما الفارياغ والبتشينيغ كانوا لزمن طويل حلفاء لايغور وسفياتوسلاف الذي يعتبر موته المأساوي حادثة تستحق بحثاً مستقلاً وفيما بعد دعم البتشينيغ ياروبولك وسفياتوبولك ضد فلاديمير ياروسلاف وهذا يعني شاركوا في الحروب الداخلية لا أكثر.

والعدوان على كييف في عام ١٠٣٦م مرتبط بتبديل الدين وفي ذلك الوقت دل هذا على تبديل التوجه السياسي.

والأتراك التمسوا الاتحاد مع قسيفولود الأول وكذلك مكاناً للإقامة والبولوفيين بعد شهرين من الانتصار المفاجئ عند نهر آلت هزموا شر هزيمة عند سنوف لأن ٣٠٠٠ روسي وجدوا أنفسهم أقوياء لدرجة كافية ضد ١٢٠٠٠ من الكومان وحدثت حرب ١٠٩٣-١١١٦م بمبادرة من الروس أما في القرن ١٨ فقد جاء الروس إلى كالكا لإنقاذ البولوفيين من المغول فلأي شيء كان ذلك؟

أجل المبدأ نفسه؟! لو كان هناك ضرورة واحدة فحسب كافية لإنشاء دولة قوية فلماذا تنشأ هكذا بصورة نادرة؟ ولماذا لم تنشأ مثل هذه الدولة في القرن الثالث عشر لما كانت الحاجة إليها شديدة؟ ولماذا أخضع الأمراء الكييفيون مراراً السلاف وليس البتشينيغ والبولوفيون؟ نعم وبقسوة أكثر وعلى ما يبدو لم يكن السلاف بحاجة لدولة قوية في كييف بالرغم من أن كييف كانت مركز التجارة في أوروبا فمن كييف وعبر كييف حملوا الفرو والمصنوعات الثمينة والأقمشة الغالية والنبيذ والتوابل وماذا وقع في كييف؟

وهنا يبدأ النقاش في المفهوم الاقتصادي لـ ن. أ. روجكوف متخذين أ. ي. برسينياكوف من دون نقد. وهذا ليس حكماً على ن. أ. روجكوف الذي على ما يبدو أنه محق تماماً عندما يكتب «إن التجارة الخارجية في ذلك الزمن تميزت بميزتين مختلفتين ولهما أهمية من الدرجة الأولى: أولاً كان النشاط التجاري هو العمل الاستثنائي لواحدة من الزعامات الاجتماعية العليا الأمراء والأعضاء في فرق متطوعتهم ومجموعات غير كبيرة من المواطنين الميسورين، ولم تتولَّ جماهير السكان فيها أيّ مشاركة لأنها ما باعت وإنما أعطت مجاناً (أو بأبخس الأثمان) بشكل إتاوة منتجات الصيد وتربية النحل وثانياً لم تتناول التجارة الخارجية المتطلبات الحيوية حتى تلك التي تديرها الطبقات العليا من السكان. فكل ما احتاجوه حصلوا عليه عيناً مرسلين إلى السوق الخارجية فقط الفوائض مقايضين بها فقط المواد الكمالية».

وعلى هذا النمط هذا مشابه لـ «التجارة» مع هنود كندا وقبائل الزولو في جنوب إفريقيا، هذا أسلوب استرقاق البلدان عن طريق الخداع وربط الحكام. هذا برنامج «مستعمري عهود الاكتناز الأولي» للرأسمالية (التعبير الديالكتيكي الدقيق

هو اكتناز المال الأولي - المترجم) المدمر للشعوب التي أصبحت من ضحاياه. ويقسمه ن. أ. روجكوف فهو مثل جميع المؤلفين المذكورين يؤكد أنه «في القرن الحادي عشر مع سقوط المملكة الخزرية وانتصار البولوفيين في السهوب الجنوبية والجنوبية - الشرقية ضعفت التجارة مع العرب وفي النهاية توقفت كليا لأن البولوفيين قطعوا الطريق الموجود سابقاً لهذه التجارة» ودمروه. ومن هنا يستنتج روجكوف أن البولوفيين مثلوا الخطر الأكبر على الدولة الروسية القديمة.

وكان على ن. أ. روجكوف أن يهتم بأعمال الخلفاء الذين فرقوا في القرنين العاشر والحادي عشر بين الكارمات والديالمة والسلاجقة. ودارت الحرب هناك بصورة مستمرة، ولم يتاجر أي أحد بأي شيء! وليكن معلوماً أن التجار في السهوب من الصين حتى ألمانيا استفادوا من الحصانة التي دفعوا من أجلها الرسوم.

ولكن المهم ليس هذا وإنما لماذا كانت التجارة الروسية بحالة عجز؟ وهذا أيضاً ليس «غابة وسهب» وإنما عبادة الثروة والكسب. المامونيا.

ومع بداية القرن العشرين تحول الإعجاب بتجارة الترانزيت والعجز الذاتي عند جملة من المؤرخين إلى فكرة ثابتة ورثها بعض المؤرخين السوفييت من مشكلات الجغرافيا التاريخية في العهود السابقة. فقد رأى ب. إي. لياشنكو في رحل «متوحشي سهوب الجنوب» السبب في إعاقة التطور التاريخي للسلاف الشرقيين، كيف فهم هذا، هل صحيح أن السلاف الشرقيين كانوا في حاجة لأن يسلموا مجاناً فراءهم بشكل إتاوة بواسطة الأمراء التجار والمرابين؟!

ويرى س. ف. يوشكوف سحق الخاقانية الخزرية - دولة تجار العبيد والمضاربين الوحوش - كظاهرة «سلبية» في تطور روسيا الاقتصادي. ويشير ب. ب. تولوتشكو إلى أن الدفاع عن و «حراسة الطرق التجارية تزعمها الأمراء الكييفيون وتم لصالح روسيا كلها» ولكن لماذا كييف كانت قد تعرضت للنهب أولاً من قبل السوزداليين في عام ١١٦٩م ثم التشيرنوغوفيين في عام ١٢٠٣م؟

حتى ف. ف. كارتمالوف يعامل بعداوة شديدة شعوب وطننا الصغيرة ويكتب أنه في القرن الثاني عشر «تمت الحروب الأهلية النادرة بسلامة دون أن يطلب هذا الأمير أو ذاك مساعدة الأنجاس «وبالتالي شكل البولوفيون والروس نظاماً إثنو - اجتماعياً (إثنوسي - اجتماعي - المترجم) واحداً، زد على ذلك أن عدد الروس قد وصل إلى ٥.٥ مليون أما البولوفيون - فعدة مئات من الآلاف. إذن توقفت بالتأكيد علاقات روسيا التجارية مع الشرق في القرن الثاني عشر: واختفى الخرز الشرقي من موجودات المقابر القديمة وذلك مؤسف بالطبع ولكن ألم يتوقف وصول الفراء الروسي إلى الشرق. نعم وحرم التجار الأجانب من القسم الأكبر من المداخيل ولكن مقابل ذلك قلت الضغوط الضرائبية على السكان. فإعالة الأمير مع فصائل متطوعته من الرجال السلافيين كانت سهلة، وأما إشباع

السوق العالمية فعلى الأرجح كان خارج مقدوروهم، ولذلك كان الناس في روسيا في القرن الثاني عشر متعاطفين مع البولوفيين ولم يكونوا حاقدين عليهم.

ولكن لو فكرنا أن وجهة النظر هذه لم تكن أصلية هكذا بالفعل، فقد بينا أعلاه أن الأمراء التشيرينوغوفسكيين والسيفيريين قد تعلموا إيجاد حلول وسط مع البولوفيين وفلاديمير مونوماخ تحدث مع البولوفيين من موقع القوة، فمن جهة سحق استقلالهم وأدخل الرحل الغربيين في قوام الأرض الروسية، ومن جهة أخرى عقد مع البولوفيين «١٩ سلاماً» وهذا يعني استخدمهم كحلفاء ضد الأمراء الروس الآخرين وكلا الموقفين استثنيا الحيف تجاه البولوفيين، واستطاع الأمراء التفاهم معهم ربما أكثر مما فيما بينهم وربما ظهر تفسير مؤرخي القرنين ١٩ و ٢٠ لأحداثهم غير واقعي للمعاصرين.

ولكن كان هناك منهج ثالث والحق يقال فقط في كييف في بلاط الأمير الكبير سفياتوبولك إيزياسلافيتش قامت به «شبيبة» أنصار سفياتوبولك الثاني، والتسمية لا تدل على أعمارهم الحقيقية فقد كان ذلك ببساطة هكذا اسماً لحزب مرتكز على رأس المال التجاري وله توجه بولوني - ألماني، وهذا الحزب بالذات دفع الأمير الكبير للحرب لأن الأسرى باعوهم عبيداً للتجار الذين نقلوهم إلى ريغينسبورغ وفينيسيا للبيع ثانية في مصر. وكان اليونانيون منافسين لهؤلاء التجار ولذلك كانت المتربوليتية في المعارضة لسفياتوبولك الثاني أما دير كييفو بتشيرسكي المنافس للمتروبوليتية فقد دعم سفياتوبولك وفي هذا الدير نفسه عمل مسجل الحوادث التاريخية نسطر: وتَوَجّه مسجل الحوادث واضح.

وهكذا كان الرهاب (الخوف من شيء محدد - المترجم) الكوماني في القرن ١٢م برنامج التجار الأجانب ومتزلفيهم في كييف الذي كان ملائماً لهم وموقفهم يمكن توضيحه، ومؤرخو القرنين ١٩ و ٢٠ لم ينجحوا بعد في دراسة تاريخ السهب العظيم وتخيلوا على حسابه. وهكذا بالنسبة لعلم القرن العشرين (طبعاً صار القرن الماضي - المترجم) هذه التخيلات غير مناسبة وبخاصة وجهات نظر هذا الفريق التي يرددها الكثير من المؤلفين.

كلا لم يكن علم ما قبل مرحلة الثورة الروسي متخلفاً ولكن لم يكن أيضاً متقدماً. فالمدرسة الحقوقية انضمت إلى الاقتصادية في السؤال التاريخي الحاد عن تاريخ روسيا القديم وهو - مسألة الجيران الشرقيين والباعث لكلتا المدرستين كان واحداً وهو «اضرب المتوحشين» كما يتطابق هذا مع الحل الأمريكي للمسألة الهندية «الهندي الجيد - هو الهندي الميت»! وكم هو شنيع هذا الحل الآن! فالأمريكيون أنفسهم يخجلون من أسلافهم الذين قدموا الجائزة من أجل فروة رأس الهندي كما لو أنها ذيل ذئب ونحن (يقصد الروس - المترجم) لحسن الحظ ليس عندنا بواعث على الخجل من الماضي فأسلافنا تصادقوا مع الخانات البولوفيين وتزوجوا «بالبنات البولوفيات الجميلات» وقبلوا المعمدين البولوفيين بينهم،

وأحفاد الأخيرين صاروا القوزاق الزبروجيين الأحرار بتبديل لاحقة الانتماء (الانتساب) السلافية التقليدية «وف» (إيفانوف) بالتركية «ينكو» (إيفانينكو).

تنشأ الإثنوسات وتضيع في الأزمنة التاريخية ولذلك لكي نتمعن في المسألة الجغرافية للإثنوجينيز يجب دراسة العلم التاريخي - تاريخ الأحداث في ترابطها وتسلسلها، لا تاريخ النصوص والمؤسسات ولا الظواهر الثقافية الحضارية وإنما المآثر - الأفعال. وفقط عندها يمكن الحصول على المواد الأصلية التي لا تصدم القارئ مهما تكن ويمكن فهمها قراءة واستيعابها نقدياً.

ولنسمع الجهة الأخرى، لا يجوز أن نعتب على المؤرخين المذكورين أعلاه بأنهم كانوا غير منتبهين للأخبار والمعلومات الحولية والوثائق والحواشي (التعليقات) والمؤلفات الروسية القديمة، كلا إنهم عرفوا كل ذلك بصورة جيدة وأبحاثهم لم تفقد قيمتها لمجرد شرط واحد لا بد منه وهو أن مسجلي الحوادث التاريخية أنفسهم كانوا أناس عصرهم وركزوا انتباههم على أحداث غير عادية كرسوا لها صفحات مشرقة ولكن من الخطأ أنهم لم يلاحظوا الخلفية العامة التي كان من الواضح جداً أن مسجل الأحداث التاريخية وقراءه لم يعيروها اهتماماً.

ولذلك بالضبط يمكن أن تعطي دراسة أخبار الحوليات باهتمام زائد فقط صورة مشوهة عن الأحداث إلا أن الإشراك الواسع للمواد من تاريخ البلدان المحيطة سمح لـ «أ. يو. ياكوبوفسكي التعامل بروح انتقادية مع النظرة المبتذلة لتاريخ روسيا كحرب أبدية لا في سبيل الحياة وإنما للموت وكتب أيضاً في عام ١٩٣٢م «المؤلفات التاريخية المفعمة بالقصص عن الصدامات الحربية مع البولوفيين (الكومانيين) التي لم تقدر على ملاحظة تلك الحقيقة وهي أن العلاقة بين الإمارات الروسية والسهبية البولوفية تعتبر طبيعية ومتميزة بالتبادل التجاري البضائعي القوي أكثر من الإغارات».

وأبدى باحثون آخرون رأيهم بثقة كبيرة بهذا الصدد لا تثير أهلية (هنا سعة إطلاع - المترجم) بعضهم أدنى شك.

«انطلاقاً من أن فكرة صراع روسيا الأزلي مع السهب - هي من أصل مختلق» كما كتب ف. أ. بارخومنكو وف. أ. غوروليفسكي بصورة أكثر قطعية كتب «إن التصور الكنسي الرسمي المؤثر على الشعب الذي يعيش لا في المدن حيث ترسخ الإيمان المسيحي وإنما في السهب أتى.. من الغرب - بواسطة المبشرين الكاثوليك، والارتباطات الثقافية بين كييف والغرب حملت أيضاً النظر إلى البولوفيين كالنظر إلى «باتوك - بوغ» - السوط الإلهي» وفيما بعد يشير ف. أ. غوردليفسكي إلى أنه بقدر الألفة المتبادلة تأتي التبدلات في العلاقات السياسية المتبادلة بين البولوفيين والروسيين فقد صاروا في القرن ١٢م أكثر وثوقاً ووداً «تأصلوا في الحياة اليومية» وبخاصة عن طريق الزيجات المتبادلة في كل طبقات المجتمع. وهكذا أمامنا مفهومان متنافيان ومؤكدان بأدلة راسخة من كلا الطرفين، وتبعاً لذلك تبقى المسألة قيد البحث ولنحاول حلها بطريقة «بانورامية»

شمولية وذلك لأن تحليل النصوص الحولية قمنا به في عمل خاص تطبقت بفضله معلومات صحيحة يمكن بناء عليها تأسيس نتائج واسعة.

إن الرهاب الكوماني المبني على ثقة لا ريب فيها حسب تقديرات مؤلف «كلمة عن فوج إيغور» إلا أنه بالرغم من عبقرية وقدم الشعر لا يترك مجالاً لأي شك في الانطباع النقدي له كأي مصدر آخر وحتماً كثيراً ما تنشأ (تقوم) التقييمات على حساب التعاطفات الشخصية مع المؤلف وارتباطاته وأذواق وأهداف الذين نحن أحفادهم المجهولون. إن صحة المعلومات يمكن أن تكون مثبتة فقط بعلاقة وآراء المؤلف القديم بالحقائق المثبتة التي لا جدال فيها ويكفي القيام بمثل هذه المقارنة لكي يتم التأكد من أن مؤلف «كلمة في فوج إيغور» كان متحيزاً.

ومقابل هذا يتوافق المفهوم الثاني مع الحقائق التي لا شك فيها، فمن القرن العاشر إلى الثالث عشر عملت الطرق التجارية بشكل حر من كييف إلى البحر الأسود وبحر أزوف وفي وسط السهب قامت المدن الروسية: بيليافيجا على الدون وبيلغورود في أسافل مجرى الدينستر الأمر الذي كان غير ممكن أثناء الصدامات الحربية المستمرة التي حدثت داخل روسيا نفسها كحروب أهلية أميرية.

وفيما يتعلق بالوحدة السياسية للشعوب السهبية التي زعموا أنها قادرة على مواجهة الدولة الكييفية في القرون ١٠-١٣م فذلك خرافة لأن الصدامات المستمرة بسبب المراعي فاقمتها تنظيمات الثأر الدموي التي لم تترك مكاناً للمصالحة والمسالمة ولا سيما الاتحاد على وجه الخصوص، وسرعان ما استطاع خان السهب أن يجد حلاً وسطاً مع الأمير الروسي معتبراً أنه «قبل المعركة لا يحكم على الشجاعة» أكثر من السهبيين الآخرين المرتبطين كلياً بالتقاليد الموروثة. ولهذا السبب هجر السهب الأصلي المجريون والبلغاريون والآلانيون تاركين المكان للآسيويين: البتشينيغ والأتراك الذين زاحموا الكومانيين في السهوب السيبيرية والأورالية وبخاصة في ذلك الوقت عندما تثبتت الخاقانية الكييفية الجبارة في الأرض الروسية، وهكذا هل يمكن التفكير بأنهم استطاعوا أن يهددوا هذه الدولة ذات السيادة بتلك الجماعات المبعثرة من الهاربين وبالأخص أن الرحل لا يستطيعون الاستيلاء على القلاع؟ أما الإغارات والإغارات المضادة، فهي حروب صغيرة مميزة لجميع بلدان القرون الوسطى.

ولما وطد فلاديمير مونوماخ النظام في روسيا ونقل الحرب في الأعوام ١١١١-١١١٦م إلى السهب كان البولوفيون مهزومين ومنشقين إلى عدة اتحادات قبلية ووجدوا لأنفسهم استخداماً بمثابة حلفاء لأولئك الأمراء الذين استأجروهم مقابل أجر. وبقي البولوفيون المستقلون أو «المتوحشون» خلف الدون وصاروا حلفاء للأمراء السلجوقيين.

وفي الواقع لو أن البولوفيين لم يستسلموا في حينه (الوقت الملائم) ولو استمروا بالحرب ضد روسيا لدُمِروا تماماً فعربات النقل المقرونة إلى الثيران تتحرك بالسهب بسرعة ٤كم بالساعة أما في الأراضي الوعرة فأكثر بطئاً، ومقابل ذلك يستطيع الفرسان السير خبباً بسرعة ١٥كم بالساعة وبالخطوة السريعة من ٨-١٠كم وذلك يعني أن الرحل وبخاصة المشتين (المقيمون في المشاتي) كانوا من دون حماية في الحقيقة ضد الضربات الروسية ولا سيما أن الفرسان الخفيفة البولوفية، لم تصمد لضغط الخيالة الروسية الثقيلة. والمناورة ليس لها أهمية عند الدفاع عن النساء والأطفال على عربات النقل، وأخيراً إن المشاتي البولوفية لم تكن متحركة ولا محصنة في حين أن القلاع الروسية حمت بشكل مضمون سكانها، أما الغابة فهي مخبأ على الدوام للهاربين ولو أن خانات البولوفيين لم يأخذوا هذه الظروف بالحسبان لكانوا إذن مغفلين ولكنهم كانوا أذكياء وفضلوا الاتحاد مع الأمراء التشيرنوغوفيين والغاليتسكيين والسوزداليين ضد الكييفيين ما دام هؤلاء يعتمدون على الأتراك الذين كانت لهم عداوة مع البولوفيين ولهذا السبب بالضبط الكتابات الحولية الكييفية حاقدة للغاية على البولوفيين. ويجب الافتراض أن الحوليات التشيرنوغوفسكية كتبت أيضاً الشيء نفسه بالنسبة للأتراك وأصحاب القلابق (مفردها قلبق - غطاء الرأس عند سكان القفقاس وآسيا الوسطى - المترجم) السود ولكن مؤلفاتهم لم تبق مع الأسف.

والسهب المسكون بالبولوفيين المقطع بالوديان النهرية العريضة حيث بقي السكان المحليون غير خاضعين للدخلاء ولم يمتزجوا معهم، فهؤلاء كانوا أحفاد الخزر المسيحيين - البرودنيكيين، ووجودهم حرم البولوفيين من المؤخرة المتينة وجعلوا وضعهم غير مستقر للغاية، علاوة على ذلك، إن الأنظمة التي حملها البولوفيون معهم من سيبيريا لم تتوافق مع ذلك الوضع الذي وجدوا نفسهم فيه في أوروبا.

والذي لعب الدور الحاسم في إضعاف الكومانيين هو انتشارهم الواسع للغاية: من ألطاي إلى الكاربات من جهة ومن جهة أخرى - مزاولتهم الهجرة على نحو واسع: مثلاً في جيورجيا وبدعوة من دافيد الرابع (داود الرابع) ارتحل الخان «أتراك» في عام ١١١٨م مع ٤٥ ألفاً من المحاربين وليس نادراً ظهور الكومان في بلغاريا وهنغاريا وبيزنطة والكثير منهم سيق رقيقاً في بازارات إيران ومصر حيث تحولوا إلى غلمان - الحرس العبيد للسلاطين، وهناك ترقوا بالمناصب بسرعة حتى وصلوا إلى السلطة العليا مثل الديفيز على سبيل المثال مؤسس سلالة الأتابكة الخاصة في أذربيجان.؟

وفي الحقيقة في ظروف عقود الصلح السنوية واتفاقات الزواج بدأ الكثير من البولوفيين اعتباراً من القرن الثاني عشر بالتحول (قبائل كاملة مراراً) إلى المسيحية حتى ابن كونتشاك ووريثه يوري تعمد.

وعد ف. ت. باشوتو أنه بغض النظر عن خصومة الأمراء الروس تناولت الغارات البولوفية فقط ١/١٥ من مساحة روسيا في حين أن الحملات الروسية وصلت إلى الدون والدانوب مؤدية بالمضارب البولوفية إلى الاستسلام.

وسارت عملية الاستنفاد الإثنوسي عند الكومانيين باستمرار ولكن ببطء وهذا ترك لهم إمكانية إيجاد مكانهم بشكل قوى سياسية، فالبتشينيغ أعداء الكومان اعتنقوا الإسلام في القرن الحادي عشر وتصادقوا مع السلاجقة، وهذا يعني أن الكومانيين صاروا في خلاف مع العالم الإسلامي وبالأخص كانوا مجبرين على البحث عن حلف مع بيزنطة الأرثوذكسية وروسيا، وحتى منتصف القرن الثالث عشر لعب البولوفيون دور الحاجز ضد ضغط السلاجقة من الشرق ودور الحلفاء لروسيا عند الاصطدام مع الهنغاريين والبولونيين وتبدل كل شيء فقط في القرن الرابع عشر.

وعلى الأرجح هنا يكمن سبب وقوع الخطأ العلمي فالوضع المألوف عند سكان موسكو الروس امتد حتى القرن الثامن عشر، وهذا يعني أنه قبل الاستيلاء على شبه جزيرة القرم كان معروفاً على نحو استقرائي في القديم من القرون ٩-١٢م أن حرب الثلاث مئة عام عند الحدود الجنوبية - الشرقية الروسية قد حجبت ظاهرة ذات طابع مختلف كلياً، حيث قبائل القرم والنوغاي استطاعت أن تصمد طويلاً لأن الإمبراطورية العثمانية وقفت من خلفها ولكن لم يكن للبولوفيين والأتراك إمكانية تلقي مثل هذه المساعدة.

وحتى في المراجع الدراسية الثانوية التي كونت تفكير المؤرخين فيما بعد ظهر المصطلح المختلق «السهبيون - الرحل» مع أن الإثنوسات الساكنة في السهب العظيم اختلفت في الواقع فيما بينها في أسلوب الاقتصاد وظروف العيش والدين والمصير التاريخي لدرجة كافية حتى لا يؤخذ ذلك بالحسبان (يقصد ذلك المصطلح - المترجم) بحيث صارت النتيجة الصحيحة لا يمكن الوصول إليها أو تحقيقها.

علاوة على ذلك عن روسيا القديمة التي نضبت قواها، قليلاً ما شابهت الموسكوفية القوية العزم المحبة للعمل المفعمة بالباسيونارية الحديثة، ونحن أبناء القرن العشرين معتادون على المراحل الارتقائية من شباب ونضوج الإثنوس، لذلك من الصعب علينا تصور أن أسلافنا الذين تنازلوا لنا عن مكان في الحياة قد عاشوا حتى طعنوا بالسن الذي كان له أيضاً سحره، ولكن ليس الذي نحن ننتظره.

من الصعب على الناس المتربين على فكرة التطور أن يتصوروا عدم تواصل العمليات الإثنية العرقية لأنه كان من الصعب خصوصاً تجاوز تصورات تاريخ القرون الوسطى كتبديل بسيط للحكام. ولكن لو تغلبنا على جمود العقل الفطري لنجحنا بالتخلص من الكثير من الحيرة والارتباك وتفادي الكثير من

التجاذبات والتقرب من الإجابة على أسئلة «ماذا» و «كيف» إلى الإجابة على أسئلة «لماذا» و «لأي سبب» لروسيا والسهب البولوفي.

إن جميع المؤلفين المذكورين أعلاه والذين لم يرد ذكرهم تطلعوا إلى المسألة من جهة واحدة - الروسية وهذا يعني التحامل، أما لو أن مؤرخاً بولوفياً نجا بأعجوبة وكتب الشيء ذاته وبالطريقة نفسها؟ لكان قد حصل كل شيء بالعكس وبصورة معيبة للغاية! وهكذا على سبيل المثال يسرد ف. ف. كارغالوف عمليات الأمراء السوزداليين والتشيرنيغوفسكين التي شارك فيها البولوفيون... ويستنتج أن البولوفيين - أناس سيئون. و م. س. غروشيفسكي يكتب عن الحملات المدمرة للسوزداليين والسمولنيين على كييف... ويدينهم. ما هذا تحاملان متكافئا القيمة أم علم؟.

ولكن يمكن التصرف دون امتهان للقضايا ويقترح ب. د. غريكوف التخلي عن النظرة التقليدية المبسطة للرحل كالنظر إلى «قوة خارجية» بحته بالنسبة إلى روسيا فقد كانت قدرة روسيا بالنسبة للقبائل المبعثرة لا شك فيها ولهذا السبب ظهروا مرة مرتزقة وطوراً اتحاديين متخلقين تدريجياً بأخلاق روسية ومتعودين على الحياة العامة للدولة الكييفية.

وقدمت س. أ. بليتنيفا مساهمة كبيرة بتصنيف التاريخ البولوفيين إلى مراحل وفيما لو أراد أحد ما مقارنة علاقة روسيا مع فرنسا وكتب أنهما تصادقتا دائماً في كل الأوقات لكان من المستبعد أن ينال استحساناً وموافقةً على ذلك، وعلاقات الدول تتبدل وسنة التبدل لا تتوقف والتجافي أيضاً لا يؤدي فقط إلى الخطأ العلمي وإنما إلى الشوفينية[1] والعنصرية، حقاً إنه لغباء مطبق ولهذا السبب نحاول أن نقترح حلاً يستبعد مخالفة أو تخبط منهج تدوين التأريخ العلمي.

إن انتقال ثلاث مجموعات متميزة بالباسيونارية خارجة من ثلاثة شعوب سهبية: الكانغلوف (البتشينيغ) والغُزّ (التيورك) والكومان (البولوفيون) أثناء الاصطدام مع الخاقانية الكييفية شكل حالة من التماس الإثنوسي ولكن بما أن السهبيين والسلافيين لهم المعتزل الأيكولوجي (البيئي) الخاص فقد كون تعايشاً أحدث منعرجاً تاريخياً متعاقباً.

وحدث الاختلاط عند الحدود ولكن كتهجين، وهذا يعني أن العمليات جرت لا على المستوى الشعبي وإنما على المستوى العضوي، والأطفال من الزيجات المختلطة دخلوا في ذلك الإثنوس الذي تربوا فيه، وعند ذلك زالت الصدامات

١- Chauvinsm = الغلو في الوطنية - المترجم.

العنصرية أما الطائفية... فنظراً لازدواجية الإيمان التي كانت شائعة فقد حُلَّت دون صعوبات.

إن توحيد الشعوب وهذا يعني بكامل الإثنوسات لم يكن أحد بحاجة إليه لأن الروس لم يشاؤوا العيش في السهوب التي تتوزع المياه من دون أنهار وغابات والبولوفيون كان من الصعب عليهم للغاية رعي القطعان في الغابة ولكنهم احتاجوا للعربات والفؤوس والأوعية. أما الروس فكان من الملائم لهم الحصول على اللحم والجبن (القريش) بأسعار رخيصة، وارتبطت تجارة المقايضة التي ما أعطت الأرباح للسهبيين ولسلافيي النطاقات السهبية التي تتخللها الغابات بنظام اقتصادي - جغرافي أدى لتشكيل اتحادات حربية - سياسية مميزة لإمارات الضفة اليسرى وريازان واستوى منعرج العملية التاريخية قبل القرن ١٣م تدريجياً.

obeikandl.com

الخاتمة

لقد اقتفينا تاريخ الشعب الخزري منذ نشوئه إلى نهايته ورأينا أن مصير الخزر والدولة التي أنشؤوها كان متقلباً ومتناقضاً. إن أسلاف الخزر - أحفاد الهون - لم يرثوا تقاليد الحضارة الأسيوسطية الضائعة بين الهجرات الدائمة والانتصارات المجيدة والهزائم الساحقة، ولكن التقاليد الآسيوية مع ذلك وصلت إليهم، والمساهمة في أعمال ومؤسسات الخانات الأتراك ربطت شظايا القبائل الأكثر اختلافاً في شعب واحد وحتى بعد سقوط الخاقانية الخزرية التركية بقيت العادات التركية القديمة الصحيحة والسيوف الحادة والرماح الطويلة. وبسطوا سلطتهم على القبائل والشعوب المجاورة.

لقد كان دور الخزر في التاريخ تقدمياً في ذلك العهد فهم أوقفوا هجوم العرب وفتحوا الأبواب للحضارة البيزنطية وأقروا النظام والأمن في سهوب القزوين والبحر الأسود، مما أعطى دفعة قوية لتطوير اقتصاد تلك البلدان، وسبب استيطان (إسكان) السلاف في مناطق الغابات السهبية من أوروبا الشرقية.

ولكن اعتناق الدين اليهودي كان بالنسبة لهم خطوة قاتلة ومنذ ذلك الوقت فقد الاتصال بين الحكومة والشعب وحل محل تطور تربية الماشية والزراعة عصر تجارة السمسرة والثراء الطفيلي للأوساط الحاكمة.

والحكومة الجديدة لم تؤمن بحق شعبها، واستندت إلى رماح الحرس المرتزق، والثقافة التلمودية لم تؤثر في الجماهير وبقيت امتيازاً للقلة، ومنذ ذلك الوقت صار دور الخاقانية الخزرية سلبياً بصورة حادة، وسارت حضارة شعوب أوروبا الشرقية في مجار أخرى.

ولم تستطع كل ثروة التجار اليهود المكدسة في إيتيل أن تشتري قلب السلاف ساكني مناطق السهوب المتخللة بالأحراج والسهبيين في مناطق البحر الأسود - البتشينيغ ورحل سهوب ما وراء الأورال - الغُزّ، والآلان الذين يحتلون الشعاب الجبلية في القفقاس الأوسط والبلغار الساكنين عند شواطئ بحر أزوف. ودانلوب الذي نوى كتابة تاريخ اليهود - الخزر لم يفهم ما هو الدور الغادر الذي لعبته اليهودية مع الدولة الخزرية، لقد استطاع اليهود البقاء على رأس الدولة ولكنها تلاشت على أيديهم لأنهم قطعوا الاتصال كلياً بين السلطة والشعب، ولم يتعلم اليهود الخزر أن الدين يعتبر عاملاً قوياً في الوحدة الاجتماعية حتى عندما

لا يكون هناك من ضرورة إليه في الأساس الاقتصادي. والدين اليهودي بحكم خصائصه لم يستطع يكون دينياً ليس فقط للشعوب الكثيرة الداخلة في قوام الدولة الخزرية، ولكن حتى للخزريين أنفسهم عامة.

وظهر أن كييف الروسية قد أصبحت العدو القوي لخازاريا اليهودية على طريق التطور الاقتصادي والسياسي. وكان الصدام الأخير هو القضاء التام والنهائي على خازاريا، وبفناء الحكومة الخزرية اختفى الشعب الخزري أيضاً، والشيء الأخير هذا يستحق اهتماماً خاصاً. لأن الشعوب عادة لا تختفي بفناء حكوماتها. وفي الحالة الراهنة حصل هذا لأن الشعب الخزري قد أخذ بالاختفاء منذ زمن طويل قبل سقوط المملكة الخزرية، فهو تفكك إلى أجزاء انضمت الغالبية منها إلى الشعوب الأخرى القريبة والأقلية استقرت في إيتيل وأضاعت قوميتها وتحولت إلى طبقة طفيلية ذات صبغة يهودية.

ولم يتنكر الروس أبداً للإنجازات الحضارية للشرق فمن الأتراك ورثوا لقب خاقان الذي اتخذه أمراء كييف الأوائل، ومن البتشينيغ اقتبسوا النظام الإقطاعي المعروف بـ «سلسلة ياروسلافل» ومن البولوفيين السيوف المعقوفة «سيوف خارالوجني» (الكارلوكية) والكثير غيرها أما من خزر إيتيل فلم يأخذ الروس شيئاً وبخلاف ذلك انتمى إلى اليهودية الخزرية المحاربة الشعوب الأخرى المرتبطة مع الخزريين: كالمجر والبلغار والبتشينيغ والآلان والبولوفيين وبخاصة لأنه لم يبق من الحضارة الخزرية آثار في أي مكان.

ومع ذلك لا يجوز التقليل من أهمية حتى هذه المرحلة المتأخرة من التاريخ الخزري ولو أنه كان سلبياً في حقيقة الأمر، ودفعت ضرورة الصراع مع المستثمرين من إيتيل إلى اتحاد الغُزّ مع السلاف حول المائدة الذهبية الكييفية، ومن هذا الاتحاد تشكلت بدورها الإمكانية والمستقبل للنمو العاصف ليس فقط لنظام الدولة الروسية وإنما للحضارة الروسية القديمة، هذه الحضارة كانت دوماً قائمة بذاتها ولم تكن أبداً في أي وقت من الأوقات في تبعية الخزر، وتلك العناصر الشرقية القليلة الأهمية المنقولة عبر خازاريا إلى الحضارة الروسية التي توجد عادة عندما يتعلق الأمر بمسألة الروابط الحضارية بين الروس والخزر ولم تتغلغل بعمق إلى الحضارة الروسية.

واستمر لأكثر من مئة عام مفهوم عام مثالي عن تاريخ الخزر أسسه الفتى ف. ف. غريغوريوف وأنزلت به ضربة حاسمة مقالة نقدية صغيرة مطبوعة في جريدة «البرافدا» لشخص غير معروف اسمه ب. إيفانوف، وقد تسرع ب. ا. ريباكوف خلافاً للحقائق بإنزال الدور التاريخي للخزر إلى درجة ثانوية، وتلخصت مهمتي بإثبات الحقيقة عن طريق إعادة النظر في جميع المعطيات التي يمكن الوصول إليها حالياً عن تاريخ الخزر، وقد ظهر أن ذلك معقد جداً أكثر مما بدا لـ ف. ف. غريغوريوف و ب. أ. ريباكوف، ولكن

ما العمل! هكذا يحصل دائماً عندما نتعرف بانتباه وتفصيل على هذه الظاهرة أو غيرها سواء في الحياة أو في التاريخ.

obeikandl.com